

سلسلة الدراسات الأدبية

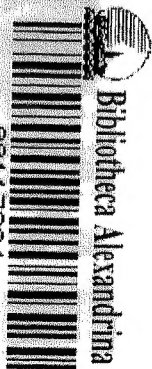
الدكتور أحمد ضيف

بلاغة الحرب في الأنكلس



دار المعارف للطباعة والنشر - سوسة - تونس

00117024



بلاغته العرب في الأندلس

الدكتور أحمد ضيف

بلاغته العرب في الأندلس



دار المعارف للطباعة والنشر
سوسة - تونس

الطبعة الأولى 1924

الطبعة الثانية 1998

العدد المسند من طرف الناشر 98/691

تدمك: 9 - 565 - 16 - 9973 ISBN

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

كانوا ولا يزالون يعتبرون الأدب ضرباً من الفكاهة والتسلية. ويريدون بالأدب نادرة ظريفة ، أو عبارة طريفة ، أو حكمة بليغة ، أو بيت شعر يملك النفس ، ويسحر اللب بتركيبه البليغ وألفاظه الفصيحة . ويقولون فلان أديب : لأنه كثير النادرة ، حاضر الذاكرة ، واسع الاطلاع ، أنيس الجليس ، عذب الحديث ، حافظ راوية . ويقولون هذا كتاب أدب : لأنه جامع لكثير من مسائل اللغة وقواعدها ، والشعر وأنواعه ، والنوادر الخاصة والعامة ، وتواريخ الملوك والأمم . ويقولون فلان كاتب : لأنه طلى العبارة ، عارف باختيار الالفاظ ، عالم بكثير من المترادفات ، تنقاد اليه البلاغة انقيادا ، فيصور الحق باطلا ، ويجعل الباطل حقاً . ولكن الادب نتاج العقول والقرايح البشرية ، وقوة الفكر والادراك الانساني التي تنفق بها السنة الشعراء ، وتسيل بها أقلام الكتاب ، فيفيضون على العالم من أحوال الاجتماع وصورده ، وأسرار النفوس وخفايا الوجود ما يملأ النفس عظمة واعجاباً ، بصحيح الآراء وجمال الافتنان ، ويمتازون عن العامة من الكتاب والمفسرين بدقة الادراك ، وتصوير المعاني النفسية والاجتماعية تصويراً يقرب من أن يكون مدركاً بالحواس .

ان البلاغة - أو الادب كما يقولون - هي خلاصة كد العقول والافهام ، وثمرة هذا الاضطراب الفكري الذي مابرح دليلاً على قوة الادراك وحياة النفوس العاقلة . والغرض من الكتابة البليغة أن يجعل الكاتب أو الشاعر الالفاظ وسيلة من وسائل التعبير عن لحظة من لحظات الحياة لا يكتفي أن يدركها عقله ادراكاً

ثم يتركها تمر ولا تعود ، ولكنه يحرص عليها ويحيطها بمبارات تكشف عن
أمرارها وتبين حقيقتها . قال أحد كبار نقاد الادب « ليست الحياة الآن لهواً
أو لعباً ، ولكنها نوع من المسابقة والمباراة . ذلك الى أننا جميعاً مضطرون الى ابداء
آرائنا في الدين والفلسفة والسياسة والفنون والاجتماع . اذ على كل واحد منا أن
يكون مخترعاً أو آخذاً طريق غيره . والاختراع صعب المثال ، والتقليد مخجل مؤلم .
ليست الحياة دار مسامرة ، ولكنها معمل فكري وجد . أظن ان معملاً كيميائياً يكون
من دواعي السرور ؟ أو ان ميدان مسابقة يكون من أسباب الراحة ؟ لقد تكون
فيه الوجوه مقطبة ، والعيون متعبة ، والجهة في حيرة والحدود متاجبة ¹ »

والحق أن حركات العقول والادراك ليس لها أن تظهر إلا على أقلام الكتاب وألسنة
الشعراء . ليس الأدب من دواعي اللهو ، وانما هو من دواعي الإعجاب والعبرة . أما
العبرة فلما به من آراء الكتاب والشعراء المحتوية على كثير من صور الانسان
وحالات الاجتماع . وأما الجمال فهو من أخص لوازم الادب ، لانه من فنونه ، ولان
الكتابة لا تدخل في باب الادب أو البلاغة حتى تملك الحواس وتأسر العقول بما
فيها من جمال التعبير وحسن الاسلوب والافتنان في العبارة ، وحتى يكون صاحبها
من أصحاب المواهب الفنية ، والملاحظات الدقيقة ، والابداع المطلق .

بهذا يمكن أن يكون الادب شيئاً من جمال الحياة وأثراً من آثار العقول ، ومعرضاً
لصور النفوس والادراك الانساني ، وفناً من فنون الجمال ، ودليلاً على الحياة
العقلية . فهو أكثر الاشياء انتشاراً في الحياة ومن ألصق الاشياء بالاجتماع . لانه
كل هذه الأحاديث التي في المجالس الخاصة والعامة ، والمسامرات من جد وهزل
وأسرار الناس وخفايا ما يمر بين الرجل وأهله وولده وصديقه ، وما يتحدث به
عن نفسه ، وما يتحدث به ضميره ، وما يمر بذاكرته ، وما يوقظ منه حب
الاستطلاع . فليس أدل على الحياة من الأدب .

قد تستغنى بعض الامم عن سماع الموسيقى ، وربما لا تدرك جمال التصوير .

(1). Voir St Beuve, Causerie de lundi T. 13. P. 250

ولكن أمة من الأمم لا تعيش بدون أن تعبر عن ادراكها ، ولا بغير أن تبت عواطفها واحساساتها ، ولا من غير أن تنفخ بالآلامها واحزانها وحظها من الحياة أو آرائها في الوجود

يجب أن يفهم جمهور الناس أن الغرض من قراءة قصيدة بليغة أو قصة أنيقة هو ادراك معانيها النفسية والاجتماعية . ويجب مع هذا أن يسلك كاتبنا وشعراؤنا طريقاً غير هذا الطريق الذي سارت فيه آدابنا زمناً طويلاً فلم تتقدم خطوة واحدة ، ولم تسلك مسلكاً نافعاً ، ولم تفد الاجتماع شيئاً كثيراً ، يجب على شعرائنا وكاتبنا طرق الموضوعات الاجتماعية العامة لنقد هافى كتاباتهم ، والعمل على اصلاحها ، وارشاد الناس الى طريق الخير . وذلك لا يكون الا بكتابة القصص الاجتماعية ، والخروج من هذه الصبغة الشخصية الوجدانية ، التي لا يرى القارىء فيها غير نفس الكاتب أو الشاعر ، وقد تكون نفساً مريضة مملوءة بالخطأ والنظر القاصر .

ان أسلوب القصائد المعروف عندنا لم يعد صالحاً لحالتنا الاجتماعية ، ولا لنفوسنا التي تهذب بشئ من العلم الصحيح ، والنظر في حياة الأمم المختلفة . هذه النفوس لا تطمئن الآن الى قراءة قصيدة ليس فيها غير الوزن المرقص والقافية المنسقة . لانه لا يطر بها هذا الصوت القديم ، ولا تلك الحكم البالية المحفوظة التي ذهبت بجذتها اللسان لكثرة مرورها على الأفواه والاذهان .

ان الواجب على أصحاب البيان وذوى اللسان أن يشتغلوا بوصف الاجتماع وتصوير النفوس ، وأن يتركوا ضخامة اللفظ وعدوبة المعنى - كما يقولون - وأنواع البديع ، ويعلموا أن الحياة جد لا هزل ، وأن الناس أحوج الى ملاحظاتهم النفسية والاجتماعية منهم الى العبث بالألفاظ والبراعة في التشبيه .

هذا ما ندعو اليه ويدعو اليه كل عامل على ترقية اللغة العربية وآدابها . ويجب مع هذا أيضاً أن يعنى المؤلفون والادباء ببيان ما في بلاغة العرب ، من نثر ونظم وما في ذلك من الافكار العامة والمسائل الاجتماعية التي لا تخلو من معرقها الشعراء

والكتاب، والتي هي نتائج العقول والقرائح وسبب حياة الأدب وبلاغات الامم. وهذا ما حاولناه في الكلام على بلاغة العرب في الاندلس في هذا الكتاب كان لعرب الاندلس أدب رائع، وشعر بليغ، ونثر بديع، وسعة في الخيال، وقدرة على الابتكار. وكانت دولة الادب هناك في عز مجدها وأزهى عصورها، وساحاته خاصة بالشعراء والكتاب في كل فن من فنون البيان، أو مذهب من مذاهب البلاغة. « من عجائب علمهم وغرائب نظمهم ونثرهم مما هو أحلى من مناجاة الأحبة بين التمتع والرقبة، وأشهى من معاطاة العقار، على نغمات المزاهر والاورار لأن رؤساء هذه الجزيرة كانوا رؤساء خطابة، ورؤوس شعر وكتابة. ترفقوا فأنسوا البحر واسترقوا فأدركوا الشمس بالبدر. وذهب كلامهم بين رقة الهواء وجزالة الصخرة الصماء^١ »

« فالاندلس عراق المغرب عزة انساب ورقة آداب واشتغالا بفنون العلم واقتنانا في المنشور والمنظوم، لم تضيق لهم في ذلك ساحة، ولا قصرت عنه راحة... وهم أشعر الناس فيما كنزه الله في بلادهم وجعله نصب أعينهم، من الاشجار والانهار والاطيار، لا ينازعهم أحد في هذا الشأن... وأما اذا هب نسيم. ودار كاس في كف ظبي رقيم. وصفق للماء خرير. أو راقت العشيّة وخلفت السحب ابرادها الفضية والذهبية. أو تبسم عن شعاع نغر نهر، أو ترقرق بطلّ جفن زهر. أو خفق بارق. أو وصل طيف طارق. أو وعد حبيب فزار من الظلماء تحت جناح، وبات مع من بهوى كالماء والراح... فؤلئك هم السابقون الذين لا يجارون ولا يلحقون. وليسوا مقصرين بالوصف اذا تقعقع السلاح، وسالت خلجان الصوارم بين خلجان الرماح. وبنت الحرب من العجاج سماء. واطلمت شبه النجوم اسنة واجرت شبه الشفق دماء... وقد أعاتهم على الشعر أنسابهم العربية. وبقاعهم النضرة وهمهم الابية... الخ^٢ »

(١) راجع خطبة ابن بسام في الجزء الاول من الذخيرة

(٢) راجع نفع الطيب طبع أوروبا جزء ٢ صفحة ١٠٧

فكان هؤلاء الكتاب والشعراء أثر عظيم في اللغة العربية وآدابها، ولا سيما ما ابتكروه من أنواع المعاني والخيال في النظم والنثر لذلك رأينا أن نذكر هنا شيئاً من هذا . وبدأنا كلامنا بفصول موجزة عن تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، حتى لا يحرم من لا يريد أن يكلف نفسه الاطلاع على ذلك من أن يستفيد من هذا الإيجاز ولكننا لم نقصد من هذا الكتاب أن يكون تاريخاً جامعاً لأدب العرب وبلاغتهم في الأندلس، ذلك لم يكن من غرضنا الآن . وإنما أردنا أن نجمع طائفة قليلة من الشعراء والكتاب المعروفين هناك، ونورد شيئاً من منظومهم ومنثورهم ونتكلم عما لهم من الآثار الفنية في شعرهم ونثرهم، لنفتح على طلاب الأدب وتلاميذ المدارس باباً من أبواب الفهم والبحث في بلاغة العرب . فإذا وفقنا الله إلى العودة في هذا الموضوع كانت لنا جولة أوسع من هذه . والله المسئول أن يرتدنا إلى الصواب .

القاهرة في ذي القعدة سنة ١٣٤٢ الموافق شهر يولييه سنة ١٩٢٤

محمد ضيف

العرب في الأندلس

ظهر الاسلام في العرب فانتشروا في الأرض وأوغلوا في الفتح واختراق الآفاق، وانسابوا في البلاد وانساب عليهم الظفر والغنائم. قوجدوا في ذلك مطعماً لهم، وسعة لدوتهم، وعونا لدينهم، وعزاً لمجدهم. ففتحوا في نحو ثلاثة قرون ما لم تصل اليه أكبر دولة في العالم.

وقد خرج العرب من بلادهم الى مصر فالقيروان فبلاد البربر فالاندلس. فأسسوا هناك دولة واسعة الارحاء، كانت أعظم دولة أقامها العرب، وأنغر مدينة جاء بها الاسلام. توغل المسلمون في افريقية سنة ٥٠ من الهجرة في خلافة معاوية ابن أبي سفيان، بقيادة عقبة بن نافع الذي أسس مدينة القيروان. وانتشروا في بلاد البربر شمال افريقية فأسلم سكانها. وفي سنة ٨٣ عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي الى موسى بن نصير بولاية افريقية. فنزل القيروان وأخضع قبائل البربر. ثم سار الى طنجة وفتحها. فدانت لسلطانه جميع هذه البلاد، وأسلم أهلها ومنهم أهل طنجة. وترك موسى بن نصير جنده تحت قيادة مولاه طارق بن زياد. ثم تطلع الى فتح اسبانيا، لما علم من ضعف أهلها واضطراب حالها. فاستأذن الخليفة في ذلك، ونزل الشواطىء في سنة ٥٩١هـ، وفي سنة ٩٢ هجر طارق بن زياد البحر مع جنوده، ونزلوا الجبل المسمى الآن باسباسه. وانتشروا في بلاد الأندلس انتشاراً عظيماً. ولما استقرت قدمهم هناك نزح اليها العرب من كل بطن وقبيلة، من عدنايين وقحطايين وغيرهم. فن العدنايين القرشيون والهاشميون الذين كانت منهم دولة بنى حمود. ومنهم الخزوميون الذين منهم أبو بكر الخزومي الشاعر الأعمى المشهور، والوزير ابن زيدون. ومن بينهم الفهريون، ومنهم عبد الرحمن الفهري الذي غلبه على أمره، وأخذ منه الملك عبد الرحمن الداخل مؤسس دولة بنى أمية بالاندلس. اما القحطايون أو اليمينيون فكانوا أكثر

انتشارا . ومن قبائلهم كهلان . ومنها محمد بن هانيء الشاعر المشهور ، ومنهم الازد ومنهم الجم الغفير بالاندلس^١ ورحل الى الاندلس أيضا كثير من أهل مصر والشام والعراق . كما عبر اليها من مرا كش وشمال افريقية جماعة من البربر . واختلط كل هؤلاء بسكان البلاد الأصليين ، من قوط وغيرهم بالمصاهرة والمصادقة ، وجمعهم الاسلام فكانوا أمة واحدة . ولكن هذه الأمم لم يكدهم يجتمع أمرها حتى دب فيها ديبب التنازع . وكانت العصبية العربية في أشد ما تكون . فقام النزاع والخصام بينهم وأيقظوا الفتن القديمة النائمة . ودارت رحى الحرب بين اليمينيين والمضريين ، وتنافسوا في الملك ، حتى أدى ذلك الى انقسام الامارة فيهم وادلتها بين الجندين سنة لكل دولة^٢ . وكان خلفاء بنى أمية بعد ذلك يستعينون ببعض القبائل على بعض تأييدا للمكهم ، ويميلون الى اليمينيين الذين نصرهم في واقعة مرج راهط . فكان انقسام العرب منذ وطئت أقدامهم هذه البلاد^٣ . وقد دامت هذه الفتن مدة وجود الدول الاسلامية في بلاد الاندلس ، حتى قيل : ليست هناك بقعة من أرض الاندلس الا رويت بدماء المسلمين . ولم يكدهم يخلو يوم من الأيام التي خفقت فيها راية الاسلام هناك من حرب أو شجار بين المسلمين والمسيحيين واليهود ، أو بين بعض المسلمين وبعض مع هذا فقد كان لدول المسلمين عصور ذهبية ، وأيام زاهرة ، أثمرت فيها قرآنهم وجهودهم . وظهر فيها صفاء عقولهم وميلهم الفطرى للرقى ، حتى أصبحوا قواد العالم واساندة المعبورة . وربما كان ذلك التنافس في الملك من أسباب رقى تلك البلاد . لان كل امير او خليفة كان يريد ان يوطد ملكه بنشر العلوم والمعارف . ولا سيما ان العباسيين كانت مدينتهم ازهرت في بغداد ، فارادوا ان يجاروهم في قرطبة ، ويظهروا عليهم فيما كان لهم من الفضل . هذا الى ما كان عليه

١ راجع الباب الثانی من نفع الطيب

٢ انظر الجزء الاول من تاريخ المسلمين في أسبانيا تأليف دوزى صحيفة ٢٥٢ وتاريخ

ابن خلدون جزء ٤ صحيفة ١٢٠

٣ راجع الفصل الحادى عشر من الجزء الاول من كتاب دوزى المذكور

العربي من ميله للعلم ونشره ، لأنه كان يرى في ذلك نشر المدينة على يديه ، وهذه وسيلة من وسائل الفخر والاعجاب اللذين هما من أكبر مظاهر الاخلاق العربية . ولقد كان مثل الأمة العربية مثل النائم المستغرق في نومه ، فإذا استيقظ كانت يقظته يقظة النشيط المجد .

ولما دخل العرب الاندلس ادخلوا معهم بلاغتهم ولغتهم التي كانت من أكبر مظاهر الفنون لديهم ، فتبعت اول خطوة خطاها أكبر قوادهم فاتح هذه البلاد طارق بن زياد . وأول مظاهر تلك البلاغة العربية الخطبة الحماسية الشهيرة لهذا الفاتح العظيم ، التي تدل على رسوخ ملكة البيان في القواد ، وخبرتهم بالقيادة ونفوس الجنود ، وكيفية امتلاكها بالرهبة أحيانا والرغبة تارة ، وبث الأمل في نفوسهم باكتساب الغنيمة وانتظار الاجر من الله ، وان القائد بلسانه كالقائد بسيفه وسنانه . قالها طارق بن زياد وهو قادم على عدوا أكثر منه عددا وعُدّة ، لانه دخل الاندلس ومعه اثنا عشر الف رجل اذهب بهم سبعين الفا من الاعداء

وهذه الخطبة هي اول ريج هبت على تلك البلاد معطرة ببلاغة العرب . واول كلام بليغ عبر عبيره هناك . بل اول تاريخ البلاغة العربية . ولم تكن بلاغتها في الاسلوب وحده ، بل في الحماسة والشجاعة اللتين كانتا من طبع العربي . وهي من نوع الكلام الذي يوحى به حب الجهاد ، والرغبة في نيل الاجر الدنيوي والاخروي معا ، ويذكر الجيوش بمفعرة النصر على العدو ، أو الموت في سبيل الدفاع عن الحوزة ونشر الدين . وفيها من ضروب الاستبسال والترغيب في القتال ما لا يكون الا من قلب حديد وقائد عظيم محارب^١

١ وهذه هي خطبة طارق بن زياد :

أيها الناس . أين الفر . البحر وراءكم . والمدو امامكم . وليس لكم والله لا الصديق والصبر . واعلموا انكم في هذه الجزيرة اضيع من الايتام في مأدبة الشام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه واسلحته واقواته موفورة . وانتم لا وذر لكم الا سيوفكم . ولا اقوات الا ما تستخلصونه من ايدي عدوكم . وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهب ريجكم وتوضت القلوب من رعبها منكم الجراء عليكم . قاذفوا عن انفسكم خذ لان هذه العاقبة من امركم بمنحزة هذا الطاغية . فقد القت به اليكم مدينته

هذا وقد كان للمسلمين هناك عصور تاريخية وعصور أدبية . أما العصور التاريخية فقد بدأت بمصر الامراء منذ الفتح الى سنة (١٣٨) . تولى الامر فيها عشرون اميرا كانت مدتهم ستة واربعين عاماً (٩٢ - ١٣٨) . وكانت هذه الامارات تابعة للخلفاء في المشرق زمن الامويين والعباسيين . ولكن هذا العصر كان عصر اضطراب وشجار لا ينقطعان . ولما علم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الاموي بما هناك من المنافسة بين اليمانيين والمضريين ، وكان قد فر من ظلم ابي جعفر المنصور الذي نكّل بيني مروان ، التجأ الى بلاد البربر وذهب الى الاندلس مع جماعة من أتباعه ، واسس هناك دولة بنو امية سنة ١٣٨ واستتب له الملك سنة ١٤١ هـ واستولى على قرطبة بمساعدة اليمانيين ، فتأسست دولة بنو امية التي كان عصرها من ازهى عصور العلم والادب والحضارة بجميع انواعها . وبقيت هذه الدولة ٢٨٤ سنة (الى سنة ٤٢٢ هـ) تولى الملك فيها ١٩ خليفة . وقد بلغت الدولة ذروة مجدها في زمن عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر (٣٠٠ - ٣٥٠) ودامت مع الدولة العباسية بالمشرق . فكان نور المدينة

الحصينة . وان اتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لانفسكم بالموت . وانى لم اخذكم امرا انا عنه بنجوة . ولا حملتكم على خطة ارخص متاع فيها النفوس . ابرأ منها بنفسى واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالارفة الالذ طويلا . فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسى . فما حظكم فيه باوفر من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسن من بنات اليونان الزافات في الدر والمرجان . والحلل المنسوجة بالمتيان المنصورات في قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك امير المؤمنين من الابطال عربانا . ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهارا واختانا . ثقة منه بارتياحكم للطعان واستباحكم بمجالدة الابطال والفرسان . ليكون حظه منكم ثواب الله على اعملاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى انجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين . واعلموا انى اول مجيب الى ما دعوتكم اليه . وانى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاعة القوم لذريق فقاتله انشاء الله تعالى . فاحلوا معى فان هلكت بدمه فقد كلفنكم امره ولم يعوزكم بطل غائل تسندون امورك اليه . وان هلكت قبل وصولي اليه فاحلفوني في عزيمتى هذه واحلوا بانفسكم عليه واكتفوا اليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بدمه يخذلون (فتح الطيب طبع اربا جزءا صحيفة ١٥٠)

الاسلامية يسطع من المشرق والمغرب معا. فان عبد الرحمن الداخل عاش من عصر ابي جعفر المنصور الى زمن هرون الرشيد (١٣٢ - ١٨٢) وكان الحكم بن هشام معاصراً للمأمون (١٨٠ - ٢٠٦) فكانت الدولتان تتسابقان في ميدان العلوم والحضارة. وكانت قرطبة وبغداد كعنتى العلماء ومنبعى العلوم والفنون .

وبعد زوال دولة بنى امية اتقسم الناس احزاباً وشيعاً. فكانت هناك ممالك كثيرة مستقلة سموا ملوكها بملوك الطوائف . فقام ابن عباد في اشبيلية . وابن الأفطس في بطليوس. وذو النون بطليطة. وابن هود بسر قسطة الخ. وبقيت الحال كذلك كانت البلاد فيها أكثر ماتكون اضطرراً^١

مع هذا فقد كان لملوك الطوائف ميل عظيم للعلوم . فكان ابن الافطس الملقب بالمظفر احص الناس على جمع علوم الادب خاصة من النحو واللغة والشعر ونوادير الاخبار وعيون التاريخ . انتخب له مما اجتمع من ذلك كتاب كبير ترجم باسمه (المظفرى) كان يقع في نحو ٥٠ مجلداً . وكان لابنه المتوكل قدم راسخة في صناعة النظم والنثر . قالوا : وكانت ايام بنى المظفر اعياداً ومواسم ، وكانوا ملجأ لاهل الادب. وفيهم قال الوزير الكاتب ابو محمد عبد المجيد بن عبدون قصيدته الشهيرة وكان بنو هود ملوك سر قسطة وما يليها من اهل العلم وانصاره. فقد كان المؤمن بن المقدر بالله قائماً على العلوم الرياضية وله فيها تاليف. منها كتاب « لاستكمال المناظر » ومن اشهرهم ابو القاسم المعتمد على الله بن عباد ، كان شاعراً اديباً . وكان لا يستوزر وزيراً الا أن يكون اديباً وشاعراً ، ومن وزرائه الكاتب الشهير ابن زيدون. ومنهم الكاتب ابن عمار . وكان

١ قال صاحب المعجب : واما حال اهل الاندلس بعد الحلال دعوة بنى امية فقد تفرقوا غرقاً وتغلب في كل جهة منها متغلب ؛ وضبط كل متغلب ما تغلب عليه وتقسوا القاب الخلافة . فمنهم من تسمى بالمعتضد ومنهم من تسمى بالمأمون وآخر تسمى بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمعتد وغير ذلك من القاب الخلافة . وفي ذلك يقول ابو على حسن بن رشيق

مما يزهدي في أرض أندلس سماع مقتدر فيها ومعتضد
القاب مملكة في غير موضعها كاهن يحكي انتفاخا صولة الاسد

المعتمد هذا من اعظم ملوك الطوائف. ولم تذهب دولته الا بعد ان استعان
بيوسف بن تاشفين الذى تغلب عليه واسره فى افريقية بعد ان ابلى بلاء حسنا
فى محاربته (سنة ٤٨٤ هـ). ومنذ ذلك الزمن ملك البربر اسبانيا وسموا بالمرابطين ،
واصبحت الاندلس ولاية تابعة لافريقية. وملك يوسف بن تاشفين بلاد الاندلس
واصبح هو وابنه من اكابر الملوك^١

اما دولة المرابطين هذه فعلى الرغم من ميلها للعلوم . لم يكد يستتب للو كها
الامر حتى ظهر فيهم الجهل والتعصب لمسائل الدين. وابتدأت الحالة العقلية تنحط ،
وحركة اللغة والعلوم تقف. وفي زمن على بن يوسف بن تاشفين ظهر التعصب لمذهب
الامام مالك ، حتى قالوا انه نسي النظر فى كتاب الله . وصودرت كتب الكلام ،
ومنع الكلام فى العقائد ، وأمر باحراق كتب الغزالي. ثم عمت الفوضى جميع البلاد ،
واضطرب حال المسلمين بعد سنة خمسمائة ، واوكلت الأمور العامة للنساء . وعلى
أثر ذلك قامت دولة الموحدين التى نشأت بمراكش فى أوائل القرن السادس
واراد الموحدون ان يردوا عظمة عصر بنى امية من علوم وفنون وصناعات . واشتهر
فى زمنهم طائفة من العلماء والشعراء والفلاسفة. فقد كان لامرأته ميل عظيم للعلم
كأن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ — ٥٨٠) الذى اشتهر حبه للعلم
والاشتغال به وجمع الكتب ، وكان يتناقش مع ابن رشد الفيلسوف الشهير . حتى
قال ابن رشد انه هو الذى حملنى على تلخيص ما تلخصته من كتب الحكميم ارسططاليس .
ثم ظهر بنو هود فى أوائل القرن السابع الهجرى وغلّبهم بنو الاحمر ملوك
غرناطة . واضطربت الحال فى هذه المدة بين بنى الاحمر وبنى هود ، كما كانت
عند الفتح بين الامراء . وانتهت الدولة فى أواخر القرن التاسع الهجرى حيث خفت
صوت المسلمين هناك . وقد ظهر فى هذه المدة الاخيرة كثير من الادباء والشعراء
كلسان الدين بن الخطيب وابن زمرك وغيرهم.

اما عصور الادب والبلاغة فقد ابتدأت بتأسيس الدولة الاموية . ولم يأفل

١ قالوا وانقطع الى امير المسلمين من الجزيرة من اهل كل علم فحولته حتى اشتهت حضرة
حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من اعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم
يسبق اجتماعه فى عصر من العصور

بحجم هذه الدولة لا بعد ان أفعمت البلاد بالعلماء والفلاسفة والادباء ومعاهد العلم ودور الكتب . وكانت الصبغة العربية في هذا العصر ظاهرة في الشعر والنثر . لأنها كانت أشبه بما في بلاد المشرق . فلما كثر الترف وذاع اللهو والمجون في اواخر الدولة وفي دولة العامين ، وفي عصر ملوك الطوائف ، ظهرت الاباحة في كل شىء ، وظهر كل هذا في انواع البلاغة من نظم بديع ونثر رشيق ، ومن كلام في وصف مجالس اللهو والطرب والغلمان والنساء ، وأغرب الشعراء والكتاب في هذه الانواع . وأكثر مشهورهم ظهوراً في زمن ملوك الطوائف وبعده ، كما ظهر كثير من العلماء والفلاسفة والادباء . وما زالت النهضة الادبية سائرة سيراً حثيثاً ، لان العقول كانت قد نضجت واخذت في البحث والاستنباط . وقد زالت الدولة على أثر الاضطرابات السياسية ، والحياة العقلية في عز مجدها . وعلمائها وادباؤها كانوا لا يزالون في ابان نشاطها ، ونشوة يقظتهم العقلية حتى انتشروا في البلاد ، وأفاضوا عليها من فضل علومهم ما كان له أثر نافع عند الامم التي نزلوا فيها .

الحياة العقلية في الأندلس

امتزج المسلمون الذين دخلوا الأندلس بسكان البلاد وتصاهروا وتحابوا . ثم دخل كثير من غير العرب في الاسلام ، فظهرت صلة أخرى غير صلة الاجتماع في بقعة واحدة ، وهي صلة الدين ، وامتزجت كل هذه الاجناس بعضها ببعض امتزاجا تسرب في عقولهم كالتسرب في دمائهم . فكانت لهم نزعة عقلية جديدة . ونمت مواهبهم الفطرية ، وساعدتهم على ذلك انتجاعهم بلاداً واسعة غنية جميلة ، مختلفه المناظر متعددة المناحي ، فكان أثر ذلك كله ان أصبحت لهم مميزات عقلية وصفات لم تكن لسيرهم من العرب الخالص . فاشتغلوا بأنفسهم في نقل العلوم ونشرها ، ووصلوا الى البلاد في طلبها ، ورحل اليهم كثير من العلماء ، فاخذوا عنهم كما أخذوا عن آثار اليونان والرومان والفرس . ولم يكن للعرب اذ ذاك من يزاحمهم ، لان معالم الحضارة كانت خفيت . والعالم ينطلع الى من ينقذه من مغالب الموت ويفيض عليه بنور العرفان . وكان العرب أبطال تلك الايام ، فاصبحوا زعماء المدنية . وأرادوا أن ينالوا شرف هذه الزعامة ويمسكوا زمام العالم . وقد عرفوا ان ذلك لا يكون الا اذا ارتقت العقول وتقدمت العلوم ، وان دولة لا تؤسس الا على العلم ، وان أمة تريد أن تعيش لا تنحى الا بالعلم . فاراد عبد الرحمن الداخل أن تكون دولة بني أمية في المغرب أثبت دعامة من دولة بني العباس بالمشرق ، وأبقى وأغخم من ملك آبائهم في ربوع الشام فتمهدت في زمنه وسائل السعادة والمدنية وكان يعمل على ترقية العقول ونشر العلوم والفنون والصناعات . كذلك كان عبد الرحمن الثاني المعاصر للأمون (من سنة ٢٠٦ الى ٢٣٨) شديد الرغبة في

١ فقد روي عنه

ابن أمية قد جبرنا صدعكم بالغرب ورمنا والسعود قبائل
مادام من نسلي امام قائم فالحكم فيكم ثابت متواصل

الفنون والأدب والموسيقى ، فعمل على ترقية أذواق أهل الاندلس بنشر هذه الفنون الجميلة . فكان خلفاء بني أمية يجارون دولة بني العباس في حضارتهم وفي كل شيء لديهم . وأرادت قرطبة أن تظهر على بغداد . فأدخل عبد الرحمن الثالث في اسبانيا ما كان عند العباسيين من علوم وفنون . وأنشأ في قرطبة كثيراً من المباني الفخمة . وبلغت أبهة الملك منهاها في أيامه . وفي عصره كانت المدينة الاسلامية زاهية . فكان العلماء والادباء يقدون من المغرب الى المشرق ، ومن المشرق الى المغرب . والطريق من بغداد الى قرطبة لا يغيب عنه ضوء العلم ، ولا تنقطع عنه قدم العلماء ، والعالم يستضيء في ظلمة جهله بأشعة العلوم العربية ، ويهتدى بأنوار العرب وجهودهم في نقل الحضارة من اليونان وغيرهم ، مما كشفوا مخبئاته وفتحوا معيئاته . وقد نمت مواهب العرب في اسبانيا كما ينسب النبات الصالح للحياة في الارض الخصبة الطبية . وظهر أثر ذلك كله في العلوم والفنون ، كما ظهر في أنواع البلاغة من شعر ونثر ، مما لم يكن عند سواهم . ذلك لما كان لهم من النشاط والجد والمثابرة على البحث والتنقيب ، والعمل على فهم ما تركه الناس قبلهم من علوم عقلية أو عقلية ، ومن صناعات وفنون . فكان لهم أثر في كل شيء . أطلعوا عليه ، فألفوا ودونوا واخترعوا ، مما لا يكاد يحصى ، حتى ان الحركة العقلية لديهم لم يكن لها مثيل في زمنهم ، لأنها كانت نتيجة جهود العقول والقرائح عند العرب جميعاً .

وقد عثوا عناية عظيمة بجمع الكتب في كل علم وفن . فقد كان في اسبانيا ستون مكتبة عامة ، أنشأها الخلفاء الامويون وغيرهم . أشهرها مكتبة قرطبة ، وكانت تحتوي على الكتب العقلية والنقلية التي ترجمها وألفها العرب في الزراعة والفلك والرياضة . وفي الطب والكيمياء والموسيقى . وفي أصول الدين ككتب التوحيد والفقه والحديث والتفسير . وفي فنون الأدب كالبلاغة والتاريخ والقصص والرحلات والخطب ودواوين الشعراء المختلفة ومعاجم اللغة . كان ذلك كله مجموعاً جماً منظماً في مكتبة الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦) كل غرفة

محتوى على علم أو فن من الفنون.^١ واشتدت رغبة الحكم في اقتناء الكتب فكانت فهارس المكتبة أزبعة وأربعين ، وبلغت الكتب فيها مائتي ألف مجلد . جمعها من افريقية وفارس وجميع البلدان . وانتقلت رغبة جمع الكتب الى طبقة العامة حتى صار ذلك أنفس ما يقتنى . وحرص الناس عليها وعلى نقلها . وكان الحكم نفسه عالماً بالاخبار والأنساب ، محباً للقراءة ، حتى قلوا انه قلما يوجد كتاب في مكتبته الا كان له نظر فيه وتعليق عليه ، يكتب عن المؤلف وعن مولده ووفاته ويأتى بفرائب لا توجد الا عنده . وكان يجمع في داره الحدائق في صناعة النسخ والضبط والاجادة في التجليد ، ويوجد عليهم بالمال . فكانت داره أشبه بمجمع علمي . وكان يبعث في الكتب الى الافطار رجالاً من التجار ، ويعطيهم الأموال لشراؤها حتى جلب منها الى الأندلس ما لم يكن لهم به عهد ، مما كان يضاهي ما جمعه ملوك بني العباس في الازمان الطويلة . واستخدم العلماء في كل ما يساعد على العلم ونشره ، فكان منهم الوراقون المشهورون المعروفون بالضبط وحسن الخط . وبعث في كتاب الأغاني الى مؤلفه أبي الفرج بألف دينار من الذهب العيين ، فجاءه بنسخة منه قبل أن يخرجها الى العراق . كذلك كان للخلفاء ميل عظيم الى اكرام العلماء والاخذ بنصارهم.^٢ فكان المنصور بن أبي عامر على مثل هذه الحال يعمل على ترقية العلوم ونشرها في انحاء الدولة لدى الرعاية على اختلاف أجناسهم ونزعاتهم ، بعد أن كان العلم مقصوراً على الوجوه منهم . وكان يزور المدارس ويحضر الدروس ويختلط بالطلبة ، ويمدح المدرسين

١ كان الحكم من أشد أنصار العلم ، لأن اياه عبد الرحمن الثالث رباه بأمر الاساتذة ووكّل أمر تعليمه الى أبي علي القالي . وقد نشر الحكم على نفقته الخاصة مؤلفات احمد بن عبدربه صاحب العقد الفريد . وجعل في قرطبة أكبر د ر لمطالعه الكتب العربية وجعل أخاه عبدالقزيز مدياً لها وحافظاً عليها ، على حين ان اخاه المنذر كان له الرياسة على أندية العلوم المختلفة التي تأسست في قرطبة

٢ راجع خبر دخول أبي علي القالي الى الاندلس والاختفاء به واشتغال الحكم بالعلم وجمع الكتب — نفع الطيب طبع أوروبا جزء ١ صفحة ٢٥٠

ويكافئ التلاميذ على جدهم ، ويجلس في مجالس العلماء للمناقشة والبحث ، ويختار من نابغهم القضاة والقراء والخطباء ^١

على مثل هذا كانت عناية العرب بنشر التعليم تفوق كل عناية . فكانوا اذا فتحوا بلداً أو مدينة يبدأون بإنشاء مسجد ومدرسة ^٢ وكأنهم يقصدون بذلك أن نشر الدين والعلم معاً لازم تهذيب الامم وأن تربية النفوس بالدين كترية العقول بالعلوم والمعارف . وعندهم أخذ أهل أوروبا المدارس الجامعة ونظام « الكليات » التي يجتمع فيها كثير من الطلبة على أساتذة يتعلمون العلوم المختلفة . وكان في كل مدينة من مدن اسبانيا مدرسة كبيرة . بل كانت القرى تحتوى على مدارس لتعليم القرآن والقراءة والكتابة . وأصبح السواد الأعظم من سكان البلاد عارفاً بالقراءة والكتابة ، على حين أن أهل أوروبا كانوا من العامة الذين لا يقرأون ولا يكتبون ، لأن التعليم كان منحصرًا لديهم في طائفة التسوس الذين لم يخرج العلم من دائرتهم ، وإن تعدادهم قلى بعض الامراء والاغنياء . وكانت معاهد التدريس خاصة بالعلماء والفضلاء ورؤساؤها من أكبر الرجال المفكرين ^٣.

٢ هذا على الرغم من تظاهر المنصور بكمراهة علوم الفلسفة والنجوم ارضاء لشهوته السياسية . راجع طبقات الامم في ذلك

٢ بلغت مساجد قرطبة في زمن عبد الرحمن الداخل ٤٩٠ مسجداً

٣ أما العلماء والمؤلفون فكثيرون في كل علم وفن. ذكر جلة من ذلك ابو محمد بن حزم الحافظ في رسالة طويلة رد فيها على الحسن بن محمد القيرواني فيما كتبه في تحليل علماء بلده وتقصير أهل الاندلس في ذكر علمائهم (نفع الطيب طبع اربوا جزء ٢ صحيفة ١٠٨)

فن المؤرخين ابو مروان حيّان بن خلف (ولد سنة ٣١٧ وتوفي سنة ٤٦٩) وكتابه المسمى بالمتين أو المبين في تاريخ الاندلس يقع في ستين مجلداً (منه نسخة بجامعة الزيتونة بتونس) وله كتاب المقتبس في تاريخ الاندلس في عشر مجلدات (به نسخة بتونس واكسفورد) وللقاضي ابي القاسم ساعد بن احمد الطليطلي كتاب التعريف أخبار علماء الامم من العرب والعجم. ومما ألف في الجغرافيا كتاب معجم ما استمع من البقاع والاماكن .

ومن أشهر المنجمين ابراهيم بن ارياحيل الاسرائيلي من رجال القرن الخامس الهجرى ويؤثر عنه أنه باشر عدة مرات رصد التحقيق تقطع الراس والذنب من الارض . ومنهم جابر بن اطلع الاشيلي الذي اختصر كتاب المجسطي لبطليموس. ومنهم ابو الوليد محمد بن رشد القرطبي الفيلسوف ويقولون أنه أول من تلبه فلسفه على وجه الشمس وكتب عنها. وكثير من هؤلاء كانت لهم قلم

وكان للطلب أربع مدارس أهلة بالمدرسين والتلاميذ من جميع الملل والاجناس
في قرطبة واشبيلية وطليلة ومرسية

هذا شيء يسير عن الحركة العلمية والأدبية في الأندلس. منها يمكن الوقوف
على مقدار ما كان هناك من الميل الى العلوم والمعارف، وما وصلوا اليه في الحضارة
والاطلاع. وكثير من هؤلاء العلماء كانوا من الادباء والفقهاء. وقد كانت لهم
عناية خاصة بعلوم اللغة والدين، لان تربيتهم العقلية كانت مؤسسة على هذين الفرعين.
لذلك كان لكثير من علماء العرب المتخصصين في العلوم الرياضية والطبيعية
شهرة عظيمة في علوم اللغة والدين. فكان أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بابن
السمينة من أهل قرطبة بصيراً بالحساب والنجوم والنحو واللغة والعروض ومعاني
الشعر والفقه والحديث والأخبار والجدلي. وكان الحافظ أبو الوليد هشام من أعلم

راسخة في الهندسة والمساحة والجبر وسائر العلوم الرياضية.

ومن اشتغل بالفلسفة أبو محمد علي بن حزم من رجال القرن الخامس الهجري. وله كتاب الفصل
بين أهل الاهواء والنحل وكتاب أخلاق النفس وكتاب مراتب العلوم وغيرها. ومنهم ابن باجة
القرطبي المعروف بابن الصائغ من رجال القرن السادس ومن أكابر العلماء في الفلسفة والرياضة
والطب والموسيقى. ومنهم ابن طفيل الذي كان معاصراً لابن الصائغ ويقولون أنه أول من قال بتدرج
الحيوان الى انسان وهو صاحب الرسالة الشهيرة التي سماها حسي بن يقظان. ومن تلاميذه أبو
الوليد بن رشيد المذكور أشهر علماء الأندلس وأكبر فلاسفتها الذي ألف في الطب ولخص بعض
مؤلفات جالينوس في الامزجة والطلل والحيات

ومن أطباء الأندلس بنو زهر. وهم أبو الملاء بن زهر. وابنه أبو مروان عبد الملك وابنه
أبو بكر. وعبد الملك هذا صاحب كتاب التيسير وكتاب الاغذية اللذين كانا لها شهرة عظيمة
في المشرق والمغرب. ومن المشتغلين بالعلوم ابن البيطار واحد اهل عصره في معرفة النبات
سافر الى بلاد الاغريق وأقصى بلاد الروم والمغرب واجتمع بكثير ممن يمانون هذا الفن وطاين
حنائته وتحققها. ومنهم أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي المتوفى سنة ٥٠٠ من الهجرة كان
أشهر أطباء زمانه وهو صاحب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف. وهو أول من ألف
في فن الولادة ورسم في كتابه آلات الجراحة. وعلماء اللغة والادب أكثر من أن يحصى عددهم
راجع في الكلام على العلماء في الأندلس ما يأتي :

رسالة ابن حزم المذكورة ورسالة أبي الوليد الشقندي في ذكر علماء الأندلس ومؤلفاتهم في الجزء
الثاني من كتاب نفع الطيب جزء ٢ صفحة ١٠٨-١٤٠ وطبقات الامم للقاضي ابي القاسم صاعد
الأندلسي. والباب الثالث عشر من كتاب طبقات الاطباء والجزء الثاني من كتاب فياردو «تاريخ
العرب والمغاربة في اسبانيا» والسنة الثانية من مجلة الضياء في مقالات «العلوم عند العرب»

الناس بالهندسة وآراء الحكماء والنحو واللغة ومعاني الشعر والعروض وصناعة الكتابة والفقه والشروط والفرائض . فكانت الفنون الشرعية وعلوم اللغة أساساً لتربيتهم العقلية، حتى لا تكاد نجد عالماً أو فيلسوفاً أو منجماً إلا وله علم بالشعر والعروض واللغة . لهذا ظهر شيء كثير من آثار تلك التربية العلمية والفلسفية في بلاغتهم من نظم ونثر

أما اللغة العربية وآدابها فقد ذاعت في كل أنحاء البلاد وعند الخاصة والعامة وملكت منهم ملكة البيان : قال بعض المؤرخين

« هجر أهل اسبانيا اللاتينية واشتغلوا باللغة العربية وآدابها، وكانوا لا يكتبون غيرها، حتى أن أحد العلماء المشهورين منهم شكوا من ذلك . وقال أننا نحب قراءة الشعر والقصص العربية، وندرس المسائل الدينية والفلسفة الإسلامية باللغة العربية لتعلم لغة رشيقة وعبارة بليغة . ولا يكاد يوجد عندنا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية . وكل شباننا الأذكاء لا يعرفون غير لغة العرب وآدابها، لأنهم يقرأون الكتب العربية ويدرسونها بهمة عظيمة، ويدعوهم كثرة اطلاعهم على تلك الكتب إلى الإعجاب بآداب العرب . فإذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخرُوا منها، وقالوا إنها لا تستحق عناية قارئ أو مستفيد . من أجل ذلك نسي المسيحيون لغتهم، فلا تكاد نجد في الألف منا واحداً يمكنه أن يكتب رسالة باللاتينية . أما إذا أرادوا أن يكتبوا بالعربية فإن كثيراً منهم يكتب عبارات بليغة، وأسلوب منمق، وقد يفوقون العرب أنفسهم في ذلك، حتى في الشعر وكتابة القوافي . »¹

كذلك دخلت الألفاظ العربية في اللغة الأسبانية وغيّرت شكل لغة البلاد وأكسبتها لهجة جديدة في زمن شارل الأصغر

« وفي أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هي لغة الوثائق الرسمية . وفي هذا الوقت ترجم قسيس من أهل أشبيلية التوراة إلى اللغة العربية لتلاميذه فوجد أحد العلماء هناك على أهل دينه، وأتهمهم بالمساعدة على نشر اللغة العربية والعمل

1 Dozy Hist des Arabes en Espagne T. 2. P. 103

على ترك اللاتينية . وقد دامت هذه الحال زمنا طويلا في قرطبة و طليطلة ، حتى ان القسس لجهلهم باللاتينية اضطروا الى ترجمة كتب الكنيسة الى اللغة العربية . وبقى ذلك إلى أواخر القرن الحادي عشر ، أى بعد ان استولى ألفونس السادس على طليطلة سنة ١٠٨٥ م .

وليس لأحد أن يناقش كلام « كوند » القائل بأن من أدب أهل اسبانيا ما هو مأخوذ من أدب العرب ومتأثر به . ولا شك في أن الاسبانيين مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم ومعرفتهم الفلسفية الخ .^١
وأما اهتمامهم بالفنون كالأدب والغناء والموسيقى فقد كان أكثر انتشاراً ، لأنهم كانوا أحوج إليها في ساعات اللهو والطرب ، ورياضة النفوس ومجالس الخلفاء والامراء . وهى عليهم أسهل ، ولدى ذوقهم أعذب ، ولنفسهم أقرب



¹ James Fitzmaurice Kelly. His de la littérature en Espagne P. 7 & 8.
A Literary History of the Arabs by Nicholson P. 476.
Engène Baret. His. de la litt. en Espagne. P. 16 & 17.

الفنون في الأندلس

كانت همة العرب في أبان نهضتهم متجهة الى العلوم ، منصرفة الى الدرس والتأليف والنقل . فظهر منهم طائفة عظيمة من الفلاسفة والاطباء وعلماء النبات والحيوان والكيمياء والطبيعة والفلك والرياضة كما أشرنا الى ذلك . وكان اهتمامهم بالفنون كاللوسيقى والغناء والشعر وفن العمارة عظيماً أيضاً ، حتى فاقوا غيرهم في بعضها وأخذوا بعضها عن الأمم الأخرى . ولهم في ذلك آثار جميلة بديعة ، وميولهم الى فن التصوير والنحت كانت من بواعث الأمل على تقدمهم في ذلك لو أن دولتهم امتد زمنها . فقد كان لدولة بني الأحمر بغرناطة آثار بديعة في فن العمارة ، بل ظهر قبل ذلك ميول الخلفاء الأمويين لفن النحت والتصوير . فبنى عبد الرحمن الناصر لجاريته الزهراء مدينة سماها باسمها ، أتقن بناءها وأحكم الصنعة فيها ، وجعلها مستنزهاً ومسكناً لها ولحاشيته وأرباب دوائه ، ونقش صورتها على الباب . وكانوا يجلبون الصور والتماثيل من البلاد الأخرى كالقسطنطينية وغيرها . وقد نصب الناصر على باب الزهراء ثمانية منها ^١ وقلدوا بعض النقوش التي كانت في كنائس اسبانيا وصقلية . وروى بعض المؤرخين ان ثلاثة أعمدة في مسجد قرطبة كانت عليها نقوش وصور . فكان على أحدها صورة عصا موسى ، وعلى الثاني صورة أهل الكهف ، وعلى الثالث صورة غراب نوح ^٢ أما تصوير الآنية والأثاث والأشكال الهندسية فقد برعوا فيها براعة عظيمة ، وصوروا الطيور وأشكال الرجال ،

١ نفع الطيب طبع اروبا جزء أول صحيفة ٣٤٦ راجع الكلام هنا على مدينة الزهراء

٢ نفع الطيب طبع اروبا جزء أول صحيفة ٣٤١

كما في الحوض الذي أتى به الناصر الى مدينة الزهراء . فقد كانت به نقوش وتماثيل على صورة الانسان نصب عليه اثنا عشر تمثالا^١

ومن آثارهم في فن العمارة هناك ما لا يزال ناطقاً بما كان لهم من البراعة في بناء المدن والقصور والمساجد . ولهم من الاتقان في ذلك ما لم يكن لغيرهم في زمنهم . ومن أشهر آثارهم الفنية مسجد قرطبة الشهير الذي — فضلاً عما يدل عليه من البراعة في فن العمارة — يدل على ذوقهم الفني ، وعلى بلوغهم درجة عظيمة في الترف وجمالاتهم غيرهم فيما عرفوه من آثار الرومان في المدن العظيمة والقصور الشاهقة والكنائس المنمقة^٢

وقد أخذ أهل أوروبا عن عرب الأندلس كثيراً من الفنون وغيرها فقد كانوا لا يعرفون شيئاً عن علوم اليونان ومدينتهم . ولا عن اللغة الاغريقية وما ألف فيها . فلما ترجم العرب كتبهم وشرحوها وأضافوا اليها ما أضافوه ، فتحوا على أهل أوروبا باب المدنية الحاضرة ، وأطلعوهم على تلك الآثار التي بنوا على أنقاضها حضارتهم . فقرأوا الكتب اليونانية باللغة العربية . ومنذ ذلك عتادوا دراستها وبمعرفة اللغة اليونانية . بل ترجم أهل أوروبا الكتب العلمية اليونانية من العربية

١ نفع الطيب طبع أوروبا جزء ١ صحيفة ٣٤٦ . راجع مجموعة الصور المأخوذة من صقلية ، وطبعت في روما ومنها نسخة بمكتبة سراي طابدين . وراجع الكلام على فن العمارة في نفع الطيب جزء ١ صحيفة ٣٠٣ والجزء الثاني من كتاب فياردو
٢ أما مسجد قرطبة فقد أسسه عبد الرحمن الداخل وأتمه ابنه هشام . فكان أنشاؤه في أول أيام الدولة الاموية ، مما يدل على تيقظ العرب ونشاطهم منذ دخولهم تلك البلاد . وقد كان في هذا المسجد الف ومائتا عمود كلها من الرخام ، وكان باب المسجد من الذهب وفيه المحراب وما يليه قد أجرى فيه الذهب المطعم . وكان باب المقصورة من الفضة . وكان بالمقصورة تفاحات من الفضة والذهب ، يحيط كل تفاحة مئذنة اشبار ونصف ؛ واثمان من هذه التفاحات من الذهب الابريز ، وتحت كل تفاحة وفوقها سوسنة قد هندست بأبداع صنعة ورومانا ذهب . قال المقرئ أنها احدى غرائب الارض . وكان بالجامع المذكور في بيت منبره مصحف عثمان الذي خطه بيده (هكذا يقولون) وعليه حلية ذهب مكللة بالدر والياقوت ، وعليه اغشية من الديباج وهو على كرسى من العود الطيب بمسامير الذهب . وارتفاع المنارة الى مكان الاذان ٤٤ ذراعاً ، ودور الثريا الكبرى تحتوى على الف كأس واربعة وثمانين ، كلها موشاة بالذهب . وفي عضادتي المحراب أربعة اعمدة ؛ اثنا عشر اخضران واثنا عشر لآزوردان وبه منبر خشبه الصاج والابنوس والعود . وصرف عليه عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالاً ويقولون أنه كان بالجامع حاصل كبير ملاك من آتية الذهب والفضة لاجل وقوده : راجع السلام على مسجد قرطبة في نفع الطيب جزء ١ صفحة ٣٥٨ — ٣٦٩

الى اللاتينية . ومن أول الكتب التي ترجمت في ذلك كتاب اقليدس في الهندسة سنة ١١٣٦ م

ولم يأخذ أهل أوروبا عن عرب الأندلس العلوم وحدها ، بل أخذوا عنهم أيضاً بمض الفنون التي اشتغلوا بها كفن العمارة والموسيقى والشعر .^١ أما فن الموسيقى فقد توسع فيه أهل أوروبا بما تركه العرب لهم . قال بعض المؤرخين « ان للعرب اليد الطولى فيما تركوه من فنون الموسيقى التي ساعدت أهل أوروبا على الوصول الى الدرجة التي عليها الآن هذا الفن الجميل . فان مكتبة طليطلة بها آثار عظيمة تدل على ما كان للعرب من التقدم في ذلك . وأن هناك جزءاً من المخطوطات في الموسيقى عليه بعض ملاحظات بخط ألفونس العاشر ، الذي كانت كل معلوماته وتربيته العقلية مكتسبة من قراءة الكتب العربية . وأن الموسيقى قبل ذلك العصر كانت مقصورة على الكنائس . فساعد العرب على نشر هذا الفن بواسطة الفرنسيين أنفسهم ، الذين كانوا يقيمون في اسبانيا مع العرب ، أو يتعلمون في مدارسهم . وكان الشعر الفرنسي العامي من نوع الشعر العامي الاسباني المأخوذ عن الشعر العربي ، لا عن الشعرا اليوناني أو الروماني . لأن سكان تلك البلاد لم يكونوا يعرفون بعد شعراء اليونان أو الرومان ، حتى ينسجوا على منوالهم ، اذ لم يطلعوا على شيء من ذلك قبل القرن الرابع عشر . لذلك كان الشعر عندهم يشبه الشعر العربي من حيث انه قطع صغيرة ، وأبيات قليلة في المدح أو الذم أو الوصف . وذلك أظهر ما يكون في فرنسا عند شعراء القرن الرابع عشر ، و بعض القرن الخامس عشر . حتى ان أسماء هذه المقطوعات أو الأصوات كانت تشبه أسماء الشعر العربي . قال : ولقد أجدنا صناعة الشعر والقوافي عن العرب ، فان الاسبانيين أول من أخذ القافية عن الشعر العربي

(١) أخذ العرب كثيراً من فنون العمارة عن دولة الروم الشرقية . كما نقلها الجرمانيون الى بلادهم . فكانت العمارة عند الجرمانيين تشبه ما عند عرب اسبانيا . حتى أن مسجد قرطبة يشبه الكنيسة الجرمانية الكبرى . لأن أصلهما مأخوذان عن الشكل البوزانتي . وكانت آثار البناء في أوروبا الجنوبية مأخوذة من نماذج عربية حتى قالوا أنه يوجد شيء من ذلك في كنيسة باريس الكبرى : فياردوا جزء ٢ من ١٨٠

ثم وصلت هذه الصناعة الى مرسيليا وطولون بواسطة التجار الذين كانوا يجيئون من أسبانيا. ^١

واقبس الأوروبيون كثيراً من أعمال العرب في الحروب والصناعة وغيرها مما يطول شرحه. وأما أردنا أن نثبت ذلك القدر القليل تنويعها بفضل العرب وأثرهم في المدنية الحاضرة

وقد بلغ عرب اسبانيا الى درجة عظيمة من الترف وأبهة الملك. ولعل ذلك ما يسمونه الآن «ردفعل». فقد كانوا في خشونة من العيش، بعيدين عن كل رفاهة، فلما فتح أمامهم باب السعادة على مصراعيه، ورأوا مدينة الأمم الأخرى وملكوها العالم، أرادوا أن يتناسوا تلك الخشونة البدوية، فتشبهوا بالدول العظمى. وكان العربي بطبيعته يتأثر بالمظاهر والمشاهد الجميلة. لأنها هي التي كوت فكره وادراكه وتصوره، وأوحت اليه هذه المعاني الشعرية. وقد رأى ذلك كله في البلاد التي فتحها، فأراد أن يكون من أصحاب العظمة والابهة والترف. غاهم ببناء القصور الضخمة، والأبنية المشمخة، وحيازة الأشياء النفيسة، ولبس اللؤلؤ الفخمة المزركشة، وامتلاك الأواني الذهبية والأثاث المرصع بالأحجار الكريمة، وغلبت عليه طبيعة السخاء، فكان يجود بالهدايا الثمينة، ويستعين بالأموال ^٢ فقد اتخذ عبد الرحمن الثاني القصور والمنتزهات، وجلب إليها الماء من الجبال وأقام الجسور، وبنيت في أيامه المساجد الكثيرة والمدارس. على

١ الجزء الثاني من كتاب فياردو

٢ فقد رووا عن عبد الرحمن الثاني أنه كان له جارية اسمها طروب أغضها مرة فهجرتة ونزلت مقصورتها. فاشتد قلقه لهجرها وضاق ذرعه من شوقها. وأراد أن يسترضيها فأعياء ذلك فارسل مع خاصة خصيائه من يكرها على الوصول اليه. فأغلقت بابها في وجوههم وآلت أن لا تخرج إليهم طائفة ولو انتهى الأمر الى القتل. فانصرفوا وأعلموا الأمير بذلك واستأذنه في كسر الباب عليها. فهاهم وأمرهم بصد الباب من خارج بيدراهم. ففعلوا وبثوه عليها بالبدو وأقبل حتى وقف بالباب وكلامها على أن لها جميع ما سد به الباب. فأجابت وفتحت البواب فأنهالت البدو في بيتها فأكبت على رجله قبلها وحازت المال (نفع الطيب طبع لروبا جزء ٩ صحيفة ٢٥٥)

ما كان عليه من الكلف باللهو والميل الى الجوارى .^١ وكان مُلك عبد الرحمن الناصر بالأندلس في غاية الفخامة والضحامة ، كما يعلم من مقابلة رسل الملوك له ، فقد أمر أن يلقوا أعظم تلق وأنخمه .^٢ وامتدت الثروة والأبهة الى الحجاب والوزراء . فقد أهدى أحمد بن عبد الملك بن شهيد الذي استوزره الناصر هدية لسيده ، قال فيها ابن خلدون : انها تدل على ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها . وقالوا انها عبارة عن خمسمائة الف مثقال من الذهب العيين ، وأربعمائة رطل من التبر ، وخمس وأربعين الف دينار من سبائك الفضة ، واثني عشر رطلا من العود الهندي ، ومائة وثمانين رطلا من العود المتخير ، وثلاثين شقة من الحرير المرقوم بالذهب للباس الخلفاء المختلفة الألوان والصناعات ، وعشرة أفرية ، من غالى جلود الحيوان الخرسانية ، وغير ذلك

وكرت القصور والمساجد وغيرها من الأبنية العامة الى درجة عظيمة فقد كان عدد الدور في قصر قرطبة أربعمائة دار ونيفا وثلاثين . وكان عدة دور الرعايا مائة الف وثلاثة آلاف دار ، وبلغت ديار أهل الدولة ثلثمائة وستة آلاف ، وبلغ عدد المساجد بها سبعة وثلاثين وثمانمائة وثلاثة آلاف وعددا الحمامات سبعمائة^٣

١ أعطى جاريته حلياً قيمته مائة ألف دينار فقيس له ان مثل هذا لا يبقى أن يخرج من خزانة الملك فقال ان لابس أنفس منه .

٢ رتب الناصر لحجابه رجالا من الموالى ووحوه الحشم وصاروا الى قصر منية الحكم ولى العهد وكانوا ستة عشر رجلا لربع دول لسكر دولة أربعة رجال ، ورحل الناصر من قصر الزهراء الى قصر قرطبة لوفود الروم عليه فقمعد في بهو المجلس الزاهر ، وحضر الوزراء على اختلاف مراتهم ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أناء الوزراء والموالى والامراء . وقد بسط صحن الدار بمتاق البسط وظللت أبواب الدار وحنايها بظل الديباج ، ورفيع السطور ، حتى ان رسل ملك الروم عند ما وصلوا ورأوا ذلك دهشوا من بهجة الملك وفخامة السلطان وقدوا كتاب ملكهم صاحب قسطنطينية وفيه وصف هدية عظيمة ارسلت الى الناصر

٣ نفع الطيب طبع أوروبا جزء ١ ص ٣٥٥

الفناء ومجالس الأدب

أما مجالس الفناء واللو فقد غصت بها المحافل، وشغلت أكثر أوقات الشعراء وفتقت ألسنتهم بقول الشعر الجميل، وفتحت عليهم أبواباً من الخيال. وزاد في الاقبال عليهم ميل الخلفاء والامراء وأهل الظرف والادب والنساء الشواعر^١ جاءت صناعة الفناء الى الاندلس من المشرق، لانها كانت وهي في أوج عزها عند العباسيين من الفنون الناضجة، ومن اكبر وسائل السرور والتسلي. واستاذ المغنيين في الاندلس زرياب (أبو الحسن علي بن نافع مولى المهدي العباسي)، قدم الى الاندلس بأمر الحكم بن هشام المتوفى سنة ٢٠٦هـ. ولما أخبر بوفاة الحكم قبل وصوله الى الاندلس هم بالرجوع، فجاءه كتاب من عبد الرحمن بن الحكم يذكر تطلعه اليه وسروره بقدومه عليه. وكتب الى عماله على البلاد أن يحسنوا اليه ويرافقوه الى قرطبة. وأمر خصياً من اكبر الخصيان أن يتلقاه، فدخل هو وأهله البلد ليلاً، وأنزله في دار من أحسن الدور، وحمل اليها جميع ما تحتاج اليه، وكتب له في كل شهر بمائة دينار راتباً، وأن يجري على بنيه الذين حضروا معه عشرون ديناراً كل شهر لكل واحد منهم، وأن يجري على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار، وأن يقطع له من الطعام العام مائة مدي. وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوم بأربعين ألف دينار. ولما استدعاه الى مجالسه وسامع غناؤه ترك كل غناء سواه، وأحبه حباً جماً، وقدمه على جميع المغنيين وشره بالأسكل معه، لماعلمه من فضله وأدبه. وكان زرياب مغرمًا بفنه، حتى انه كان يدعي أن الجن كانت تعلمه،

١ فقد كان عبد الرحمن الثاني مولماً بالسامع مؤثراً له على جميع لذاته. نفخ الطيب طبع
اروبا جزء ١ صحيفة ٢٥٥

فكان يهب من نومه فيدعوا بجاريته غزالات وهنيده فيأخذان عودها ، ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته ، ويكتب الشعر ، ثم يعود عاجلاً الى مضجعه . وزاد زربل في أوتار العود وترا خامساً اختراعاً منه ، وزيادة على الصنعة القديمة . وكان يحفظ عشرة آلاف صوت من الاغاني بألحانها . قالوا وهذا العدد من الالخان هو غاية ما ذكره بطليموس واضع هذا الفن . واختص بنوع من الصناعة في تعليم الغناء وضرب العود ، صارت منهجاً لمن جاء بعده ، وكان عالماً بكثير من العلوم والفنون ، أديباً ظريفاً ، حسن الحديث والمسامرة .^١ وكانت له جارية اسمها متعة أديبها وعلما أحسن أغانيه . وعرفت حمدونة ابنته باتقانها هذه الصناعة . وأخذ عن زربل الغناء كثير من الرجال والنساء

وكانت مجالس اللهو والطرب خاصة بغناء الأشعار والرقص والزاقصات ، وفي جميع البلدان أصناف من الملاحى والرواقص المشهورات بحسن الانطباع واللعب بالسيوف وغيرها ، كما كان من بين المغنين كثير من كبار القوم ، مثل عبد الوهاب بن حسين الخاحب ، «الذى كان وحيد دهره في الغناء الرائق ، والأدب الرائع ، والشعر الرقيق ، واللفظ الأنيق ، ورقة الطبع ، واصابة النادرة والتشبيه المصيب .» وكان قد قطع عمره وأفنى دهره في اللهو والطرب ، وهو أعلم الناس بضرب العود . هذا كله يدل على حسن الذوق ، ورقة الطبع ، اذ كلما أمعن الانسان في فنون الجمال دل على رقة ذوقه . ولو أن العرب عرفوا شيئاً من بلاغة اليونان والرومان لجاروهم في فنون التمثيل واختراع القصص ولكنهم قنعوا من ذلك بما كان لهم في مجالس الأدب والغناء واللهو والشرب التي تفنن الكتاب والشعراء في وصفها^٢ واشتملت

١ راجع أخبار زربل في الباب السادس من نفع الطيب والجزء الثاني من تاريخ دوزى

صفحة ٨٩

٢ كتب بعضهم يستدعى عود غناء فقال :

انتظم من اخوانك أعزك الله عقد شرب يتساقبون في ودك ، ويماطون برحانة شكرك وحده ، وما منهم الا شره المسامح الى رنة حماسة ناد ؛ لا حماسة بطن واد . والطول لك في صلتنا بمحماد تاطق ؛ قد استعار من بنان لسانا ؛ وصار لضمير صاحبه ترجانا . وهو على الاساءة والاحسان لا ينفك من ايقاع به ، في غير ايجاع به ، فان هفا عركت اذنه وادب . وان تأتى واستوى بجمع بطنه وضرب . لا زلت منتظم الجذل ملتئم الامل .

أغاني الأندلسيين على كثير من أغراض الشعراء ، فكانت تشمل مدح الأمراء ، ووصف القصور والحدائق ، والخيول والفرسان ، ومجالس الشرب في الولائم . وغير ذلك من الموضوعات الكثيرة المختلفة ، التي نشأت من أحوال الاجتماع هناك وأوحت بها إلى نبوس الشعراء تلك الحياة الاجتماعية ، وطبيعة البلاد وما بها من رغد في العيش ، وساعد هذا كله على نمو الشعر العربي .

وقد كانت أغاني العشق تدل على أثر المرأة في النفوس والاجتماع . لأنها كانت ذات مكان عظيم ومنزلة رفيعة وأثر ظاهر في الحركة العقلية ، بل كانت تسابق الرجال فتسبقهم أحياناً ، واشتهر عدد عظيم من النساء في الشعر والأدب كما هو معروف . ولم تكن صلة المرأة بالرجل صلة قلبية أو نفسية لا غير ، بل كانت صلة احترام واحلال ، لظهورها في ميدان الجِدِّ والعمل ، واشتراكها مع الرجل في أحوال الاجتماع ، ولأثرها في مجالس الأدب وفنونه . وكان ذلك في أكثر طبقات النساء . فقد كان لعبد الرحمن الناصر جارية حسنة الخط ، راوية للشعر ، حافظة للأخبار ، عالمة بضروب الأدب . وكانت العبّادية جارية المعتمد أديبة ظريفة ، كاتبة شاعرة ، ذاكرة لكثير من اللغة ، معدودة من علماء اشبيلية . فكانت المرأة هناك أرقى وأجل منها في أوروبا ، وحبها ممزوجة بأشياء من الوجد والاحلال معاً . وازدادت مجالس الغناء بالغانيات المطربات من الجوازي وغيرهن ، وكان فيهن من هو أمهر من الرجال في هذه الصنعة ، وأكثرهن وافر من المشرق . كالمغنية فضل التي اشترت من المدينة للأمير عبد الرحمن الأول . فقد نشأت في بغداد وتعلمت الغناء وبرعت فيه ، واشتهرت في هذا الفن شهرة عظيمة . وكان يؤثرها عبد الرحمن على غيرها لجودة غنائها . وكانت قمر جارية إبراهيم بن حجاج اللخمي صاحب اشبيلية من أهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ اللحن . قالوا وجلبت اليه من بغداد وجمعت أدباً وطقاً ورواية وحفظاً ، مع فهم بارع وجمال رائع . كذلك كانت حالة الغناء من حيث الاهتمام به والقبال عليه من أعظم مظاهر العقول والأدب

وكانت مجالس الأدب في الأندلس من أكبر مسارح الافكار ، وأنعم مظاهر الجمال ، وأجمع أنواع الأدب واللهو والجِدِّ والهزل ، ومظهر الحياة العقلية

والاجتماعية . والشعراء فرسان هذا الميدان . والكلام وحده آلة التعبير عن ذلك بأساليبه المختلفة البليغة . وكان الشعر نشوة الشارب ، وغناء الراقص ، ومؤدب النفوس وزاجرها ، وسلوة الفقير والغني ، وممزة الشريف والسوقي ، وكانوا جميعاً على فهمه أقدر ، وعلى الاقبال عليه أسبق ، وكل اذن واعية عند سماعه خاشعة لروعة بلاغته ، لانه كل مظاهر الحسن والجمال في مجالس الخلفاء والامراء . كذلك كانت روعة تلك المجالس في الشعر وبلاغة الكلام . وكان من أهل الأدب هناك الوزراء والكتاب ، والعمال وجباة الاموال والمستعملون في أمور الدولة ، والخلفاء أنفسهم ، وكثير من أولادهم ونسائهم ومن يحضر مجالسهم . فبرع أهل الأندلس في فنون الادب والشعر براعة شهد لهم بها جيلة الناس ، وكانت مجالسهم لذينة ومحاضرم فكهة . والشعراء كثيراً ما تحملهم هذه المجتمعات وما فيها على الارتجال والابتكار .

« حضر أبو عامر بن شهيد ليلة عند المظفر بن المنصور بن أبي عامر بقرطبة فقامت تسقيهم وصيفة عجيبة صغيرة الخلق ، ولم تزل تسهر على خدمتهم الى أن هم جند الليل بالانهزام ، وأخذ في تقويض خيام الظلام ، وكانت تسمى أسياء ، فعجب الحاضرون من مكابذتها السهر طول ليلتها على صغر سنها . فسأله المظفر وصفها فصنع ارتجالاً .

أفدى أسياء من نديم ملازم للكوؤوس رائب
قد عجبوا في السهاد منها وهي لمبرى من المعجائب
قالوا تجافى الرقاد عنها فقلت لا ترقد الكواكب

ومن البدهة في المجالس أيضاً ورسوخ ملكة الابداع في النفوس ، ما قيل عن ابن شهيد هذا ، وذكره ابن بسام . « أن جماعة من أصحاب ابن شهيد قلوا

١ من ذلك ما قيل « الاندلس عراق المغرب عزة أنساب ورقة آداب . واشتغالا بفنون العلم واثنانا في المنثور والمنظوم ، لم تضق لهم في ذلك ساحة ولا انصرفت عنه راحة ، فأمر فيها بمصر ألا وفيه نجوم وبدور وشمس ، وهم أشمر الناس فما كثره الله في بلادهم ، وجعله هصب أعينهم من الاشجار والانهار والاطيار والكوؤوس ، لا ينازعهم في هذا الشأن منازع ...

له يا أبا عامر ، انك لآت بالعجائب وجانب بدوائب الغرائب ، ولكنك شديد
الاعجاب بما يأتي منك ، هاز لعطفك عند النادر ، تباح لك ، ونحن نريد منك أن
تصف لنا مجلسنا هذا . وكان الذي طلبوه منه زبدة التعنيت ، لان المعنى اذا
كان صلفاً ثقيلاً على النفس ، قبيح الصورة عند الخس ، كلت الفكرة عنه وان
كانت ماضية ، وأسأت القريحة في وصفه وان كانت محسنة . وكان ما في المجلس
باب مخلوع معترض على الارض ، ولبد أحمر مبسوط قد رصت خفافهم عند
حاشيته . فقال مسرعاً

وفتية كالنجوم حسناً	كلهم شاعرٌ نبيلٌ
منغذ الجانبين ماضٍ	كأنه الصارمُ الصقيلُ
راموا النصرافي عن المعالي	والغرب من دونها كليلُ
فاشتد في أثرها فسيحٌ	كلٌ كثير له قليلُ
في مجلس زانه التصابي	وطاردت وصفه العقولُ
كأنما بابه أسيرٌ	قد عرضت دونه نُصولُ
يرادُ منه المقالُ قسراً	وهو على ذاك لا يقولُ
ننظر من لبدة لدينا	بحر ديم تحتنا يسيلُ
كأن أخافنا عليه	مراكبٌ مالها دليلُ
ضلت فلم تدر أين تجري	فهى على شطه تقيلُ

فعجب القوم من أمره

« ودخل الوزير أبو الملاء زُهر بن الوزير بن مروان على الامير عبد
الملك بن زرّين في مجلس انس ، وبين يديه ساق يسقى خمرين من كأسه ومن
لحظه ، ويبدى دُرّين من حبابه ولفظه ، وقد بدا خط عذاره في صفحة خده ،
وكل حسنه باجتماع الضد منه مع ضده ، فكأنه بسحر لحظه أبدى ليلا في شمس ،
وجعل يومه في الحسن أحسن من أمس ، فسأله ابن رزّين أن يصنع فيه فقال بديها
نضاعف وجدى اذ تبدى عذاره وتم نغان القلب منى اصطباره

وقد كان ظني أن سيمحق ليله
فأظهر ضده اذ وشت له
واستزاده فقال بديها

نُحيت آية النهار فأضحى بدرتم وكان شمس نهار
كان يعشى العيون نوراً إلى أن شغل الله خده بالعدار
وكانت مجالس الأدب من بواعث قول الشعر، ومجارات بعض الأدباء بعضاً في
ذلك . قالوا: «ان ابن العريف النحوي دخل على المنصور بن أبي عامر وعنده صاعد
الغوى البغدادى ، فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامة
فالعامة تزهى على جميع المباني
وأنت فيها كسيف قد حل في عمدان
فقام صاعد وكان مناقضاً له . فقال أسعد الله الحاجب الأجل ، ومكن سلطانه .
هذا الشعر الذى قاله قد أعده ، وأنا أقول أحسن منه ارتجالاً . فقال له المنصور قل
ليظهر صدق دعواك . فجعل يقول من غير فكرة طويلة .

يا أيها الحاجب المتسلي على كيوان
ومن به قد تناهي نفاخ كل يمان
العامة أضحت كجنة الرضوان
فريدة لفريد ما بين أهل الزمان

الى ان قال :

أنظر الى التهر فيها ينساب كالثعبان
والطير يخطب سُكراً على ذرى الأغصان
والقُصْب تلتف سُكراً بميس القُصبان
والروض يفت زهواً عن ميسم الأقحوان

والنرجسُ الغضَّيرنو . بوجنةِ النُّعْمانِ
وراحةُ الريحِ تَمْتَنَّا رُ نَفْحَةَ الرِّيحَانِ
فدم مدَى الدهرِ فيها في غِبْطَةٍ وأمانِ

هذا أدل في جملته على مكانة الشعر في النفوس ، وأنه شيء من روائع القول وجمال الكون . وهذا من مميزات الشعر العربي ، وهي جمال الشعر الوجداني . لأنه ينقلنا من عالم الحقائق المؤلمة الى عالم الأحلام والخيال ، حيث يتذوق الانسان السعادة ، وينسى آلام الحياة وكوارثها . وذلك هو الغرض من فنون الجمال . لاننا اذا كنا في حاجة دائمة الى الاتصال بالحقائق وأدراكها لفهم الأشياء ، فاننا كثيراً ما نكون أحوج الى الابتعاد من ذلك

« حضر أبو المُطَرِّف بن عبد العزيز مع ابن عمار الوزير عند المؤمنين في يوم جادت فيه السماء بهطلها ، وأنبعت وبلها بطلها ، وأعقب رعداً برقها ، وانسكب دراكاً وذقها . والازهار قد تجلت من كمامها ، وتحت بدر غمامها ، والأشجار قد جلى صداها ، وتوشحت بنداها ، وأكؤس الراح كأنها كواكب تتوقد ، تديرها أنامل تكاد من اللطافة تُعَقِّد . اذا بغنى من فتيان المؤمنين أخرس لا يفصح ، مستعجم لا يبين ولا يوضح ، متنمر تنمر الليث ، مشمر كالبطل الباسل عند الغيث ، وقد أفاض على نفسه درعا ، تضيق بها الأسننة ذرعا ، وهو يريد استشارة المؤمنين في الخروج الى موضع بعثه ووجهه اليه فكل من صده عنه نهره ، حتى وقف الى مكان أنفراده ، ووقف بازاء وساده . فلما وقعت عين ابن عمار عليه ، أشار بيده اليه ، وقربه واستدناه ، وضمه اليه كأنه تبناه ، وجد أن يخلع عنه ذلك الغدير ، وأن يكون هو الساقى والمدير ، فأمره المؤمنين بخلعه ، وطاعة أمره وسمعه ، فنضاه عن جسمه . وقام يسقى على حكمه ورسمه ، فلما دببت فيه الحياة ، وسبت غرامه بهجة ذلك الحيا ، واستنزلته سورة العقار ، من مرقب الوقار قال

وهويته يسقى المدام كأنه
متأرجح الحركات تندى ربحه
يسعى بكأس في أنامل سوسن
يا حامل السيف الطويل نجاده
اياك بادوة الوغى من فارس
جهم وإن حسر القناع فأنما
يطغى ويلعب في دلال عذاره
عنا بكأسك قد كفتنا مقلة
هذا شيء يسير من مجالس الأدب وأحوال الاجتماع في الأندلس

قر يدور بكوكب في مجلس
كالفضن هزته الصبا بتنفس
ويدير أخرى في محاجر نرجس
ومصرف الفرس القصير المحبس
خشن القناع على عثار أملس
كشفت الظلام عن النهار المشمش
كالمهري درج في اللجام المجرس
حوراء قائمة بسكر المجلس
«

النثر في الأندلس

كان الشعر في أكثر عصور اللغة العربية أشهر من النثر ، ولذلك كان الشعراء أشهر من الكتاب ، لأن البلاغة في الشعر أظهر ، والأخيلة فيه أبين ، وقراء العربية كانوا الى التأثير بهذه الأساليب والصناعة أقرب . وكانوا يفهمون من الأساليب ما لا يفهمون من الموضوعات ومعانيها وأغراضها .

ومع أن النثر في المشرق كان أقل من الشعر انتشاراً ، وكان في المرتبة الثانية من حيث انه صورة من صور البلاغة العربية ، أو من حيث الاعتماد عليه في الاستدلال على أساليب العرب وصحة لغتهم ، فقد تنوعت مناحيه ، وظهرت له مذاهب وطرق ، كذهب ابن المقفع وطريقته ، ومذهب الجاحظ وأسلوبه ، وطريقة ابن العميد والحريري ، وغيرهم كما هو معروف .

أما في الأندلس فقد وسع كل أساليب العرب في المشرق ، من كلام مرسل سهل ، وعبارات يتخللها سجع غير متكلف ، أو كلام مسجوع متعمل . وكانت هذه الأساليب كلها ظاهرة في جميع العصور ، وعلى السنة الكتاب وأقلامهم ، حاشا العصر الأول الى أواسط دولة بني أمية ، حيث كانت الكتابة سهلة قليلة السجع ، كما في خطبة طارق وكتب الامراء من بني أمية .

وقد ألف عرب الأندلس في العلوم والفنون ، فكان اشتغالهم بالتأليف والكتابة والعلم من الأسباب التي جعلتهم يطرقون هذه الموضوعات في كتاباتهم ، فلم تقتصر الكتابة النثرية على الدواوين والرسائل ، قصيرة كانت أو طويلة . مسجعة أو مرسلة ، في العشق والغرام ، أو في الظم والجور ، أو في المدح

والاستعطاف، وغير ذلك ، مما يظهر لأول وهلة أنه ليس من الموضوعات الممتعة ، والمعاني العامة الاجتماعية ، بل شمل كل شيء في الاجتماع هنالك ، وكان مظهراً لتلك المدنية ، والحالة العقلية والسياسية والعلمية . وكان أثره في الأدب والبلاغة كأثر الشعر ، لاشتماله على كثير من أغراض الكتاب . كوصف المباني الفخمة من كنائس ومساجد ، وقصور وآثار ، وما فيها من صور وتمائيل . وكوصف الأشياء الجميلة التي غنموها أو عملوها بأيديهم . ووصف محافل الأمراء والخلفاء وأبهة الملك ، والمجادلات والمخاصمات ، ومجالس العلم والأدب . وطرق الموضوعات العامة الاجتماعية والفلسفية . بشكل قصصى . كما في رسالة «حى بن يقطان» لابن طفيل . وكتابة الحقائق في أسلوب قصصى خيالى ، كما في رسالة الوزير أبى عامر أحمد بن أبى مروان ابن شهيد التي هي من نوع رسالة الغفران ، وكالرسائل الطويلة المملوءة بالمعلومات التاريخية ، كرسالة أبى محمد بن حزم الحافظ التي ذكر فيها بعض فضائل أهل الأندلس من علماء وأدباء وحكماء ومؤرخين ، وسرد فيها آثرهم ومؤلفاتهم . ثم تلك الرسائل الفريدة في بابها التي هي من نوع رسائل ابن زيدون . ثم كتابة الفتح بن خاقان ولسان الدين بن الخطيب وما يشبهها مما لم يكن مثله كثيراً في بلاد المشرق ، بل بعض هذه الأنواع لم تكن معروفة

وكانوا يصفون في كتاباتهم نفوس الكبراء والأمراء والقواد ، كما كتبوا في المناظرات الخيالية ، كالمناظرة بين السيف والقلم لابن برد الأصغر . وكالمناظرة بين بلدان الأندلس لآبى بحر صفوان بن ادريس .^١ وكما كتبوا في الدعوات والأشهاد والتوسل الى الرسول وفي شعائر الحج .^٢ وكانت لهم أساليب في الزهد والأسرار الربانية عرف الكتاب كيف ينصيدون فيها ألفاظ الزهد والتصوف .^٣

١ التي كتبها للامير عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن . وهي من الرسائل الطويلة الملهو راجع فتح الطيب طبع أوروبا جزء ١ صحيفة ١٠٥

٢ من ذلك ما كتبه الوزير الفقيه أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجدد عن لسان من رجع من الحج . وهي من نوع الدعاء أو التوسل بالرسول راجع الذخيرة جزء ٢

٣ من تلك المعرفة في المسكوت . ونجوم الحكمة في الجبروت . وحياة القدس . ولباس التقوى والصراط المستقيم . وراشتك الطبيعة برش النهى حتى تصير مع الروحانيين في مجال الصديقين ومنازل المقرين الخ وغير ذلك من ألفاظ الغيبيات وأساليب ما وراء المادة . راجع رسالة الفقيه ابن عمر احمد بن عيسى الألبيرى في الذخيرة من الجزء الأول

وفي جوار ذلك تجدهم برعوا في أساليب اللهو والمجون ..^١ ولهم عبارات نحسب من الخيالات الجميلة والسجع المتكلف السائق للنفس تذوقه^٢.

وبرعوا في فن المقامات. ولأبي حفص عمر بن الشهيد فصول جيدة في ذلك ، تشبه ما عند الفرنجة الآن ، أو يشبهها ما هو عندهم . وفيها أوصاف خيالية تدل على براعة في انتقاء الألفاظ والمعاني ، وأمعان في الصناعة وضروب الخيال^٣ وتجد

١ كما بحث بعض الكتابات بآثره وكتب معها كتابا يقول فيه : قد بحثت اليك من نبات الثمار اجلها ، ومن نتائج البستان أفضلها . فشربت على ورد هارطلين ، وتناولتها بالاحتين ، فبحرمة الكأس التي رضنا ، الا ما رفعت قدرها ، وجعلت القبول مهرها ، وجعلتها على مجلس المدام ، وحجبتها عن عيون اللثام ، فخصاها بجيبة ، وصفاتها غريبة ، ان خزنتها عطرت أثوابك ، وان أمسكتها أذهبت أوصالك ، وان أعملت فيها غرب السكين ، قرنت لك بين النرجس والياسمين وارثك الكشب على وجه الحبيب . يالها من آثرجة غضة ، قد صورت من ذهب وفضة ، سرقت من العاشق سيماء ، ومن المعشوق طعم ثناياه .. الذخيرة جزء أول

٢ مثل قولهم خرج الوزير أبو بكر بن عمار والوزير أبو الوليد بن زيدون ومعهما الوزير ابن خلدون من أشيلية الى منطرة لبني عباد بموضع يقال له الفت . تحف به مروج مشرقة الانوار . متنسمة الانجاد والاعوار . متبسمة عن ثنور النوار ، في زمان ربيع سقت الارض السحب فيه بوسيتها ووليا . وجلتها من زاهر ملبسها وباهر حليها . وارداف الربى قد تآزرت بالازار الخضراء من نباتها . وأحياد الجدائل قد نظم النوارق لائده حول لباتها . ومجاسم الزهر تمطر أردية اللسائم عند هباتها . وهناك من البهار ما يزهى على مدهان النضار ومن النرجس الريان ما يهزأ بنواعس الاجفان . وقد نووا الانفراد للهو والطرب والتزهر في روضي النبات والادب . وبعثوا صاحباهم يسمى خليفة هو قوام لذتهم ونظام مسرتهم الخ...
نفع الطيب ج ٢ ص ١٦٣

٣ كقول أبي حفص بن الشهيد ... وقد صحبتكم مدة . وسبحت الله على رؤوسكم مرارا عدة أوقظكم بالاسحار . وأوذن بالليل والنهار . وقد أحسنت لدجاجكم سفادا . وريت لكم من الفرائج أعدادا فالان حين بلى في خدمتكم تاجي . انمى الى دجاجي . وتنحى الشفرة على أوداجي . وحين أدركني الشيخ يمزق لحى ويطبخ ، ياللكرام من ذل هذا المقام ، وجعلت دموعه تسفح من دمه . والجون يطبق على فمه . ثم غشى عليه ، فاجتمعت الناس اليه ، يضربون وجهه بالماء . ويخلصون له في الدعاء ، ثم أفاق من غشيتة وأنشد :

علام يقتل شيخ	من كل ذنب يرى
محقق متحد	موحد سنى
هل نص هذا كتاب	أو قل هذا نبى
لا ذنب لى غير أنى	مؤذن بدوى

لهم كلاما مسجعا هو من السهل الممتنع، مع رقة في اللفظ، وجزالة في المعنى، وطول لا يمل، وصراحة في القول، وحرية في الفكر.^١
وأحيانا نجدهم وصلوا الى درجة في النثر لا تفرق بينها وبين الشعر إلا في

فرقت له نفس القوم. وأقبلوا على صاحب المنزل باللوم. فقال ويحكم. ان هذا الديك ذو فخذ وصدره قد أصابني عليه ضجرة. ولى في ذبحه سر، ولا بد أن تزين به قدر، وتضرم تحته النيران، ويشيع من لحمه الضيقان. اما تزونه قرة العين والقلوب. سبيكة لجين وتمثل.

ومن شيعي مها تزين منزلي لضيبي ان أقره أحسن ما عندي
لو ان دمي خرا لارويته به ولو صلحت كبدي شويت له كبدي
بذلك أوصاني ابني مد عقلته وقد كان أوصاه بهذا قبله جدي

فقال الديك: لا اكذب، الحق طريق مستبين. واتباعه مروءة ودين. اما انه على خلق عظيم كريم ابن كريم. غير أنه لؤم في امرى. وأفرط وغلط ماشاء أن يغلط. اما علم ان هرمات الديوك ليست من مطاعم الملوك. وأنها بالادوية أشبه بالاغذية. واقسم لو اتخذ برمة من فؤاد مهجور ووضعتي من مثله على تنور، لا قضى به حاجة. ولا عدم مني فقرا ومجاجة. فزكى قوله من حوله. ولم يألوه تعظيما، واتخذوه من ذلك اليوم حكما. وصرف البدوى من الطافه، أحسن منه قرى أضيافه، وختم توبة بزه بالرغبة في بسط عذره. وسمعنا منه ورحلنا سحرا عنه. م. الى ان قال.
فأصغيت فاذا انا بصوت ناقوس في دير قسيس. وقرية كلها حانة دار البطاريق. وملعب الكائنس والباريق. سائمها خنازير. وحياضها المعاصير. ومياها الانبذة والجور. وشكلها مثل مسطوح هندسته حوارى نباتها غصون من قدود تهتز في أوراق من برود. وتشر رمانا من نهود. وتفاها من خدود. وعقارب من أصداغ. وأفاعي من أسورة وعقود. وفيها مدام من رضاب. وشفاه من كواعب أتراب، وغيد تهوى بقرط، وارتجاج لكثيب في سرط، وجولان النطاق، وعض الخلخال في ساق، وخنث في ألفاظ، ومواعيد بالخاط، وقلوب تكلف وتشفف، ونفوس تلتأ، وأخرى تتلف. فلما كثر تحدثنا بحضرة الفقيه من هذا التشبيه قطبنا له وجوه الاستكرام، وعضضنا له الشفاء. فبينما نحن كذلك تكثر لفظا، وزى الحلول بالمستحسن غلطا، اذ نظرنا الى أطراد صفوف من أعطاف حسنة، وخصور هيفة، وشمس واقار، على أفلاك جيوب وأززار، لاسيوف الا من مقل ولا درق الا من عجل. ولا طارض الا من خلوق، وأقسم بنعمة قد ودهن ألا جزم المنة، وثنيتم الاعنة، ترمجاً علينا الينا وتحكما في المال والولد لدينا. فكرمت الشفاعة، وقلنا السمع والطاعة

١ كما في رسالة لابن الحداد :

لما كان الكتاب أعزك الله جلاء الاقضاء، وصقال الاصداء. وعقال الادواء. وسمتني منه بوسام. ولفحتني منه بسموم. وأسررت حسوا في ارتفاء وأدجت ذما في ثناء، والحر يأنف من الضيم. ويشمئز من الذم. ولا يقتصر على الاجزاء، بغير الجزء. ولوترك القطا ليلا لنام. وفي العتاب حياة بين أقوام. فاصطبر لشرب صبره. وانتدب لتسوغ مره. فمن الحكم العدل. والقضاء

الوزن وقواعد العروض^١. ومن السجع الجميل والاساليب الممزوجة بالحقيقة والخيال أسلوب ابن بسّام في الذخيرة وترجمته الادباء والشعراء^٢ وتجدد مع هذه الرقة اللفظية والذوق الأدبي الفني^٣، أنواعا من الرسائل الطويلة المسجوعة سجعاً متكلفاً مملاً، مملوءة بالتعميل، كثيرة الصناعة، قليلة المعاني^٤. وإمام هذه الصناعة لسان الدين بن الخطيب. والفتح بن خاقان طريقته معروفة في كتبه. حتى أصبح السجع طابعاً من طوابع الأدب العربي في الأندلس وتسلل الفقهاء مناصب الخطابة والكتابة. فنفعوا الأدب بنفحة جافة جف من أجلها عوده، حتى كسر أو كاد يكسر. وبلغ هذا منتهاه في أيام ابن تاشفين وعلى الرغم من رقى النثر في الأندلس فإنه لم يخرج عن صيغته العامة، وهي الاعتماد على الخيال والصناعة اللفظية. غير أن الكتاب حاولوا كما قلنا طرق

الفصل. إن الذمك بما لذعتني. وأجرعك ما جرعتني. غير آفك في حال. ولا مباهت بمحال. والتوي ليس من خلق الكاذب اللبني. والحر على ما أساء يصر. وكل بحر في الخلاء يسر. والفضل لمن حواه. لا لمن زخرف دعواه. وتحقيق البرهان. غير تنميق البيان. والسؤدد في محاسن الخلال والفعال. لا في إمكان الزمان. وإقبال السلطان. وقيمة كل امرئ ما يحسن. أمثال أضر بها عليك. واضحة المناهج. ومقدمات أنشأتها مذك. صادقة النتائج. وجل تشتت على تفصيل حالينا. ونبد تشير إلى ما فيه جريتنا. وقد قابلني عتابك. واجلابك. بريح تعصف ورعد يقصف. واستقبلني خطابك. وأطنا بك. بوبل يخسف. وسيل يلسف. بلغ الزبي وزاد. ونمر الربى والوهاد. الخ

١ كما في رقعة شفاعة كتبها أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم: إذا شرب روض الشكر من حوض البر. وأطلع من الزهر ما ينجل مسك الفرر وتسلم عن نسيم، يشنى حرارة القلوب الهيم ولم يزل يجري خلف الطلب، بيد الأدب. ويسرى في ظلام الامور، بسراج المنظوم والمنثور. الخ

الخ الذخيرة جزء ١

٢ كقولته في ترجمة ابن شهيد: كان أبو عامر شيخ قرطبة وفتاها، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاه، ينبوع آياتها، ومادة حياتها وأساتها. ومعنى أسماؤها ومسمياتها نادرة الغلك الدوار. وأعجوبة الليل والنهار. ان هزل فسجع الحمام. وان جد فزثير الاسد الضرغام. نظم كما انشق الدر، على النحور، ونثر كما خلط المسك والكافور. الخ.

٣ راجع كتاب لسان الدين بن الخطيب عن لسان سلطانه. نفح الطيب طبع أوروبا جزوا

ص ١١٤

الموضوعات العامة، كالقصص والحكايات الخيالية،^١ والمناظرات وغيرها، وابتكروا هذه الأساليب في النثر كما ابتكروا أساليب الموشحات في الشعر .

أما طول الكلام والاطناب فيه، فيكاد يكون عاما في جميع كتاباتهم. وبعض هذا الطول يعد من الأمور الفنية البهتة ، والافتنان في التصور والخيال ، وبعضه عمل سقيم ، يدل على تمكن الصناعة لا غير في نفوس الكتاب والعناية بالألفاظ والسجع ، بل يدل على انحطاط ملكة البلاغة ، كما في كثير من كتابات لسان الدين بن الخطيب والفتح بن خاقان وغيرهم من الكتاب .

وجملة القول أنه يمكن معرفة حالة النثر بالأندلس ، ودخوله هذه البلاد بخطبة طارق بن زياد ، التي قلنا انها أول صوت سمع هناك من بلاغة العرب وأول غرس من غراسها . فهذا كان نموذج النثر والخطابة في تلك الأيام الى أواسط دولة بني أمية . لأن الوافدين جاؤا من المشرق الى المغرب ، والدولة عربية في بيت بني أمية ، وروح البلاغة العربية البدوية كانت تجول في نفس كل خطيب وكاتب وشاعر . فالذين هاجروا الى بلاد الأندلس في الأزمنة الأولى كانوا لا يزالون أعرابا في أفكارهم وأخيلتهم وأساليبهم . ولذلك نجد النثر في تلك المدة يشبه كثيرا نثر الأمويين في المشرق، وخطاباتهم في الأندلس أشبه بخطبائهم في الشام وبلاد العرب . ولما كثرت الوافدون على الأندلس من المشرق نقلوا اليها طريقة النثر المسجوع ، والصناعة اللفظية ، والتنميق في الكتابة . وسرى هذا في كل أغراض الكتابة ، حتى في الكتب الفنية والعلمية ، من تاريخية وغيرها ومن تراجم العلماء والأدباء ، ومن كتب جدية وهزلية . ومن أشهر ذلك كتب الفتح بن خاقان ، كقلائد العقيان والمطمح وغيرها ، وتاريخ الاحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب . حتى أصبح من غير المستطاع أن يجد الانسان من يكتب نثرا غير مسجوع

١ كما في رسالة لابن شهيد على لسان الأوزة . راجع الذخيرة جزء أول

الشعر في الأندلس

البلاغة من نظم ونثر لها غرضان غرض فني ، وهو ما بها من الجمال الذي يدعو الانسان الى السرور والاعجاب ، وارتياح النفس الى المعاني الجزلة ، والألفاظ المختارة ، وتناسق العبارات ، وحسن الأساليب ، وتأنق الترايب ، وغير ذلك مما ذكره العرب وتقادهم ، من أنواع المعاني والبيان البديع . ويدخل في هذا النوع قدرة الكاتب أو الشاعر على الافتنان في الصناعة ، ومقدار ماله من التصرف في الكلام ، وما يدركه من أسرار هذا الفن ، مما يدل على عبقريته . وهذا الجزء الفني من البلاغة هو أحد أركانها ، وأكبر دعائمها ، اذ بدون ذلك لاتعد البلاغة من فنون الجمال في شيء .

والغرض الثاني هو الحقيقة المنطوية في غضون ذلك الكلام ، التي يكشف بها الفني عن كثير من المعاني الخفية في النفوس ، وأسرار الكون ، وحقائق الموجودات ، والآراء الاجتماعية والفلسفية ، وصور الانسان والانسانية . فغرض الكاتب أو الشاعر البليغ أن يتسرب في النفوس ، ويستولى عليها بجمال الافتنان ، وينعشها ويوقظها بأسلوبه وبيانه ، ويهذبها بمعانيه وما فيها ، ليرشدها الى حقيقة من الحقائق الانسانية . ولقد يدرك الفني مالا يدركه غيره ، لأنه دقيق الادراك ، قوى الملاحظة ، سريع الخاطر ، تخترق نفسه الحجب فيرى بالايهه غيره . لذلك يمكن أن يكون مساويا للفلاسفة أو الحكماء في الافاضة على الانسان من أسرار الكون وحقائقه .

والعرب يميلون الى جمال القول ويقصدون الى حسن العبارة والاستيلاء على النفوس بسحر الكلام . فكان الشعر فنا عربياً جميلاً ، وكان العربي شاعراً بطبيعته ، ونصيبه من أنواع الجمال قول الشعر الجميل . وكانت الفصاحة والبلاغة

مظهر الحياة النفسية العربية ودليلاً على جهود العقول وآثارها . وكلما نزل العربي
بمكان بذر بذرة الشعر فيه وتمهدها بالنمو ، فلما نزل أرض الأندلس غرسها
هناك ، فنمت في تلك الأرض الخصبية . فكانت كالزهرة الطيبة العرف
لقت بأصل آخر نضير الطلعة ، فظهر فيها أريج الطيب ونضارة اللون .
ذلك مثل الشعر العربي في بلاد الأندلس .

جاء الشعر بلاد الأندلس بصيغته الأولى البدوية ، وما لبث أن أخذ صبغة
جديدة بالتوسع التصور ، واختلاف المناظر ، والاطلاع على كثير من العلوم
، الآراء ، والميل إلى مزج الحركة العقلية بالحركة الاجتماعية : فشمل كل مظاهر
الافكار ومرافق الحياة . ولكن كثيراً ما كان الشعراء يرجعون في أساليبهم
وأفكارهم إلى الأساليب والافكار البدوية ، لأن العرب من أشد الأمم
عصبية وحنيناً إلى وطنهم وعيشتهم الأولى . إذ رغم ما كان في نفوسهم من
الأثر الذي اكتسبوه من تلك البلاد ، وما حصل لهم من الحياة التي لم يكن
لهم بها عهد في بلادهم ، كانوا لا يزالون يميلون إلى أخيلتهم الأولى ، ولم يكن
لهم أن يهجروا عاداتهم ، لأن العجب والخيلاء ، اللذين كانا لها السلطان على
عقولهم ، جعلاهم — حتى في تلك البلاد البعيدة ، وحتى بعد عدة قرون من
انتجاعهم إياها — يتغنون بذكر بلادهم ، ويتخذون الشعر القديم نموذجاً لهم في
الصناعة والخيال .

والذي يقرأ الشعر الأندلسي يجده أخاً للشعر في بغداد ، بل وفي بلاد العرب
نفسها من حيث الصفات العامة ، والموضوعات التي كانت عند القدماء^١

على أن شعر الأندلس يمتاز في جملة عن الشعر العربي بما فيه من المعاني
المبتكرة الجميلة ، التي كان يعالجها الشعراء هناك من الوصف البديع ، والكلام
الرشيق ، والذوق النقي ، والافتنان في أساليب الخيال ، ولأنه يدل على حياتين

١ راجع قصيدة ابن الحداد في مدح المتصم في ابن خلكان جزء ٢

ويرسم صورتين من أحوال العربي : فبينما ترى الشاعر يصبو الى ذكر بلاده الأولى من حياته البدوية ، تجده يذكر الرياض والبساتين والأزهار والأنهار ، والمياه الجارية وظلال الأشجار والنسيم العليل والآراء العامة والخاصة وأحوال الاجتماع والعادات

هذا العقل المزدوج من البدو والحضر ظهر فيه جمال الفطرة ونضارة الحضارة ، وظهر هذا كله في الشعر . لأن الشعر كان مسرح العقول من جد وهزل وعلم وفلسفة . ولبث منتشرأزهاء ثمانية قرون بين الخاصة والعامة من العرب وسكان البلاد الأصليين كالقوط وغيرهم . وقال الشعر كثير من الأمراء . وسابق النساء الرجال في ذلك ، فكان أحياناً يسبقنهم ، وعن الناس هناك بالشعر عناية عظيمة ، فكانوا ينقشونه على جدران المساكن وأبنية الحكومة . واتصل بالحوادث العامة الاجتماعية . وكان من وسائل الرقي ، ومن دواعي السلم والحرب ، وفك أسر المسجونين ، والعفو عن المجرمين .

ولم تكن تخلو رسالة ثرية من الشعر ، حتى سرت عدوى الوزن والقافية الى النثر . وانتشرت طريقة السجع في جميع المكاتبات ، وهي محلاة بأبيات من الشعر ، حتى في الكتب العلمية ، ومكاتبات الحكومة ، وإجازات السفر . وكانت صناعة الشعر لازمة ، وروايته واجبة ، لمن يريد أن يندمج في حواشي الملوك . فقد كان الأدياء يجتمعون في حضراتهم للانشاد والمسابقة في ذلك ، كما كانت الحال في حضرة عبد الرحمن الأول ومن جرى على سنته ممن جاء بعده من الملوك والأمراء ، الذين كانوا يجرون المراتب والجوائز على الشعراء^١

وقد كان لنشاط العرب العقلي وصفاء قرأهم في قول الشعر ما كان لهم من العلوم والفنون ، بل زاد ذلك في الشعر لما لهم من ميلهم الفطري اليه والافتنان فيه . فقد وسع كل شيء من أحوالهم الاجتماعية والنفسية . فكانوا يصفون الكبراء

١ راجع الكلام على الشعر في الاندلس في كتاب
Von Schack . Poesie und Kunst der Araber

والعلماء ، ويمدحونهم بعبارة جميلة رقيقة ، أكثرها خال من المبالغات .
ويشونه شكواهم وآلامهم ،^١ ولهم قصائد في التقرب الى الله ومدح الرسول عليه
السلام ، والزهد والتصوف والثناء ،^٢ ولهم أشعار رقيقة في المزح والتهكم
والهجون^٣

١ كما في قصيدة ابن الرندي الشهيرة ورناء ابن عبدون لبني الافطس وشكوى المعتمد بن
عباد مما اصابه في آخر حياته

٢ واجمع الجزء الاول من كتاب الذخيرة لابن بسلام

٣ كما في قصيدة قاضي الجماعة بفرناطه ابي عبد الله بن علي بن الازرق. نذكر منها شيئاً
على سبيل الفكاهة قال:

عم بانصال الزمن	ولا تبالي بمن	وهو يواسي بالرضا	من سمح أو حسن
أو من عجزو تختطي	والظهر منها منحنى	أو من ملج مسعد	موافق في الزمن
مها تبدي خده	يبدو لك الورد الجني	وان تمسه نظري	ومدهبي وتلهني
فالصنع تستوجه	نعم وثقب الذقن	وبعد هذا أشتفى	منك ويبري شجني
	واضرب الكف أمام	ذلك الوجه الدني	
	طقطق طق طقطق طق	اصغ بسمع الاذن	
	قحجق قحج قحج قحج	الضحك يغليني	
أفدى صديقاً كان لي	بنفسه يمدني	فتارة أنصحه	وتارة ينصحني
وتارة ألننه	وتارة يلعنني	وربما أصغه	وربما يصغني
أستغفر الله فيه	هذا القول لا يعجبني	يأليت هذا كله	فيما مضى لم يكن
أضحكت والله بهذا	حديث من يسمعي	دهر تولى وانقضي	عني كطيف الوسن
يأليتني لم أره	وليتني لم يرني	دنست فيه جاني	وملبسي بالدرن
وبعت فيه عيشتي	لكن يبخس الثمن	كأنني ولست أد	رى الآن بما كانني
	والله ما التشيه عن	د شاعر بهين	
ومنها	هل أمتطي يوماً الى	شرق بطون السفن	
وأجبتني ماشته	في المنزل المؤمن	حينئذ أخلع في	هذي القوافي رسنى
وتحسن الفكرة بال	مدوس والسمنني	واللحم مع شحم ومع	طواق الكباش الثني
والبيض في المفلاة بال	زيت اللذيد الدهن	وجلدة الفروج مشو	يا كثير السمن
ومنها	هل للثريد عودة	الى قد شوقي	
	تنوص فيه أتملي	غوص الاكول المحسن	
ولى الى الاسفنج شو	ق دائم يطربني	وللارز الفضل اذ	تطبخه بالسين
	واللشواء	ق من هيام أنثني	

وقد نظموا التاريخ وحوادثه^١ . وبرعوا في وصف الأبنية الفخمة وما فيها
من الصور والأشكال والزينة ، ووصف القصور والحدائق ومجالس الشرب
والسمر والغناء والرقص . كقول الشاعر :

يأربَّ لَيْلٍ قد هتكتُ حجابَه بزُجاجةٍ وقَادَةٍ كالكوكَبِ
يَسْعَى بها ساقُ أغْنٍ كأنها من خده ورُضَابٍ فيه الأشنبِ
بدران بدرٍ قد أمنت غروبه يسعى بيدرٍ جانحٍ للمغربِ
فاذا نعتَ برشف بدرٍ طالع قأنمٍ بيدرٍ آخرٍ لم يغربِ
حتى ترى زهر النجوم كأنها حول المجرَّة ربربٌ في مشربِ
والليل منحصر يطير غرابه والصبحُ يطردُه بيازٍ أشهبِ

ووصفوا التنزه بالليل في ضوء القمر ، والأشجار وغصونها ، والرياح وهي تعبت
بها وظلها الظليل ، وأشعة القمر على الجداول ، وصفاء الجو ، والفاكهة والأثاث
والمساكن ، والقصور والصور . كقول الشاعر :

قصرٌ بمدرجةٍ النسيم تحدث فيه الرياضُ بسرّها المستورِ

ومنها وهات ذكر الكسكو فهو شريف وسنى
لاسيما ان كان معص نوعا بفتل حسن
ومنها وصننى غن ذاك قلا عة الوفا بالثمن
يه خيلى هذه مطاعم لكسنى أعجب من ريقك اذ يسيل فوق الذفن
هل نلت منها شبا فدكرها أشبعنى وان تكن جوعان يا صاح فكل بالاذن
فليس عند شاعر سوى كلام الألسن يصور الأشياء وه ي أبدا لم تكن
فقله يريك ما ليس يرى في الممكن فاسمع وسامع واقتنع واطلو حشاك واسكن
راجع القصيدة في نفح الطيب طبع أوروبا جزء ثاني صحيفة ٢٠٢ . وراجع الكلام عن
ابن الأثرق في نفح الطيب طبع أوروبا جزء أول صحيفة ٩٤٠

١ راجع الأرجوزة المذكورة لابي طالب عبد الجبار في آخر الجزء الاول من
كتاب الذخيرة

خفض الخورنق والسدير سُمُوهُ وثني قصور الروم ذات قصورٍ
 لاث الغمام عمامة مسكية وأقلم في روضٍ من الكافورِ
 غنى الربيع به محاسن وصفه فافتد عن نورٍ يروق ونور
 فالذرح يسحب حُلّة من سُندس ترهَى بلؤلؤ طَلَبها المنثور
 والنخل كالنيد الحسان تقرطت بسبائك المنظوم والمنثورِ
 والرمل في حُبِّك النسيم كأنما أيدى غضون سَوالف المذخورِ
 والبحر يردد متنه فكأنه درع تُشن بمِظفنيّ مقررِ
 وكأننا والقصر يجمع شملنا في الأفق بين كواكب وبدورِ
 ووصفوا التنايل برك المياه وآواني الأزهار. كما قال بعضهم في دائرتين من
 ورد وياسمين:

يا حسنَهَا دائرةً من ياسمين كالخلج
 فالورد قد قابلها في حُلّة من خجل
 كما شق ورجبه تغامزا بالمقل
 فاحمر ذا من خجل واصفر ذا من وجل

ووصفوا الحمامات الرخامية والسباحة والنوافير والحدائق والمياه
 وتكلموا عن الفلمان والخدم ومجالس الخلفاء والاجتماعات العامة ومجالس
 اللهو والشرب والرقص. كما قال ابن شهيد

هاك شيخاً قاده السكر لكا قام في رقصته مُستهلِكا
 لم يطلق يرقصها مستثبتاً فاثني يرقصها مستمسكاً
 عاقه عن هزها منفرداً نقرس أخنى عليه فاتمكا
 من وزيرٍ فيهم رقاصة قام للسكر يتاغى ملكاً

١ راجع وصف ابن حمد يس في نفح الطيب طبع أروبا ج ١ ص ٣٢١

أنا لو كنتُ كما تعرفني قمتُ اجلالاً على رأسي لكأ
 قهقهه الابريق مني ضاحكا ورأى رَعشة رجلِي فبكي
 وتكلموا عن آلات الطرب وكل أنواع السرور والفرح، ووصفوا ميادين الحروب
 واهوال القتال والنضال؛ والشجاعة والجبن والاقدام، والنصر والخذلان.
 ووصفوا النفوس ومايجول بها من الميول والأهواء وما يحدث فيها من لذة وألم
 والعشق وأثره في النفس . كما قال الشاعر :

قُبلة كانت على دَهش أذهبت ما بي من العطش
 ولها في القلب منزلة لوعدها النفس لم تطش
 طرقتني والدجى لبست خلماً من جلدة الحبش
 وكأن النجوم حين بدت درهم في كف مرتعش^١
 وبرعوا في هذا النوع براعة لا تحارى حتى أتوا بالغرائب من المعاني الجزلة التي
 تثير النفوس وتحملها على التعشق كما قال الشاعر :

١ وكقول بعضهم:
 بتنا كأن حداد الليل شملتنا
 كأن ليلتنا والصبح يتبعها
 وكقول الشاعر
 ولما تجلى الليل والبرق لامع
 وكقوله في وصف زنجي يسقيهم
 وزنجي أتى بقضيب نور
 فقال فني من الفتيان صفه
 وكقولهم في ملاقة الاحبة وأوقات الوصل
 وواعدتها والشمس تبجح للندى
 فجاءت كما عشى سنى الصبح في الدجا
 فطمرت الافاق حولي فأشعرت
 فتأملت بالتقبيل آثار سعيها
 حتى بدا الليل في ثوب سحولي
 زنجية هربت أمام رومي
 كما سل زنجي حساماً من التبر
 وقد زفت لنا بلب الكروم
 فقلت الليل اقبل بالنجوم
 يزورها شمساً وبدردجى يسرى
 وطورا كما مر النسيم على النهر
 بمقدمها والعرف يشعر بالزهر
 كما يتقمى قارىء أحرف السطر

غصبوا الصباحَ فقسّموه خُدوداً واستنهبوا قُضب الأراك قدوداً
ورأوا حصى الياقوت دون نحورهم فاستبدلوا منه النجوم عقوداً
واستودعوا حدّق المهي أجفانهم فسبّوا بهن ضراغما وأسودا
لم يكفهم حمل الأسنة والظُّبا حتى استعاروا أعينا ونهوداً
وتضافروا بصفائر أبدوا لنا ضوء النهار بليها معقوداً
صاغوا النفور من الأقالح بينها ماء الحياة لو اغتدي موروداً

ولهم خيالات مبتكرة وعبارات طليّة خصوصاً في الوصف ، كقول ابن شهيد :
فكأن النجوم بالليل جيش دخلت للكمون في جوف غاب
وكان الصباح قانص طير قبضت كفه برجل غراب
ومن أبدع كلامهم في الوصف الجميل والشعر الذي لا يجارى في طريق الخيال
والابتكار، ورقة العبارة وحسن الأسلوب، وجزالة المعنى، قول أبي الفضل بن شرف
القيرواني^١ :

مَطَّلَ الليلُ بوعد الفلقِ وتشكى النجم طول الأرقِ
ضربت ريح الصَّبامسك الدجى فاستفاض الرّوض طيبَ العَبَقِ
وألح الفجر خدّاً خَجَلًا جال من رشح الندى في عرق
جاوز الليل الى أنجمه فتساقطن سقوط الورقِ
واستفاض الصّبح فيها فيضة أيقن النجم لها بالغرقِ
فأنجلى ذاك السّنا عن حَلَكِ وأنمى ذاك الدجى عن شفقِ
بأبي بعد الكرى طيف سري طارقاً عن سكن لم يُطرقِ
زارني والليل ناع سدّقه وهو مطلوب بياق الرّمقِ

١ راجع القصيدة في الجزء الثاني من نفع الطيب طبع أروبا صفحة ٢٦٧

ودموع الطلّ تَمْرِيها الصَّبَا وجفون الروض غرقى الحدقِ
فتأني في أزار ثابت وتلني في وشاح قلقِ
وتجلى وجهه عن شعره فتجلى فلق عن غسقِ
نهب الصبحُ دجى ليلته فجا الخدَّ ببعض الشفقِ
سلبت عيناه حدّئى سيفه وتحلى خده بالرونقِ
وصفوا الكنائس والأديرة والقسس. كما قالوا عن ابن شهيد «انه بات ليلة
باحدى كنائس قرطبة وقد فرشت بأضغاث آس، وعرشت بسرور واستيناس
وقرع النواقيس يبهج سمعه، وبرق الحيا يسرج لمعه، والقس قد برز في عبدة
المسيح، متوشحاً بالزناير أبدع توشيح، قد هجروا الأفراح وطرحوا النعم
كل اطراح

لا يعمدون الى ماء بآنية الا اغترافا من الغدران بالراح
وأقام منهم يعملها حيا، كما نما يرشف من كأسها شفة لميا، وهى تنفخ له بأطيب
عرف، كما رشفها أعذب رشف، ثم ارتجل بعد ما ارتجل :

ولرب حان قد شممت بديره خر الصبا مزجت بصرف عصيره
فى فتية جعلوا السرور شعارهم متصاغرين تخشعاً لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا يدعو بعود حولنا بزبوره
يهدى لنا بالراح كل مُحْفَرٍ كالخشف خفَره التماح خفيره
يتناول الطرفاء فيه وشربهم لسلافه والأكل من خنزيره»

أما الأزجال والموشحات وغيرها من الأوزان التى ابتكروها فى الشعر
العربى، والمقطوعات الشعرية جدية أو هزلية أو اجتماعية، فحدث عن البحر ولا
خرج. فقد أظهروا من البراعة فى ذلك ما لا يقدر عليه الا نفوس خلقت شعرية
بطبيعتها وشاعرة بفطرتها. وقد سرت هذه الأنواع الى المشرق فأحدثت حركة
جديدة فى الشعر العربى، مما سند كره فى موضعه

أبو عامر بن شهيد

هو أبو عامر أحمد بن أبي مروان بن شهيد حفيد ذى الوزارتين أحمد بن عبد الملك بن شهيد وزير الناصر. ولد أبو عامر سنة ٣٨٢ هـ ومات سنة ٤٢٦ هـ فهاش في أزهى عصور اللغة والأدب في الأندلس ، وفي عصر كان للمجون فيه سلطان عظيم على النفوس ، وكان الأدياء أكرم الناس وأكثرهم اقبالاً على ذلك ، يجرون وراء أغراض الناس وأهوائهم ، فأنصبفت عقولهم بصبغة اللهو ، وأنصرفوا الى وصف هذه المجتمعات والمخاقل ، وأخذ الشعر والنثر تلك الصبغة الهزلية التي جعلته خفيف الروح ، عذب المذاق ، سهلاً رشيقاً ، جميل البزّة والأسلوب ، مشتملاً على كثير من أحوال الاجتماع وعادات الناس .

وكان أبو عامر من أعلم الناس متفنناً في علوم الأدب ، بارعاً في صناعة النظم

١ هو أحمد بن عبد الملك بن شهيد الاشجعي الأندلسي القرطبي وزير عبد الرحمن الناصر وهو أول من تسمى بذي الوزارتين ، وكانت له دالة على عبد الرحمن الثالث ومنزلة رفيعة لديه . فتصرف في الوزارة كيفما شاء ، واشتهر شهرة عظيمة في سياسة الملك ، كما طار صيته وعلا ذكره بين الادباء ، فكان من اكتب الكتاب وأشعر الشعراء . وقد كان هو وحفيده ابو عامر من أنبغ كتاب الاندلس وأظهرهم ميزة في الكتابة والشعر ولا سيما في الاساليب القصصية من جدية وهزلية كما أشرنا الى ذلك . وهو صاحب الهدية المشهورة التي أهداها للناصر (راجع صفحة ١٩) وقد عاش في كنف عبد الرحمن الناصر فكانت بينهما صداقة وصلة ودية وكان يدل أحدهما على الآخر .

ويحيل الى من يطلع على حياة ابن شهيد هذا انه كان يصرف كل أوقاته في اللهو واللعب على الرغم مما اشتهر به من الكياسة في سياسة الدولة . فقد كانت بينه وبين الناصر مداعبات تدل على ذلك (راجع اخباره مع الناصر واهدائه الغلام في نفع الطيب طبع أوروبا جزء أول صفحة ٢٢٢) وله أخبار وأشعار كثيرة في نفع الطيب

والنثر . فكانت له منزلة رفيعة وابتكارات بديعة ، وأساليب راقية في فنّ المنظوم والمنثور ، حتى فاق جده في ذلك .

وبرع في أسلوب الرسائل القصصية النادرة المثال في الكتابة العربية ، وربما انفرد في نوعها ، مما يدل على ميله الى الأسلوب القصصيّ وابتكاره الفنى . ولقد تحسب هذه الرسائل فدة في اللغة العربية على الرغم مما في بعضها من المشابهة برسالة الغفران لأبي العلاء ، من حيث الأسلوب والموضوع . كما في رسالة « التوابع والزوابع » . وقد ذكره ابن بسام صاحب الذخيرة نقلاً عن ابن حيّان بأنه « كان في تنميق الهزل والنادرة ... أقدر منه على سائر ذلك وشعره حسن عند أهل النقد ، تصرف فيه تصرف المطبوعين ... وله رسائل كثيرة في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال ... وكان في سرعة البديهة ، وحضور الجواب وحدته مع رقة حواشي كلامه وسهولة ألفاظه ... آية من آيت خالقه ... وكان له انهماك في شرب وبطاله » .^١ وقد اتصل بالموثقين عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر وكتب له رسائل طويلة بها قصائد جميلة يمدحه فيها ويتملقه كثيراً . نذكر منها أبيات من قصيدة بدأها بنوع من الوصف البديع لروضة من الرياض ، وما بها من لهو ونعيم وجوار وخدم ، وتخلص من ذلك الى الدخول على مدح الموثقين فمدحه بما لا يكون الا على لسان مثله .

ولقد يرى القارئ في قصيدة ابن شهيد هذه روحاً شعرية جديدة يلحح من خلالها نفس الشاعر وما له من القدرة على امتلاك المعاني ، والتصرف فيها ، وكأنما يقول ذلك بلا روية ولا تكلف ، وكأنه يعارض أبا نؤيس في أسلوبه . قال بعد أبيات:

١ في النسخة المخطوطة خطأ كثير في بعض الجمل والالفاظ حذفها ما لم يمكننا فهمه ووضعنا محله فقط وأصلحنا ما ظهر انه محرف . وقد تدل النقاط على حذف عدة جمل للاختصار . وفعلنا مثل ذلك فيما اخترناه من شعر ابن شهيدور بما أهملنا وضع النقاط في حذف بعض الايات

وردُّ كما خَجَلَتْ خَدُو
 وشَقِيقُ نَعْمَانِ شَكَتْ
 ونَعْصُونُ أَشْجَارَ حَكَّتْ
 بِكَرِّ الْحَسَانِ يَرِ ذَنْهَا
 وَضِحْكَنِ عَجْبًا فَالْتَقَتْ
 ضُكَّحَتْ وَأَزْعَجَ بَارِقُ
 وَتَكَوَسَتْ فِيهَا الْأَبَا
 وَكَأَنَّهَا أَظْلَبَ رَعْفَنَ فَبَرِ
 وَعَلَا بَنَا سُكَّرَ أَبِي
 نَرَمَى قَلَائِسَنَا لَهُ
 وَتَرْنَمَتْ فِيهَا الْقِيَا
 قُنْنَا نَصْفُكُ بِالْأَكْفِ
 وَأَعْدَنَ مِنْ سَدَنَ الْمَلُو
 يَشْكُو الرِّعَاةَ تَنْعُمًا
 لَا تَسْتَحِيهِ الرَّاشِفَا
 يُحْنِنِيهِ ثَمَرَ النُّحُو
 مُتَجَاهِلَاتٍ أَنَّهُ
 لَازِمَتْ بَابَ مَحَلِّهِ
 حَتَّى إِذَا وَقَفَتْ بِنَا
 أَلْقَيْتُ مِنْ أُخْذِي لَهُ
 وَأَقْدَمَتْهُ بِشَكَاثِي

دُ الْعَيْنِ مِنْ لَحَطَاتِ هَائِمِ
 صَفْحَاتِهِ مِنْ لَطَمٍ لَا طِمِ
 رَقَصَ الْمَاتِمَ الْمَاتِمِ
 مِنْ كُلِّ وَاضِحَةِ الْمَلَاغِمِ
 فِيهَا الْمُبَاسِمُ بِالْمُبَاسِمِ
 فَظَلَّتْ لِلْبَرْقِينَ شَائِمِ
 رِقُ وَهِيَ فَاهِقَةُ الْخَلَائِمِ
 نَ دَامِيَةَ الْخِيَاثِمِ
 إِلَّا الْإِنَابَةَ لِلْمَحَارِمِ
 وَنَجَرُ مِنْ عَذَبِ الْعَهَائِمِ
 نَ لَنَا وَرَجَعَتْ الْبَوَائِمِ
 لَهَا وَرَقَصُ بِالْجَمَائِمِ
 كَ سَلِيلِ أَقْيَالِ خَضَائِمِ
 وَيَضْجُ مِنْ حَمْلِ الْتَهَائِمِ
 تَ وَلَا تَبَالِيهِ الْوَلَائِمِ
 رِ وَيَمْتَرِينَ بِهِ الْمَحَارِمِ
 يَهْوِي وَهْنُ بِهِ عَوَالِمِ
 وَالنَّجْحُ مِنْ قَنْصِ الْمَلَاظِمِ
 عَجَزَ الْخَوَاضِنِ وَالْخَوَادِمِ
 وَتَلَوْتَ مِنْ سُرُورِ الْعَزَائِمِ
 فَانْقَادَ مِنْ تِلْكَ الشَّكَاثِمِ

فوردت جناتِ المنى وكُرمْتُ عن لومِ الملائمِ
وأغرَّتْ قد لبسِ الدجى بُرداً فراقك وهو قاحمِ
يحكي لغزته هلا ل الفطر لاح لعين صام
وكأنما خاض الصبا ح نجاء مبيض القوائمِ
ويسير في ييس الكرى وكأنه في الصبح عائم
حتى اذا علّمُ الصبا ح أنار من تلك المعالمِ
وتمايلت أيدي الثريا وهى مُذهبةُ الخواتمِ
ورمت ذُكاه بناظر رمدٍ من الأقداء سالمِ

فاذا وصف وجدته يقظا قوى الملاحظة ، لا يصف الأوصاف العامة
كأكثر الشعراء ، ولكنه يصف ما يراه وصفاً دقيقاً ، كالمصور يصور ما هو
أمامه . وتلك صفة من صفات الرجال الفنيين

ولقد يقرأ الانسان شعره فكأنه في هرج ومرج . وكأنما الكؤوس
تدور ، والنفوس تشور ، والعزائم تخور ، والمقول ، ثملة والحياة كلها جنة ونعيم
كما قال:

أذنَ الديكُ فُتِبَ أو ثوبَ وانضح القلبَ بماء العنبِ
وتأمل آيةً معجزةً ماقرأنا مثلها في الكتبِ
ركع الابريق من طاعته وبكى فابتل ثوبُ الأَكُوبِ
ولولَ الزهرِ ينفي كربي وتطربت فأعبي طربي
وريب قام فينا ساقياً كلشا أُرضع بين الرّزبِ
ظبيةً دون الظباء قُصِّصَتْ فأتت غيدا، في شكل صبي
فتح الوردُ على صفحتها وحاء صدغها بالعُقبِ

فشت نحوى وقد ملكتها مشيه العصفور نحو الثلب
وغام باكرتنا غيمه ترع الأفق بدمع صيب
مثل بحر جاءنا من فوقنا جرمه من لؤلؤ لم ينقب
واذا هو ينتقل الى المدح، كما ينتقل الانسان من ظل الأشجار الى خير المياه
والأنهار:

فسألناه وقد أعجبنا حشوه العين بمرأى معجب
أنت ماذا؟ قال مزن علمت كفه النفحة كنا درب
رامنى بالشوق أن أسقيكم رحمة منه بأقصى المغرب
فسألناه ابن ذاك لنا قال هل يخفى ضياء الكوكب
ملك ناصب من خالفكم عامرى المنتهى والمنصب
الى ان قال:

أنجته للمعالى أسرة نزلوا للمجد أعلى الرتب
بنفوس من سناء غضة فى جسوم غضة من حسب
ووجوه مشرقات أومضت ضاحكات فى وجوه الكرب
لهم أيام حرب كثرت فى عداهم داعيات الحرب
هذا أسلوبه فى الشعر، ولولا خوف الملل من الاطالة لذكرنا كثيراً من
شعره.^١

أما نثره فأعجب من شعره من حيث أسلوبه الخيالى القصصى والميل الى
ذلك. وان كان شعره أبلغ من نثره من حيث الديباجة والعذوبة
وقد كتب رسالة هى أشبه برسالة الففران، من حيث أسلوبها الأدبى

١ أخباره مبسوطه مع شعره ونثره فى الجزء الاول من كتاب النخبة لابن بسام وفى
نفع الطيب ومطبخ الانفس

وسماها «التوايع والزوايع» ولعل ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء في ذلك ، لانه أدرك عصره ولان شهرة أبي العلاء كانت ذائعة في المشرق والمغرب . وكان أهل الاندلس يقلدون أهل المشرق في كل شيء .^١

كتب أبو عامر بن شهيد هذه الرسالة الى صديقه ابن حزم . فقد عاش في عصر أبي بكر بن حزم هذا فتصادقا وتحابا . وكان لكل منهما دالة على صاحبه . وكل منهما أديب وعالم ، لا تمر بأحدهما لحظة من لحظات الحياة الا كانت له فيها جولة فكر ونظر . وكانت بينهما رسائل ومكاتبات يعرضون فيها آراءهم وما يجول بنفوسهم^٢ . فكانت عقولهم في حركة مستمرة من الجدل الى الهزل ، ومن اللهو والمزح الى مسائل الأدب والدين . ولذلك تجد أحدهم يؤلف في علوم الدين ، وتجد يكتب في الهزل والمجون ، وتجد عالما وفيلسوفاً وشاعراً وفتياً وعاشقاً . فكانوا يأخذون من كل فن بطرف . وكانت تربيتهم العقلية تربية علمية وفنية مما مبنية على حب الاستطلاع والبحث ، وعلى الرغبة في سرور النفس وارتياحها بآثار الفنون الرائعة . فكانت أخيلتهم مذبذبة مصقولة ، وآراؤهم بدعية وأساليبهم رشيقة ، وابتكاراتهم عجيبة

والظاهر أنه كان للفلسفة اليونانية وقراءتها وأساليبها أثر عظيم في نفوسهم . ولعل أسلوب المحادثة والمناقشة الذي نجده في بعض الرسائل هناك كان مقتبساً من مثل أسلوب أفلاطون في بعض كتبه ، لأنه أسلوب جديد من الأساليب التي حدثت في اللغة العربية

١ أدرك ابن شهيد عصر أبي العلاء فقد عاش من سنة ٣٨٢ الى سنة ٤٢٦ وعاش ابو العلاء المعري من سنة ٣٦٣ الى سنة ٤٤٩

٢ قال ابن خلكان وكان بينه وبين ابن حزم الظاهري مكاتبات ومداجات وله التصانيف الغريبة . منها كتاب كشف الدك وإيضاح الشك ومنها التوايع والزوايع ، ومنها حانوت عطار وغير ذلك أدرك ابن شهيد... الخ

أما الأسلوب الذى كتبت به رسالة ابن شهيد فهو أسلوب خيالى تهكمى ويسميه الأدباء أسلوباً هزلياً. كما ذكر ابن بسام أثناء كلامه عن ابن شهيد: «فصول من رسالة سماها بالتوايع والزوايع صدرت عنه مصدر هزل تشتمل على بدائع وروائع»

وهذه الرسالة عبارة عن عرض صورة عامة للأدب والأدباء ونقد شعرهم نقداً بيانياً مبنيًا على ما يعطيه اللفظ والديباجة من الجمال، وما توحىه معانى هذه الألفاظ من الروعة والاعجاب، على حسب ما هو معروف من أساليب النقد عند أدباء العرب.

وله فيها شعر رقيق وأسلوب جميل، بشكلٍ محادثات بينه وبين الشعراء المعروفين. فهي أشبه بقصة أدبية مملوءة بصور الأدباء والشعراء

قال فى صدرها: «كنت...أحن الى الآداب، وأصبو الى تأليف الكلام، فاتبعت الدواوين، وجلست الى الأساتيد، فنبض فى عرق الفهم، ودَرَ إلى شريان العلم...، وقليل الاتراح من النظر يؤيدنى، ويسير المطالعة من الكتب يفيدنى، اذ صادف شئ العلم منى طبقة، ولم أكن كالثلج تقبس منه نارا، ولا كالبحار يحمل أسفارا، فطعنت ثغرة العلم دراكا،^٢ وأعلقت أرجل طيره اشراكا، فانثالت^٣ الى المعائب، وانهالت الرغائب. وكان لى أوائل صبوتى هوى اشتد له كفى، ثم لحقنى بعض ملل فى أثناء ذلك الميل. فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك اللال، فجزعت وأخذت فى رثائه، ... فقلت تولى الحمام، بظي الحدود وفاز الردى بالغزال الغرير»

الى ان انتهيت الى الاعتذار من الملل الذى كان قفلت :

و كنت مللتك لا عن قلى^٦ ولا عن فساد ثوى فى الضمير

١ النظر الخفيف ٢ من المداوكة وهى المتابعة ٣ تابعت وكثرت ٤ الحمام الموت ٥ الغرير المحدوع ٦ القلى البفض

فأرتج على القول . فاذا أنا بفارس بباب المجلس ، على فرس أدهم كأنما بقل^٢
وجهه ، قد انكأ على رحمه ، وصاح بي : أعجزا يافتي الانس ؟ قلت لا وأبيك
للكلام أحيان ، وهذا شأن الانسان . فقال قل بعده

كمثل ملال الفتى للنعيم اذا دام فيه وحال السرور
فأثبت أجازته^٣ . وقلت بأبي من أنت ؟ قال زهير بن نمير من أشجع الجن ،
نصورت لك رغبة في اصطفاك . قلت أهلا بك أيها الوجه الوضاح ، صادفت
قلبا اليك مقلوباً . وهوى نحوك محبوباً ، ونهادنا وتذاكرت معه أخبار الخطباء
والشعراء ومن كان يالفهم من التوايع والزواج^٤ . وقلت له هل حيلة في لقاء من
اتفق منهم ؟ قال حتى أستأذن شيخنا . وطار عني . ثم انصرف وقد أذن له . فقال
جل على متن الأدهم . فسرنا عليه ، وسار بنا كالطير يجتاب الجو فالجو ، ويقطع
الدو فالدو^٥ ، حتى لمحت أرضاً لا كأرضنا ، وشارفت جواً لا كجونا ، متفرع
الشجر ، عطر الزهر . فقال حللت أرض الجن أبا عامر ، فبمن تريد أن تبدأ ؟ قلت
الخطباء أولى بالتقديم . لكنني الى الشعراء أشوق . قال فمن تريد منهم ؟ قلت
صاحب امرئ القيس ، فأمال العنان الى^٦ ، واذا وادى دوح^٧ تتكسر أشجاره ، وتترنم
أطيابه . فصاح يا عيينة بن نوفل ، بسقط اللوى وبجول ويوم دارة جلجل^٨ الا
ما عرضت لنا ، وسمعت من الإنسى وعرفتنا كيف أجازتك له . فظهر لنا
فارس على فرس شقراء كأنها تلتهب . فقال حياك الله يازهير وحيا صاحبك .
أهذا هو ؟ قال هو هذا وأبى جرة يا عيينة . قال أنشد . قلت السيد أولى
بالأنشاد . فتطامح طرفه ، واهتز عطفه ، وقبض عنان الشقراء وضربها بالسوط ...
وجعل ينشد :

سمالك شوق بعد ما كان أقصرا

١ أدهم أسود ٢ ثبت عنده ٣ أنفذت رأيه ٤ الروبة الشيطان أو رئيس الجن
٥ الدو الفلاة ٦ الشجر العظيم

حتى أكلها ثم قال لي أنشد . فهمت بالحیصة ^١ . ثم اشتدت قوى نفسى .
وأنشدت :

شجته مفانٍ من سُلیمی وأدور

حتى انتهيت الى قولى :

ومن قنّة ^٢ لا يدرك الطرف رأسها تزل بها ریح الصبا فتحدر
تكنفتها والليل قد جاش بحمره وقد جعلت أمواجه تتكسر
ومن تحت أحسن أبيض ذو شقائق وفى الكف من عسالة ^٣ الخط أسمر
هما صاحباى من لدن كنت يافعا مقيلا من جدد الفتى حين يعثر
الى آخر ما قال

وهكذا أخذ فى عرض أحوال الشعراء بطريقة خيالية لذينة . ولكنها تكون
تكون خالية من كل نقد أو رأى له . وليس فيها الاجمال العبارة ، وسهولة
الاسلوب ، ووضعها هذا الوضع القصصى الذى يدل على سعة خياله ، وبلوغه منزلة
رفيعة فى هذا الأسلوب الأدبى الصريف . على أنه يميل الى مدح نفسه وعرض
شعره ، ويتخذ ذلك وسيلة من وسائل الإعجاب بكلامه . وقد برع فى وصف
أحوال الشعراء الذين ذكروهم ووصف حياتهم وميولهم النفسية ، وكأن لكلامه
ألوانا ترسم أحوالهم المختلفة ، وتميز بعضها من بعض ، أو كأنما استعرض أمامه هذه
البيئات والمناظر وأخذ يرسمها بقلمه . كما قال عن أبى نواس :

« ثم قال لى زهير : من تريد بعده ؟ قلت صاحب أبى نواس . قال هو بدير حنة ،
قد غلب عليه الخمر . فركضنا ساعة وجزنا فى ممرنا بقصر قد أمه . فقلت لمن هذا
القصر يا زهير ؟ قال لطوق بن مالك أبى الطبع صاحب البحترى ، فهل لك فى أن
تراه ؟ قلت أجل . انه من أساتيدى . وقد كنت أنسيته . فصاح يا أبا الطبع . فخرج الينا

١ بالهزج ٢ قفة الجبل ٣ السيف

قضى على فرس أشعل^١ بيده قناة ، فقال له زهير انك موفق ، قال لا ، صاحبك أشمخ
مارنا من ذلك لولا تنقصه . قلت يا أبا الطبع ان الرجال لا تكال بالقفران ، أنشدنا .
من شعرك فأنشد : ما على الركب من وقوف الركاب
حتى أكملها ثم قال : هات ان كنت شيئاً فأنشدته .
هذه دار زينب والرباب .

حتى انتهيت فيها الى قولى :

فكأن النجوم بالليل جيش دخلت للكمون فى جوف غاب
وكان الصباح قانص طير قبضت كفه برجل غراب
... فكأنما غشى وجه أبى الطبع قطعة من الليل ، وكر راجعاً الى ما وراءه
دون أن يسلم . فصاح به زهير أجزته ؟ قال أجزته لا بورك فيك من زائر
... وسرنا حتى اتهمنا الى أصل دير حنة ، فضرب زهير الأدهم . فسار بنا فى قنته
ففتق سمى قرع النواقيس . فقلت فصحت^٢ من منزل أبى نواس ورب الكعبة ...
وسرنا نجتأب أدياراً وكنائس ، وحانات الى دير عظيم تعبق روائحه ، وتصوك
نوافحه . فوقف زهير ببابه : وصاح سلام على أهل دير حنة . فقلت أوسرنا بذات
الأكرأح قال نعم . وأرقلت نحونا الرهايين ، مشدودة الزناير ، قد قبضت على
العكا كير مبيضة الحواجب واللىحى ، مكثرين للتسبيح ، عليهم هدى
المسيح . فقالوا أهلا بك يا زهير من زائر ، وصاحب أبى عامر ما بنيتك ؟ قال حسن^٣
المدنان . قالوا انه لى شرك الخرة ، منذ أيام عشرة . وما نرا كما منتفعين به ، فقال وعلى^٤
ذلك . ونزلنا وقاد بنا الى بيت قد اصطفت دنائه ، وعكفت غزلانه ، وفى دير حنة
شيخ طويل الوجه والسبلة^٥ ، قد افترش أضغاث زهر ، واتكأ على زق خر ، وبيده
طرجهارة^٦ ، وحواليه صبية كالظباء تمطو الى عرارة^٧ . فصاح به زهير ، حياك الله أبا
الاحسان . فجاوب جواباً لا يعقل لغلبة الخمر عليه . فقال لى زهير اقرب اذن به

١ فى ذنبه ياض ٢ يريد أن مابه يفصح ويدل على منزل أبى نواس ٣ الشارب ٤ شبه كأس
يشرب فيه وفى النسخة الخطية طرجهارة وللمها معرفة ه للمها عرارة وهى لعبة للصبيان . وظي
يمطو اذا رفع يديه ليتناول الشجر . فهو يشبه الصبية بالظباء التى تلعب

باحدى خمرياتك ، فانه ربما تنبه لبعض ذلك . فصحت أنشد من كلام أبى طويله:
 ولرب حان قد ادرت بديره خر الصبا مزجت بصفو خوره
 فى فتية جعلوا الزقاق تكاهم متصاغرين تخشما لكبيره
 والى على بطرفه وبكفه فأمال من رأسى لعب كبيره
 وترنم الناقوس عند صلاتهم ففتحت من عيني لرجع هديره
 فصاح من حبال نشوته : أشجى ؟ قلت أنا ذاك . فاستدعى ماء قراحا
 فشرب منه وغسل وجهه ، فأفاق واعتذر الى من حاله ، فأدركتنى مهابته ، وأخذت
 فى اجلاله لمكانه من العلم والشعر . فقال انشد حتى أنشدك . فقلت ان ذلك
 أشد لتأيسى على أنه ما بعدك لمحسن احسان فأنشد :

يادر حنة من ذات الأ^١ كبراح^٢ من يصح عنك فافى لست بالصاح
 يعتاده كل محفو مفارقة^٣ من الدهان عليها سحق امساح^٤
 لا يدلفون الى ماء بساية^٥ الا اغترافاً من الغدران بالراح
 ثم قال لى انشد . فقلت وهل تركت للانشاد موضعاً قال لا بذلك ... فأنشدت

أصبح شيم أم برق بدا أم سنا المحبوب أورى زندا
 هب من رقدته منكسراً مسبلاً للكم مرخ للردا
 يمسح النعسة من عيني رشا صائد فى كل يوم أسدا
 قلت هب لى يا حبيبى قبله تشفى من غم تبريح الصدا
 فأننى يهتز من منكبه قائلاً : لا ، ثم أعطانى اليدا
 كلما كلمنى قبلته فهو اما قال قولا رردا
 كاد أن يرجع من لثى له وارثشافى الشفر منه أدردا^٦
 قال لى يلعب : خذ لى طائراً فترانى الدهر أجرى بالكدا
 واذا استنجزت يوما وعده قال لى يعطل : ذكركنى غدا

١ جمع زق وهو وعاء الخمر ٢ هى بيوت صفار تسكنها الرهبان بالقرب منها ديران يقال
 لاحدهما دير عبد وللآخر دير حنة وهو موضع بظاهر الكوفة كثير البساتين والرياض ٣
 خالية من الشعر ٤ الثوب البالى ٥ الدلو العظيم ٦ بدون أسنان

شربت أعطافه خمر الصبا وسقاه الحسن حتى عربداً
ولقد بلغ في هذا من دقة التعبير وبلوغ المعنى الذي قصد مبلغاً تشعر به النفوس
وكأنما ترى بعينك المعنى أو تلمسه بيديك ، أو كأنك واقف معه ترى
ما يراه هو ويدكره في شعره ، أو كأنك تنظر الى صورة واضحة تبين لك أجزاؤها
بألوانها المختلفة كل دقيق وعظيم .
وله رسالة في الخلاء غير معهودة المثال في الكتابة العربية جرى فيها مجرى
المجون والهزل والفكاهة . ذكرها ابن بسام في الجزء الأول من الذخيرة .

وكان ابن شهيد مع هذا من كبار رجال الأدب وأهل النقد . وله آراء تدل
على فكره الثاقب وعلمه الواسع في طرق النقد الأدبي . وكأنها آراء مبنية على
نظر عميق أودراسة فنية أو علمية . وفي رأينا ان آراءه في النقد أكبر ميزة من
شعره ونثره ، لأنها تدل على سعة اطلاعه وإبتكاره الخالص من كل تقليد ،
فقد انفرد بين نقاد الأدب العربي في ذلك . قال أبو عامر :

« إقامة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب واستيفاء مسائل النحو ، بل
بالطبع مع وزنه من هذين . ومقدار طبع الانسان انما يكون على مقدار تركيب نفسه
مع جسمه . فمن كانت نفسه من أصل تركيبه مستوية على جسمه ، كان مطبوعاً
روحانياً يطلع صور الكلام والمعاني في أجمل هيأتها ومن كان جسمه
مستولياً على نفسه من أصل تركيبه والغالب عليه جسمه ، كان ما يطلع في تلك
الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى في التمام والكمال وحسن الرونق . فمن كانت
نفسه المستوية على جسمه ، فقد تأتى منه في حسن النظام صور رائقة من الكلام
تملأ القلوب وتشغف النفوس . فاذا فتشت لحسنها أصلاً لم تجده ، ولجمال تركيبها
وجها لم تعرفه ، وهذا هو الغريب : أن يتركب الحسن من غير الحسن . كقول
امرئ القيس :

تنورتها من أذرعات وأهلها يثرب أدنى دارها نظر عال

فهذه الديباجة اذا تطلبت لها أصلاً من غريب معنى لم تجده . ولكن لها من
التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب مآثرى »

هذا شيء طريف فى النقد الأدبى عند العرب ، وكأنه يشير الى مذهب
النقاد الذين يأخذون صور الكتّاب من كتاباتهم ، ويقولون ان البلاغة من
نثر ونظم تدل على نفوس البلغاء . وفى هذا الكلام إشارة الى مذهب علمى
فى النقد: وهو الأعضاء « ووظائفها » واتصالها بالادراك . وذلك ان كان ليس
مبنياً على تجارب علمية أو على دراسة فنية فهى أفكار جالت فى نفسه تدل على
قوة الفكر لديه . وهو يميل الى أن الافتنان فى الكلام ، أو البراعة فى النظم
والنثر ، أو مايسمونه بالبلاغة ، نوع من الالهام ، أو شيء من الفيبىات أو سر من
أسرار النفوس . وهذه الآراء هى أصول مذاهب النقد الادبى ، وأصول معرفة
الكلام البليغ وشرحه كما قال :

« وقال الجاحظ انا اذا اكرتينا من يعلم صبياننا النحو والغريب قنع منا
بعشرين درهماً فى الشهر . ولو اكرتينا من يعلمهم البيان لما قنع منا بألف درهم .
ولم يقل هذا الا وقد ألف كتاب «البيان» . ولو كشف فيه عن وجه التعليم وصور
كيفية التدريج ، لأرى كيف وضع الكلام وتنزيل البيان ، وكيف التوصل الى
حسن الابتداء ، وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء ، وأبدى لهم عن تدبير المقاطع والمطالع
بأنها معانى الصنعة ، ومواضع مفاتيح الطريقة »

فذهبه فى النقد وسط ، لأنه يرى أن البلاغة شيء روحانى كما قال « فمن كانت
نفسه من أصل تركيبه مستولية على جسمه كان مطبوعاً روحانياً يطالع صور الكلام
والمعاني فى أجل هيئاتها . الخ » ويرى ان لهذا السر الروحى عدداً وأهبة . قال :
« جلس الى يوماً يوسف الاسرائيلى وكان أفهم تلميذ مربى وأنا وصى رجلاً عزيزاً
على من أهل قرطبة ، وأقول له : ان الحروف أنساباً وقرابات تبدو فى الكلام . فاذا جاور

النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الالفة وخسنت الصعبة وإذا
ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر وطابت المخابر . أفهمت ؟ قال لي
أى والله . قلت ، والعربية إذا طلبت وللصراحة إذا التمسست قوائين من الكلام
من طلب بها أدرك ، ومن تنكب عنها قصر ، أفهمت ؟ قال نعم . قلت وكما تختار
مليح اللفظ ورشيق الكلام ، فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح
الغريب وتهرب عن قبيحه . قال أجل . قلت أتفهم شيئا من عيون كلام القائل :
لمعرك أنى يوم بانوا فلم أمت خفائاً على آثارهم لصبور
غداة التقينا إذ رميت بنظرة ونحن على متن الطريق نسير
ففاضت دموع العين حتى كأنها لناظرها غصن يراح مطير
فقال لي أى والله وقعت خفائاً موقعا لذيذا ، ووضعت رميت ومتن الطريق موضعا
مليحا ، وسرى غصن يراح مطير مسرى لطيفا» الى آخر ما قال .

وكان يميل الى القول بان الأذواق تتفاوت وتختلف . وهذه قاعدة عامة في كل
الفنون ، بل هذا أساس الفنون جميعا . قال : وربما لا ذنبا المستطعم باسم الشعر ممن يخطب
العامة والخاصة بسؤاله ، فتصادف منه حالة لا تنسع له في كبير مبرة فتشاركه وتعتذر له ،
وربما أفدناه بأبيات يتعمد بها البقالين ومشايخ القصابين ، فإذا قارعت أسباعهم وما زجت
أفهامهم وأنجلت عقدهم ، جل شخص ذلك البائس في عيونهم . فما شئت اذ ذاك من
خبز وميرة يحشى بها كفه ، ورقبة سمينة تدفن في مخلاته ، ومن كوز فقع يصب في فمه ،
وتينة رطبة يسد بها حلقومه ... فلا يكاد البائس يتم ذلك حتى يأتينا ، فيكب على أيدينا
يقبلها وأطرافنا يسحها ، راغبا في أن تكشف له السر الذي حرك العامة فبدلت ما عندها
له ، وبادرت برفدها اليه . وتعليمه ذلك النحو من انحاء الشحذ لا نستطيعه . لان
هذا الذى يريد منا هو تعليمه البيان ، وبين فكره وبينه حجاب . ولكل
ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان » الخ

وكان يرى أن للكتابة أطواراً تتناوبها، وأحوالاً تعديها . اذ قال :

« وكما أن للدنيا دولا فكذلك للكلام نقل وتفاير في العادة . ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة لا يوافقها غيره ولا تهش لسواه . ألا ترى لما دار حال بمض الرسم الأول في هذا الفن الى طريق عبد الحميد وابن المقفع وسهل وأصحابهم . فالصنعة معهم أفسح باعاً وأشد ذراعاً وأنور شعاعاً ، لرجحان تلك العقول واتساع تلك القرائح في العلوم . ثم دار الزمان دورانا فكانت احالة أخرى الى طريقة ابراهيم بن العباس ومحمد بن الزيات ونظرائهم ، فرقت الطباع . ثم دار الزمان فاعتزى أهلها للطائفة صلف وبرقة الكلام كلف ، فكانت حال أخرى الى طريقة البديع ... وكذلك الشعراء انتقلوا عن العادة في الصنعة بانتقال الزمان ، وطلب كل ذى عصر ما يجوز فيه ، وتنهى له قلوب أهليه . فكان من صريع الغواني وبشار وأبي نواس وأصحابهم في البديع ما كان من استعمال أفانيه ، والزيادة في تفريع فنونه . ثم جاء أبو تمام فأسرف في التجنيس وخرج عن العادة ، وطاب ذلك منه وامثله الناس . والتوسط في الأمر أعدل . ولذلك فضل أهل البصرة صريع الغواني عليه ، لانه لبس ديباجة المحدثين على لامة العرب فتركب له من الحسن بينهما ما تركب »

هذه نظرة عامة في النقد الأدبي أو في أطوار البلاغة العربية . يتبين منها أن ملكة النقد كانت لديه كملكة الشعر والنثر . وقد قسم الافتنان في البلاغة الى ثلاثة أقسام . وعرف أحوال الكتاب وما يلاقونه أثناء أداء هذا الفن . قال :

« وأهل صناعة الكلام متباينون في المنزلة ، فمنهم الذى ينظم الأوصاف ويمحز جيد اللفظ ، إلا أنه يصعب عليه الكلام ، ويكد قريحة التأليف حتى أنه ربما قصر في الوصف . وأساء الوضع . وهذا في الأبيات القلائل نافذ ، وفي القرية المأخذ سائر ، وفي طريقة الجمهور ذاهب . حتى اذا ازدحت عليه ، وانحشدت اليه ، وطالبته ببناء البهجة

وشرف المنزلته، وقف وأثقل وتلاشى واضمحل ، ومنهم الكارخ في بحر الغرارة والقادح بشعاع البراعة ، الذي مرَّمرَّ السيل في اندفاعه، والشؤبوب في انصبابه لا يشكو الفشل ، ولا يكمل عن طول العمل . إذا ازدحت في الكلام عليه المطالب ، وعلقت بجواشي فكره المآرب ، وحشدت عليه الصعائب والفرائب ، استهل بها كاهله واضطلع بثقلها غاربه ، وأعارها من نظره لحمة ، ومن فكره قدحة . ثم رمى بها عن جانيبه ، وقد رويت بها . ولبست شعاع بها . ومنهم من يتجافى الكلام ويروغ عن المقال ، فإذا منى به أخذ بأطراف المحاسن وشارك في انحاء من الصنعة ، وجل ما عنده تليق وحيلة . وبذلك يجارى الأيام ويصاحب أبناء الزمان ، ما كان له عقل يقضي على نقصانه ، وسياسة يسود بها فحول زمانه . ومن خرج من هذه الطبقات الثلاث لم يستحق اسم البيان ولا يدخل في أهل صناعة الكلام »

وقد اتفق ابن شهيد باللاءة على مذهب أهل البديع . كأن هذه الطريقة اللفظية كانت ممقوتة . أو أن ملكة النقد كانت على وشك النضج ، أو أنها كانت آخذة في الانتقال الى طريق صحيح . قال أبو عامر .

« وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو ، وحفظ كلمات من اللغة ينحتون عن قلوب غليظة وقلوب كقلوب البمران ، والى فطن حجة وأذهان صدئة لا منفذ لها في شعاع الرقة ، ولا مدب لها في نور البيان ، سقطت اليهم كتب في البديع والنقد فهموا ما يفهم القرد اليابس في الرقص على الاتقاع والزمير على الألحان ، فهم يصرفون غرائبها تصريف من لم يرزق آلة الفهم ، ومن لم تكن له آلة الصناعة مما هي مخصوصة بها ، ولا تقوم تلك الصناعة الا بتلك الآلات . فهو كالخار الذي لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور لتدوير رؤسفه ، واستدارة حافره . ولا له بنان يحبس بها ولو جاز أن يكون حمار يغنى .

مابل أنجم هذا الليل حائرة أضلت القصد أم ليست على فلك
 وشبهه من الرجال ان له حنكا ولسانا وقصبة ورثة ، لماجاز أن يوقع بالمضرب
 على الأوتار، ويتم بحبس الأنامل، ويرخي الوتر في مجرى السبابة والبنصر، فيبلبل
 بشيده، ويؤلول في ضربه على بسيطه . فهذه حلة العصابة من المعلمين : يدركون
 بالطبيعة ويقصرون بالآلة . وتقصرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة ، من
 فساد الآلة القابلة الروحانية والخادمة لآلات الفهم ، الباعثة لرقيق الدم في
 الشريانات الى القلب، وزيادة غلظ أعصاب الدماغ وتقصاتها عن المقدار الطبيعي .
 وما يعين على ذلك بالحنس وطريق الفراسة فساد الآلات الظاهرة، كفرطحة الرأس
 وتسفيطه ، والنواء الشدق ، وخزر العين ، وغلظ الأنف ، وانزواء
 الأربعة »

أليس في هذا دليل على اطلاع أبي عامر بن شهيد على كتب العلم والفلسفة،
 على الرغم مما فيه من الغموض؟ وهل نجد بين أدياء العرب. في النقد الأدبي من سلك هذا الطريق
 العلمي؟ ان هذه لآراء ممتازة في النقد الأدبي العربي . وطريقة عامية تشبه ما حدث في
 الأدب عند أهل أوروبا في القرن التاسع عشر . وكان هذا يكون نموذجاً للنقد
 الصحيح وطرقه العامة التي تصل أفكار الكاتب وآراءه بتكوينه العصبي وتركيبه
 الجسمي . ولكن واحداً من الأدياء الذين تكلموا عن أبي عامر بن شهيد لم يذكر
 له غير « شعره الرقيق » وأسلوبه الرشيق، وبحجونه الكثير وأدبه الوافر ... الخ
 ان ابن شهيد من أفذاذ الأدياء المفكرين الذين أنجبتهم حركة العقول والادراك
 في الأندلس.

الوزير ابن زيدون^(١)

اقتربت الوزارة في الاندلس بالأدب . فكان الوزير كاتباً وشاعراً . وكان أشهر الكتاب والشعراء وزراء . وكانت الشهرة بالكتابة والشعر وفنون الأدب وفروع العلوم من وسائل الوصول الى امتلاك الوزارة . فكان للوزراء أثر عظيم في سير البلاغة والأدب . وأصبحت منزلة الادب كمنزلة الوزراء أنفسهم في الدولة . وظهر في الاندلس طائفة من الرجال الذين تربعوا في مناصب الملك وتقلبوا في مراكز الدولة . وتغلبوا على شئوننا . وهم جميعاً من الأدياء والعلماء والكتاب والشعراء وأهل الشورى وأعلام الحياة العقلية

ومن أشهر هؤلاء الوزراء الادباء والشعراء المجيدين، أبو الوليد احمد بن عبد الله بن احمد بن غالب بن زيدون الخزومي الاندلسي القرطبي ، أشهر من عرف في حلبة الأدياء ، وأظهرهم ميزة في فنون الكلام وأساليب الشعر والبيان، لأنه صورة من صور الأدب في الاندلس وصحيفة من صحف البلاغة هناك ، وثمرة من ثمار غرس العرب في بلاد المغرب

١ ليس لدينا عن ابن زيدون ما يدلنا على شيء من حياته المنزلية أو تربيته الاولى، أو ما يبيح لنا الحكم على نفسه وأصل تربيته العقلية أو حياته الفكرية ولم يزد ابن خلكان عن بضعة أسطر نقلها عن كتاب الذخيرة لابن بسام . حتى أنهم لم يذكروا عن أبيه أبي بكر بن زيدون شيئاً سوى أنه كان من وجوه الفقهاء بقرطبة . وقال ابن خلكان عن ابن بشكوال في كتابه (الصلة) انه أثنى عليه وكان يكنى أبا بكر وتوفي سنة ٤٠٥ هـ ودفن في قرطبة . وكل ما ذكر من صفاته أنه كان يخضب بالسواد . وفي بعض كلام الشعراء الذين رثوه ما يدل على أنه كان من أهل الفضل .

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة في سنة ٣٩٤هـ وتوفي بأشبيلية سنة ٤٦٣هـ وهو ثالث ثلاثة تسموا بابن زيدون : أحدهم أبو بكر عبد الله بن أحمد بن غالب والده ، والثاني أبو بكر ابنه وكان وزيراً للمعتمد بن عباد ومات مقتولاً في آخر أيامه . وهم من أصل عربي كما أشرنا الى ذلك في كلامنا على القبائل التي نزلت الاندلس من العرب

كان أبوه قاضياً مشهوراً بين قضاة قرطبة ، وعالماً وأديباً . مات سنة ٤٠٥هـ فكان عمر ابنه اذ ذاك إحدى عشرة سنة . وكان أبو الوليد منذ حداثة ميالاً الى العلم والتعليم ، فاندفع يطلب لنفسه الكمال العقلي وكانت نشأته في قرطبة ساحة العلوم والآداب ، فانكب على الدرس والبحث ، وأخذ الأدب عن رجاله المعروفين . وكان له ميل شديد لعلوم العرب وفنون اللغة فحفظ منها شيئاً كثيراً ، كلوعى كثيراً من أخبار الأديباء والشعراء وأمثال العرب وحوادثها ومسائل اللغة ، حتى أصبح في مقدمة الشعراء والأديباء . واندمج في مجالس الأدب ، فصار علماً من أعلامها ودعامة من دعائمها . وكانت قرطبة لا تزال في أوج عزها على الرغم من أفول شمس بني أمية بها ، وأهلها في رخاء من العيش ، أكثرهم يميل الى العلم والأدب وبجالة الادباء . فملتأت المحافل والمجامع بضروب اللهو والطرب ، وكان لابن زيدون خفة روح ودعابة وميل الى المجون ، فساعده ذلك على أن يسبق غيره وأن ينال شهرة واسعة بين أترابه .

وكان للنساء أثر عظيم في هذه المجالس . فأتجه الناس الى الاندماج فيها واستعذبوا هذا المورد ، وانصرفوا هم الادباء الى التفوق في هذا الميدان فكان لذلك أثر عظيم في أخلاق الأديباء وصورة البلاغة من نظم ونثر . وكأنا ضاعت كل صبغة جدية في المجامع الأدبية فجزؤ الوزراء على المجاهرة بالمجون . وكان ابن زيدون أحد أبطال هؤلاء فنجذب اليه الانظار .

وكان لولادة بنت المستكفي الخليفة الاموى شهرة عظيمة في قرطبة لجالها وعلمها وأدبها. فوقع ابن زيدون في شركها ووقعت في شركه واشتمل كل منهما على صاحبه، حتى حسد عليها وحسدها الناس عليه. وكان من بين هؤلاء الحساد الوزير أبو عامر بن عبدوس وهو كبير الحول والطول، فتقرب الى ولادة حتى آماها اليه، واغتنبها من صديقتها، وكانت ولادة ملت صداقة ابن زيدون وانهمته بعدم الاخلاص لها، كما اتهمها بذلك أيضاً، فهبت عاصفة من الجفاء بينهما شتتت من شملهما وحالت بين قلوبهما. لذلك غلب ابن عبدوس ابن زيدون على أمره واستولى على قلب ولادة. ثم حدث ان رجعت الى ابن زيدون فكتب عن لسانها لابن عبدوس رسالته الشهيرة الهزلية. ثم استأثر بها ثانياً ابن عبدوس فكانت هذه الحال سبب اضطراب في حياة ابن زيدون العقلية والسياسية وهكذا كانت حال الوزراء وأرباب الدولة وعقول الادباء وأصحاب الاقلام والمفكرين. وهذه الحادثة من أكبر الحوادث في حياة ابن زيدون.

عاش ابن زيدون في بيئة كلها اضطراب ودسائس، وتربى ودرج في ذلك وتقلد الوزارة فيها، لأنه اشترك في حوادث الاضطراب التي كانت على أثر زوال دولة بني أمية، فكان من اشيع ابن جهور أحد ملوك الطوائف الذي ادعى لنفسه الملك في قرطبة بعد انحلال الدولة الأموية سنة ٢٣٣م وعملت منزلة ابن زيدون هناك فاتخذ ابن جهور وزيراً له فلك أزمة الامور، وكان أقرب الناس الى سيده الذي استعان به كثيراً في المسائل السياسية وتأمين الصلة بينه وبين الأمراء الآخرين لذلك نه ودعائه، فكانوا يحسدون ابن جهور على الاختصاص به. وحدثت حوادث أغرت عليه ضدور كثير من منافسيه وحاسديه على فضله ومنزله، فحملوا عليه عند ابن جهور حتى أمر بسجنه فسجنه طويلاً. فاستغفر واستعطف بما يلين من أجله

الحديد ، فلم يفلح في ارضاء الامير فعزم على اعمال الحيلة والهرب من السجن .
واختفى بقرطبة الى ان استشفع بابي الوليد بن جهور عند أبيه أبي الحزم
حتى شفّع له . وجعله أبو الوليد بعد موت أبيه من المقدمين في دولته . ولكن
ابن زيدون لم يأمن على نفسه من بقاءه في قرطبة . فهاجر الى اشبيلية سنة ٤٤١
ودخل في حاشية المعتضد بن عباد وصار وزيراً لابنه المعتضد وبقى هناك الى آخر عمره .
هذه حياته وأخلاقه وقد ذكرها في شعره ونثره ومنها يرى ان حركات
عقله كانت تقفو ذلك خطوة بخطوة . فكانت حياته العقلية نتيجة هذه
الحياة . لذلك يمكن أن تقسم آثاره الأدبية الى أقسام ثلاثة : عشقه لولاده وأثر
ذلك في نفسه وما كتبه في هذا . ثم مدحه لابن جهور وابن عباد . ثم أثر السجن
في حياته العقلية .

شعر ابن زيدون

كان لاخلق ابن زيدون والبيئة التي عاش فيها وميول الناس الى اللهو أثر عظيم في شعره . فقد كان للمجون مسحة خاصة في النظم والنثر ، فبرع ابن زيدون في الغزل ، وكثير من شعره في ذلك كان منبعثاً عن ثوران في نفسه وغليان في ميوله واهوائه ، أذكي ذلك كله حبه لولادة . فان عشقه هذا فتح له باباً واسعاً من الخيال قال فيه ماشاء وشاءت عواطفه أن توحى اليه . كذلك كانت آلامه وما لاقاه في السجن باعثاً من بواعث استنهاض ملكة الشعر فيه والهاماً من الهاماته الفنية .

وشى به أعداؤه وحاسدوه الى ابن جهور ، وكاد له منافسوه في حب ولادة حتى نالوا منه ، وشفوا غلتهم بحمل ابن جهور على سجنه بعد أن أحله منزلة الوزير يدبر ملكه ، وبعد أن ائتمنه وعرف له رأي السيد وبراعته في ادارة الأمور وسلمه زمام الدولة . ولم يكن لابن جهور أن يخطئ في نظره لما اشتهر به نفسه من سداد الرأي وصحته ، فاذا نال ابن زيدون مكانة في نفس ابن جهور فقد كان ذلك عن جدارة واستحقاق . ولكن أعداءه تمكنوا من ابن جهور فغضب عليه وأمر بسجنه ، فأثار هذا السجن من نفس ابن زيدون عاصفة فنية جديدة رقت من خياله الشعرى أثارتها آلامه فأخذ يئن أيننا جيلاً ويفتن في آلامه ووصفها والتعبير عنهما شعراً ومرة ثراً ... والفنى يمزج فنه دائماً بكل ما يرى ويسمع ويشعر . ولقد كانت نفس ابن زيدون من النفوس الدقيقة الادراك ، التي اذا أنت تنأى أبين الموسيقى ، واذا شكت تشكو شكاة القلوب المملوءة شعوراً

الواسعة التصور والادراك الدقيق الجليل، الذى يجعل الشكوى جميلة والكلام فيها جميلا .

كتب ابن زيدون من السجن الى صديقه أبى حفص .^١ من برد يشكو ويتن من بلواه، وهو ينهضه الأمل مرة ويقعده اليأس أخرى . ولا يترك شاردة تمر بخاطره الا أهدأ بها نفسه وتسلّى بها عن آلامه . يستسلم أحيانا الى القضاء فيشعر فى نفسه براحة واطمئنان، ويقلب أمامه صفحات الايام فلا يعجب من الحوادث التى ألمت به . ويرجع الى صديقه فيسليه هو بنفسه، ويسأله ألاّ يكف عن مجونه وتسلّيته، لان السعادة خلّسة . ثم يعود فيذكر اعداءه ويبلغهم منه ويبين ان ذلك ليس بالعجب لانه

ان قسا الدهر فللمساء من الصخر ابجاس

وبرى انه حسد لمكانته، ويمزج ذلك بالعبور والحكم والسخرية والتهمك من أحوال العالم وحوادث الحياة، ويرجع أبنه وألمه وحقده على الناس ولا سيما حاسديه، ويضرب المثل كي يسكن من نفسه، وهو فى ذلك كعادته فى الشكوى: يهبط مرة الى الدرك الأسفل من اليأس، ويرتفع أخرى الى ذروة الرجاء، وكأنه فى شجار مستمر بينه وبين نفسه وشعوره . كل هذه المعانى فى أبيات قليلة بأسلوب جميل رقيق، يكاد يلوح الانسان فيها خاطره المضطرب المتماوج . حيث يقول:

ما على ظنّي باس^١ . يجرح الدهر^٢ . ويأسوا^٣

ربما أشرف بالمرء^٤ . على الآمال يأس^٥

ولقد ينجيك اغفا^٦ ل^٧ ويرديك^٨ احتراس^٩

والمحاذير سهام^{١٠} والمقادير قياس^{١١}

ولكم^{١٢} أجدي قعود^{١٣} ولكم^{١٤} أكدى التماس^{١٥}

وكذا الحكم اذا ما عز ناس ذل ناس

١ بداوى من آسى الجرح داواه ٢ قياس هنا جمع قوس ٣ اكدى بخل أو قل خيره

وبنو الأيام أخيا ف أسراة^٢ وحساس^٣
 تلبس الدنيا ولكن متعة ذلك اللباس^٤
 يا أبا حفص وما سا واك في فهم ايلس^٥
 من سنا رأيك لي في غسق الخطب اقتباس^٦
 وودادى لك نص لم يخالفه القياس^٧
 أنا حيران وللأم سر وضوح والتباس^٨
 لا يكن عهدك ورداً ان عهدى لك آس^٩
 وأدر ذكرى كأسا ما امتطت كفك كأس^{١٠}
 فعسى أن يسمح الدهر سر وقد طال الشماس^{١١}
 واغتم صفو الليالى انما العيش اختلاس^{١٢}
 ما ترى في معشر حا لوا عن العهد وخاسوا^{١٣}
 أذوب هامت بلحمى فاتهب وانتهاس^{١٤}
 كلهم يسأل عن حا لي ولذئب اعتناس^{١٥}
 ان قسا الدهر فلما من الصخر انبجاس^{١٦}
 ولئن أمسيت محبوسا فلغيت احباس^{١٧}
 ويقت المسك في التر ب فيوطى ويداس^{١٨}

هذه نفحات القلوب ، وهذا هو الشعر الذى يستولى على النفس ويلهمها
 الحكمة والعبرة ، وهذا هو جمال القول . ليس ذلك لأنه مطرب مرقص بوزنه
 وقافيته . بل لأنه ساحر بمعانيه وجماله . كل معنى فيه تحتاج اليه النفس

١ مختلفون ٢ أشراف ٣ أدنياء ٤ العصيان ٥ غدروا ٦ مثل الانتهاش وهو الاكل
 بمقدم الاسنان ٧ تجسس

في مثل هذه المواقف . ولقد كانت هذه المعاني سائغة للنفس لأن الشاعر صادق في قوله ،
 معبر عن شعوره يرسم صورة من نفسه الحزينة المتألمة . لهذا كان الشعر جميلاً .
 وقد بدأ قصيدة من قصائده في هذا بالفخر بنفسه ، وأمعن في ذلك ، وكأنما كان
 يبكي حظه ويندبه بهذا الأسلوب الفخري . أو كأنما كل معنى من هذه المعاني كانت ،
 تهدأ خاطره وتريح نفسه . فلما مدح ابن جهور مدحه في قالب استعطاف ،
 وتوسط بين المدح والعتب الجدى . وقد ظهر بنفسه كبيرة وأنف أشم
 حتى أنه مدح نفسه أكثر من ابن جهور ، فكان عاتباً أشد منه مادحاً ، لانه
 كثيراً ما كان في مثل هذا الموقف لا ينسى الفخر بنفسه ، ولا يريد أن يعل
 عليها ولو همساً انه في موقف مذلة . وكأنه كان يتسلى بهذا ، لانه يرى أن أعداؤه
 لم ينالوا منه الا لأنه فاقهم بعلمه وفضله . حتى انه قال متهمكاً .

ولو أنى أسطيع كي أرضى العدا شريت ببعض العلم حظاً من الجهل
 فقال:

ألم يأن أن يبك الغمام على مثلى	ويطلب ثأرى البرق منصلت النصل
وهلا أقامت أنجم الليل مائماً	لتندب في الآفاق ماضع من نبلى
فلو أنصفتنى وهى أشكال همتى	لألقت بأيدي الذل لما رأت ذلى
لعمرو الليلالى ان يكس طال عمرها	لقد قرطست بالنبل في مقتل النبل ^١
تحلت بآدابى وان مآربى	لسارحة في عرض امنية عطل ^٢
اخص لفهمى بالقللى وكأنما	يبيت لذى الفهم الزمان على ذحل ^٣
وأجنى على نظى لكل قلادة	مفصلة السططين بالمنطق الفصل

١ النبل بفتح النون السهم وبضمها الشرف ٢ لا فائدة فيها من عطلت المرأة اذا خلا
 حدها من القلائد ٣ الذحل المحقد

ولو أننى أستطيع كي أَرْضَى العدا شريت ببعض العلم حظاً من الجمل
وان رجائى فى الأمام ابن جهور لمستحكم الاسباب مستحصد القتل
كربم عريق فى الكرام وقلما يرى الفرع الاستمداد من الأصل
يرف على التأميل لألاً بشره كما رف لألاً الحسام على الصقل
ويغنى عن المدح اكتفاء بسروه غنى المقلة الحكلاء عن زينة الكحل
أبا الحزم انى فى عتابك مائل الى جانب تأوى اليه الملا سهل
حامى شكوى صبحتك هوادلا تناديك من أفنان آدابى الهدل
وكل قصائده التى أرسلها يستعطف بها ابن جهور هى أثر ذلك الشقاء الذى لقيه
فى سجنه ، وصورة من صور البؤس الذى حرك شعوره وفتق من لسانه ، وأثار
فى نفسه عواطفه الشعرية المظلمة المملوءة همماً وغماً .

ولكن أسلوبه فى الشكوى والاستعطاف واحد فى نظمه ونثره . وما أشبه قصائده
فى ذلك وما فيها من المعانى برسالته الجدية . وكأنما كان فكره سجيناً مثله من شدة
تألمه فى السجن ، فانه لم يخرج عن عادته فى ضرب الأمثال والمعجز بنفسه ، وانه
أفضل انسان وأكرم من دب على وجه الارض .

غير أن كلامه مع ذلك عذب المذاق ، رقيق الحاشية ، جذاب خلاص ، تظهر
عليه سيما الابتكار والصدق فى التعبير ، فانه ليس من الخيالات الشعرية الصرفة
بل به كثير من الحقائق التى كان يملها عليه شعوره كما قال :
ماجال بعدك لظى فى سنا القمر الا ذكرك ذكر العين بالأثر
ولا استطلت ذمأ^٢ الليل من أسف الا على ليلة سرت مع القصر
الى أن قال :

١ رفته وعلو شأنه ٢ الذماء بقية الروح يريد مابقى من الليل

فهمت معنى الهوى من وحى طرفك لى ان الحوار لمفهوم من الحدود
 كم يسأل الناس عن حال يشاهدها محض العيان الذى يغنى عن الخبر
 لم تطو يرد شبابى كبرة وأرى برق المشيب اعتلى فى عارض الشعر
 قبل الثلاثين اذ عهد الصبا كُتِبَ^١ وللشبيبة غصن غير مهتصر
 يا للرزايا لقد شافته منهلها غمرًا^٢ فما اشرب المكروه بالغمير^٣
 لا يُهنئ الشامت المرتاح خاطره أى معنى الأمانى ضايح الخطر
 هل الرياح بنجم الأرض عاصفة أم الكسوف لغير الشمس والقمر
 ان طال فى السجن الداعى فلا عجب قد يودع الجفن حد الصارم الذكر^٤
 وان يثبط أبا الحزم الرضى قدر عن كشف ضرى فلا عتب على القدر
 من لم أزل من تأليه على ثقة ولم أبت من تجنبه على حذر

وكتب الى أحد أصدقائه وهو مخنف بقرطبة بعد قراره من السجن فقال
 «... وبلغنى أنك أحد اللائمين لى، ومن أمثالهم: ويل للشجي من الخلي^٥
 وهان على الأملس ملاقى الدبر^٦. وعلمت ان العاجز من لا يستبد، فالمرء يعجز
 لا محالة. ولم أستعجز أن أكون ثالث الأذلين، العير والوتد، وتذكرت أن
 الفرار من الظلم والحرب مما لا يطاق من سنن المرسلين، وقد قال تعالى على لسان
 موسى: ففررت منكم لما خفتكم. فنظرت فى مفارقة الوطن، فقد يما ضاع الفاضل
 فى وطنه، وكسد العلق^٧ فى معدنه. كما قال:

أضيع فى معشري وكم بلد يكون عود الكبراء^٨ من خطبه
 فاستخرت الله فى انفاذ العزم. وأنا الآن حيث أمنت بمض الأمن، الا ان

١ قريب ٢ الغمر الكثير ٣ الغمر قدح صغير يريد انه كثير البلوى ٤ سيف ذكر
 حاد ٥ الشجي المشغول ٦ مثل يضرب فى سوء اهتمام الرجل بشأن أخيه والدبر الذى فى
 ظهره قرحة والاملس صحيح الظهر ٧ العلق النفيس ٨ الكبراء العود المتبخرة

الغنى لم يرتفع، ومادة البنى لم تنقطع .

شحننا وما بالدار نأى ولا شحط
وشط بمن نهوى المزار وما شطوا
أحبابنا ألوت^١ بجادث عهدنا
حوادث لا عهد عليها ولا شرط
لعمركم ان الزمان الذى قضى
بشت جميع الشمل منا لمشتط
واما الكرى مذلم أزرکم فهاجر
زيارته غيب والمامه فرط
الى ان قال :

هرمت وما للشيب وخط بمفرق
ولكن لشيب الهم فى كبدي وخط
وطاول سوء الحال نفسى فاذا كرت
من الروضة الغناء طاولها القحط
وانى لراج أن تعود كبديها
لى الشيعة الزهراء والخلق السبط^١
وحلم امرى، تعفى الذنوب لعفوه
وتحمى الخطايا مثل ما يحى الخط
فمالك لا تختصني بشفاعه
يلوح على دهرى ليسمها علط^٢

الى آخر ما قال فى هذه القصيدة التى هى من أبدع قصائد الشكوى وأجمعها لذكر
الماضى والحاضر والاستغفار والاستعطاف، والسرور بذكر ما انقضى والبكاء
على الحاضر، وهى أيضاً أظهر فى لهجتها الجديدة من كثير من شعره . ولذلك
كانت أجف فى أسلوبها ومعانيها، ليس بها تلك الرقة المعهودة فى كلامه .
كل ذلك هاجه السجن وما تذوقه من الآلام، فرسه فى شعره . لأنه رجل
فنى عرف كيف يصور ما يشعر به ويعبر عما يجول بخاطرهِ .

ولقد يلاحظ الانسان أن آراء ابن زيدون آراء عامة ليست ناشئة عن تفكير

١ يريد الخلق الكريم يقال رجل سبط الدين كرمها وسبط الجسم حسن القدر فهو من
صفات المدح ٢ الميسم أثر الحسن والعلط سواد يزين به الوجه

طويل أو علم واسع . واتما هو خيالياً أكثر منه مفكراً ، وشاعراً أكثر منه عالماً .
وهذه كل حال شعره ونثره .

أما مدحه ورثاؤه فهما في الدرجة الأخيرة من شعره ، لانه على جمال أسلوبه
في ذلك ، وحسن تصرفه في المعاني ، لا يكاد يعثر الانسان فيه على مسمى جديد ولا رأى
خاص ، بل يكاد يكون كل ما جاء من المعاني من قبيل معارضة غيره من الشعراء
والاخذ بما يهيمهم مزوجاً ذلك بما له من البراعة والصناعة والافتنان .

ومن أجمل قصائده في ذلك كلامه في المعتضد بن عباد وابنه المعتمد^١
ومن أرق كلامه في الشكوى ، وأقرب عباراته وصولاً الى القلوب بكاؤه
على الماضي ، والتلذذ بذكره وما كان فيه من النعيم كقوله :

الهوى في طلوع تلك النجوم والمنى في هبوب ذاك النسيم
سراً عشنا الرقيق الحواشي لو يدوم السرور للمستديم
وطراً ما تقضى الى أن تقضى زمن ما زمامه بالذميم
أيها المؤذنى بظلم الليالى ليس يومى بواحد من ظلوم
ولقد كان ينظر الى أيامه الماضية فيحن اليها حنيناً مؤلماً ، فاذا قرأت
شعره في ذلك رأيت نفسك كأنك واقف على أطلال سعادته البالية ، فبكى
وبكى معه . كما قال :

ألا هل الى الزهراء أوبة نازح تقضت مبايها مدامعه نزحاً
مقاصير ملك أشرفت جنباتها نخلنا العشاء الجون^٣ أثناءها صبحاً
يمثل قرطيبها لى الوهم جهرة فقبتها فالكوكب الرحب فالسطحاً

١ راجع قصيدته التى يرثى بها المعتضد ويمدح المعتمد ابنه في نفع الطيب طبع أوروبا
ج ٢ صفحة ٦١٤ ٣ الجون يطلق على الأبيض والأسود والفرض منه الأسود

محل ارتياح يُذكر الخلد طيبه
 هناك الحمام الورق^١ تندی خفافها
 اذاعز أن يمسى الفتى فيه أو يضحا
 ظلال عهدة الدهر فيها قى سمحا
 نعوذت من شدة القيان^٢ خلاها
 صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا
 ومن حلى الكأس المندى مديرها
 تقحم أهوال حملت لها الرمحا

١ التي في لونها ياش ممزوج بسواد ٢ الجوارى

الغزل في شعر ابن زيدون

يتبين من أحوال الاجتماع في الأندلس ، وميول النفوس واختلاط النساء بالرجال ، واندماج كثير من الأديبات في مجالس اللهو والطرب ، ان المرأة شغلت جزءاً عظيماً من أوقات الرجال المفكرين ، وملأت رؤوسهم كما أن مجالس الشرب كان لها سلطان عظيم على نفوسهم . فكانت المرأة تحرك العواطف والشعور ، والخرير تدبر العقول وتملى عليها القول ، وتفتح أمامها طرق التصور والخيال . والمقول ثَمَلَةٌ بنشوة الغرام ، والرؤوس مُثْقَلَةٌ بحرارة المدام ، والناس لا يفوتهم الطرب ، ولا يريدون أن يتواروا عنه لمُلقته بنفوسهم ، حتى في أشد المحن . فقد رأينا ان ابن زيدون كتب وهو في سجنه لصديقه أبي حفص بن برد يقول :

وأدر ذكرى كاساً ما امتطت كفك كاسُ

واغتنم صفو الليالى انما العيش اختلاس

وقع ابن زيدون في شرك ولادة بنت المستكفي بالله ، وكانت خليعة ماجنة بارعة في الجلال أدبية شاعرة ، ذات مكانة رفيعة بين الأدباء « تناضل الشعراء وتساجل الأدباء ، وتفوق البرعاء... خرجت على نهاية في الأدب والظرف حضور شاهده ، وحرارة أو ابد ، وحسن منظر ومخير ، وحلاوة مورد ومصدر . وكان مجلسها بقرطبة منتدًى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعيش أهل الأدب الى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها وسهولة حجابها وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بملو نصاب وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ، على أنها أوجدت للقول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها... » وقالوا « انها

كانت بالمغرب كلية بالمشرق ، الا أن هذه تزيد بمزية الحسن الفائق . وأما الأدب والشعر والنادرة وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها . وكان لها صنعة في الغناء . وكان لها مجلس يشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها، فيمرّ فيه من النادر وانشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها وكانت من الأدب والطرف، وتمتيع السمع والطرف، بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب الى أخلاق الشباب « فنال ابن زيدون رضاها ، ووقع من نفسها كما وقعت هي من نفسه ، حتى كتبت اليه تضرب له موعداً فقالت :

ترقب اذا جن الظلام زيارتي فاني رأيت الليل أكنم للسر
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر
قال أبو الوليد : « فلما طوى النهار نوره ، ونشر الليل نيره أقبلت بقدر كالتضبيب ، وردف كالكتيب ، وقد أطبقت نرجس المقل ، على ورد الخجل . فلما الى روض مديح ، وظل سجسج ، قد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودر الطل منشور ، ورقيق الراح مزورور . فلما شبنا ناراها ، وأدركت منا نأرها ، صرح كل منا بحبه وشكا ما بقلبه ... وأنشدتها :

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد في تلك الخطي اذ شيعك
ياأخا البدر سناء وسنا حفظ الله زماتا أطلعك
ان يطل بعدك ليلى فلکم بت أشكو قصر الليل معك
وكتبت اليه بعد ذلك تقول :
الاهل لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل صب بما لقي
الى ان قالت .

تمر الليالى لا أرى البين ينقضى ولا الصبر من رِق التشوق معتقى
سقى الله أرضا قد غدت لك منزلا بكل سَكوب هاطل الوبل مغدق

لأنريد الآن أن نتكلم في العشق وأثره في النفس وما يوحيه من روائع القول وجمال الفكر حتى. عند عامة الناس ، فإن تاريخ الانسانية حافل بحوادثه . ولكننا نقول ان العشق في كلام العرب أو شعر الغزل كما يسمونه ، ليس من المسائل الهزلية . لأن الشعر الذي هو وحى النفوس وجمال الادراك الانساني ، أكثر ما يكون ظهوراً في التعبير عن الحب ، ووصف هذا الضعف الانساني الذي نسميه عشقاً ، . فان العشق ادراك أكبر مظاهر الجمال في الحياة . ومن لم يفتح قلبه يوماً ما ، لم يدرك أسرار الحياة ، ولم يرغب ظواهرها ولم يتسرب الى نفسه بصيص ضوء من جمال الكون . ان جمال مظاهر الحياة وأسرار النفوس في التألف ، وكثير من آمال الناس في تلك الصلة النفسية . والعشق وما فيه من سعادة وجمال سر كامن في الشعر ، لأنه مصدر الشعر الخيالي الجميل . لذلك كان أجمل الشعر ما يكشف عن سر من أسرار النفوس ، ويفتح القلوب . ويظهر مكنونات الانسان وأخلاقه وآلامه وآماله .

ان النساء منبع من منابع الشعر . والشعراء مدينون لمن بأفضل الصفات لديهم وهي وصف شعور الناس . والشاعر الذي يشعر بالحب لا يتكلم عن نفسه فحسب ، وإنما يجمع آلام العشاق وأينهم فيتألم ويئن معهم . وليس أعذب من هذه الآلام ولا أحب للنفس من سماع هذا الأنين. ان الشاعر يصوغ بكلماته اهتزازات القلوب ورنات ما يجول بها من المعاني ويدفعها الى النفوس فتصبو اليها ، ويدنهما بين العشاق فيرى كل قلبه وكأنه ينظر في مرآة يرى فيها صورته . وذلك لا يكون الا في الشعر.

فإذا اخطأ العرب في امعانهم في هذا النوع والاكثار منه، فقد أخطأوا من جهة واحدة: وهي تكرار المعاني وتقليد بعضهم بعضاً في ذلك ، وظنهم أن كل

قلب يحب بشكل واحد، وان صلة الحب بمظاهر الجسم قوية متينة ، وان المعاني محصورة في ذلك .

ولكن ابن زيدون ليس من هؤلاء المقلدين ، بل من الذين كانوا يجولون جولات واسعة في الخيال ، فكان فنياً مبدعاً . رأيت شعراء الغرب كيف يطنبون في وصف الأمكنة التي اجتمعوا فيها مع صديقاتهم ، وهم يتخذون ذلك وسيلة لأمرين : الأول احياء ذكرى تلك الأيام والأمكنة وما فيها ، اذ كل شيء هناك كان يشهد حبهم ويعطف على عشقهم ، وتلك الأمكنة جميلة لأنها احتوت عليهم ، والأضواء التي كانت تسطع عليهم والأشجار التي كانت تظللهم ، والكواكب التي كانت تتجسس أخبارهم ، جديرة بأن لا تنسى ، لأنها أثر من آثار العشق .

الثاني ان الشاعر الفنى يفر من التكرار ، ويعرف ان معاني العشق والحب سرعان ما تنفد ، فهو يتحارب على بث شيء من المعاني الأخرى التي لها صلة بذلك ، كي يتسنى له أن يجول في ميدان أوسع ليصل الى التعبير عن مراده ، أو يمنع العقول من أن يدركها الملل . فهو يستعين بذلك كما يستعين المصور الماهر بالألوان لظهار الصورة التي يريد أن يبرزها . كذلك كان ابن زيدون من هؤلاء الفنانين أو قريباً منهم . فقد التجأ الى مدينة الزهراء الجميلة في أيام الربيع ، يريد أن يسلي نفسه ويخفف عنها من أثر حبه ولادة ، فذكر في شعر أرسله اليها كل ما كان يحيط به اذ ذاك ، وأبدع أيما ابداع ، وافتن افئنانا عظيماً في ذلك . فقال :

انى ذكرتك بالزهراء مشتاقا	والأفق طلق ووجه الأرض قدراقا
وللنسيم اعتلال في أصائله	كأنما رَقَّ لي فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضى مبتسم	كما حَلَّتْ عن اللبات أطواقا
يوم كَأَيَّامِ لَدَاتِ لَنَا انصَرَمَتْ	بِتَنَّا لها حين نام الدهر سُرَّاقا
نلهوا بما يستميل العين من زهر	جال الندى فيه حتى مال أعناقا

كأن أعينه اذ عاينت أرقى بكت لما بى فجال الدمع رقرقاً
 ورد تألق في ضاحى منابته فازداد منه الضحى في العين اشراقاً
 سرى ينافحه تيلوفر عبق وسانن ثبة منه الصبح أحداقاً
 كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا اليك لم يعد عنها الصدر ان ضاقاً
 لو كان وفي المني في جمعنا بكم لكان من أكرم الأيام أخلاقاً
 لا أسكن الله قلبا عن ذكركم فلم يطر بجناح الشوق خفاقاً
 لو شاء حلي نسيم الريح حين هفا وأفاكم بفتى أضناه ملاقاً
 كان التجازى بمحض الود من زمن ميدان أنس جرينا فيه اطلاقاً
 فالآن أحمد ما كنا لعهدكم سلوتمو وبقينا نحن عشاقاً
 واذا كان لابن زيدون ميزة في شعره الغزلي فليس ذلك في ابتكار المعاني
 التي لم يسبق إليها ؛ وإنما هي في طريقة تصويرها بعبارات تملك النفوس وتستولى
 على القلوب . وكأن الانسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتنان
 في التعبير و الأسلوب . كما في قوله :

اليك من الأنام غدا ارتياحى وأنت من الزمان مدى اقتراحى
 وما اعترضت هموم النفس الا ومن ذكراك رينحاني وراحي
 فدينك ان صبرى عنك صبرى لدى عطش عن الماء القراح
 ولى أمل لو الواشون كفوا لأطلع غرسه ثمر النجاح
 وأعجب كيف يغلبني عدو رضاك عليه من أمضى سلاحى
 ولما أن جلتك لى اختلاسا أكف الدهر للحين المتاح
 رأيت الشمس تطلع في نقاب وغصن البان يرفل في وشاح
 فلو أسطيع طرت اليك شوقا وكيف يطير مقصوص الجناح

وحسبى أن تطالملك الأمانى بأفقك فى مساء أو صباح
فؤادى من أسى بك غير خال وقلبي من هوى لك غير صاح
وان تهدى السلام الى شوقا ولو فى بعض أنفاس الرياح
ولقد يسمع الانسان أئينه فى شعره ، ويرى نفسه الحزينة من خلال كلامه ،
وكأنه يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسى للذين يملآن نفوس العشاق ويمنعان
عنهم راحة الحياة ولذاتها على أنه يلتذ لذكر محبوبته وتذوق الآلام فى سبيلها .
فيقول :

متى أنيبك ما يى ياراحتى وعذابى
متى ينوب لسانى فى شرحه عن كتابى
الله يعلم أنى أصبحت فيك لما يى
فلا يلد منامى ولا يسوغ شرابى
يافتنبة المتعزى وحجة المتصاى
الشمس أنت توارت عن ناظرى بالحجاب
ما البدر شف سناه على رقيق السحاب
الا كوجهك لما أضاء تحت النقاب

ولقد بلغ درجة من التعبير يحمل بها القارئ على الاعتقاد بأنه مخلص كل
الاخلاص فى حبه ، وأن حبه هذا هو كل أمنيته . وأنه يرى فى سبيل العشق ما
لا يراه غيره ، ويهون عليه كل شيء فى سبيل ارضاء حبيبه حتى حياته . وهو
نفور بهذا كما قال :

أننى تضيع عهدك أم كيف تخلف وعداك
وقد رأيتك الامانى رضى فلم تتعدك

يأليت شعري وعندي ما ليس في الحب عندك
هل طال ليلك بعدي كطول ليلي بعدك
سكني حياي أهبها فلست أملك ردك
الدهر عبيد لَمَّا أصبحت في الحب عبدك

على أننا لا نبرئ ابن زيدون من التصنع أحيانا فيما يقول لأنه كان كغيره
من الشعراء يعبر عن غير شعور، فان تمكنه من الصناعة كان يفتق لسانه بقول
الشعر . كما قالوا ان السلطان أمره ان يعارض قطعاً كان يغني بها ، واستحسن
أحباها ، فانشأ أبياتاً كأنها صادرة من عاشق متيم، وضمنها مدح السلطان . فقال :

يقصّر قربك ليلى الطويلا ويشفى وصالك قلبي البليلا
وان عصفت منك ريح الصدود فقدت نسيم الحياة البليلا
كما أننى ان أطلت العثار ولم يبد عذرى وجهاً جميلا
وجدت أبا القاسم الظافر الـ مؤيد بالله مولى مقبلا
لا قلامه فعل أسيافه يظل الصرير يبارى الصليلا

وفى بعض كلامه ، ما يدل على أنه كان يتصيد الالفاظ والمعاني التي قبلت في
العشق ، فينظمها ويلبسها ثوبا جديدا وكأنها له ، وقد برع براعة عظيمة في ذلك
كما قال :

يا غزالا أصارني موثقا في يد المحن
إني منذ هجرتني لم أذق لذة الوسن
ليت حظي اشارة منك أو لحظة تعين
شافعي يامعذبي في الهوى وجهك الحسن
كنت خلوا من الهوى وأنا اليوم مرتين
كان سرى مكثا وهو الآن قد علن

ليس لى عنك مذهب فكاشئت لى فكن
وهو فى كل كلامه مبدع مجيد متفوق على غيره ، خفيف الروح عذب
الالفاظ سهل الأسلوب .
أما نويته التى أرسل بها الى ولادة وبها كثيراً من شعوره وآرائه المختلفة.
فهى على شهرتها وجمالها ككل شعره ولذلك لم نذكرها

نثر ابن زيدون

اشتهر ابن زيدون برساليه الجدية والهزلية . أما الأولى فهي التي كتبها في سجنه يستعطف بها ابن جهور ، وأما الرسالة الهزلية فكتبها على لسان ولادة يتهم على ابن عبدوس وينال منه لمشاركته في غرامه .

اشتهر ابن زيدون بهاتين الرسالتين لجودة أسلوبهما النادر المثال، ولاحتوائهما على كثير من الاسماء التاريخية والأمثال العربية، واقتباس أبيات من الشعر معروفة وقعت في صوغ الكلام وكأنها عملت من أجله، أو قيست على سمته . وليس من السهل معرفة الاقتباس وأمكنته ، ولا من الهين أن يخوض الانسان غمار الأدب الواسع ويسهل عليه الاختيار منه ، ويحفظ نفسه من الضلال في نواحيه ويميز بين الجيد وغيره، ويختار ما يناسب المقام ، ويكون ذلك مقبولا لدى النفس ثم يصوغ ذلك كله في قالب واحد ويضم بعض أجزائه الى بعضها ويمخضه كما يمحض الزبد فلا يتنافر منه جزء مع آخر .

ان الكلام على هذا النحو لأصعب من الابتكار في التأليف المبتدأ ، وكلما قرب الى القارئ الاسلوب وصعب عليه معرفة تأليفه ، شعر بسعة اطلاع الكاتب ، وأعجب به وكبرت في نفسه منزلته . وكلما فاجأه اسم لم يكن يخطر له ببال ، أو رأى كان بعيداً عن ذهنه ، أو تلميح الى قصة لا يظن أن تذكر في مثل هذا الكلام ، أو عبارة تحرك من نفسه حب الاستطلاع ، أو مثل " اتعظ به ، أو ذكر رجل شهير يمجده ، أو نكتة تسر بها نفسه ، أو مسألة فنية يرتاح لها ويلتذ بذكرها ، زاد أعجابه بالكاتب وما كتب ، ورأى أن كل انسان

غير قادر على ذلك ، وان هذه صفة يمتاز بها الكاتب عن سواه . كل ذلك في نثر ابن زيدون رهو من دواعي الإعجاب بأسلوبه في رسائله . فقد عرف كيف يأتي في كتاباته بالتناسق في المعاني والألفاظ ، بل عرف أن يأتي بهذا التناسق في التأليف والجمع وكيف يتصيد كلام غيره ويرصفه رصفا جميلا ، كما أمكنه أن يرسم لنفسه منهجا جمع فيه كل معلوماته ، واختار منها ما يناسب حاجته وموضوعه ، فكانت رسائله أنيقة جميلة ، وكان كالمهندس الماهر الذي يعرف كيف يجمع بين الحجر والحجر ، والمصور الفنان الذي يؤلف بين اللون واللون .

ولقد حاول ابن زيدون في رسالتيه الوصول الى غرضه ، فلم يدع وسيلة ما يحسم بها المعنى في نفس القارئ لتنهال عليه المعاني ويكون غرضه أوضح ، ورأيه أظهر ، الا فعلها . فكل ما ذكره من الأمثلة المقتبسة والمعاني المختارة قصد به توضيح ما يريد .

ففي رسالته الجدلية أراد أن يستعطف ابن جهور ، ويبرئ نفسه مما اتهم به وينكل بأعدائه . فبدأ رسالته بالاستعطاف وهو يستدل نفسه تارة ، ويمدح ابن جهور ويظهر اخلاصه له ويتعلق اليه أخرى . ويعتذر عنه فيما وقع منه في حقه ، ثم يبين له شدة ألمه من شناعة أعدائه فقال :

« يا مولاي وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، وامتمادى منه ، ومن أبقاه الله ماضى حد العزم ، وارى زند الأمل ، ثابت عهد النعمة . ان سلبتني أعزك الله لباس نعمائك ، وعطلتني من حلي ايناسك ، وأظلماتني الى برود اسعافك ، ونفضت بي كف حياطتك ، وغضضت عنى طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى الى تأميلي لك ، وسمع الأصم ثنائى عليك ، وأحس الجمد باستحمامى اليك ، فلا غرو قد يَفْص الماء شاربهُ ، ويقتل الدواء المستشفي به ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منية المتمنى في أمنيته ، والحين قد يسبق جهد الحريص .

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهون غير شامة الاعداء
وأنى لأتجلد ، وأرى للشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعض . فأقول: هل أنا
الايذ أدمها سوارها ، وجبين عضّ به اكليله ، ومشرقي ألقه بالارض
صاقله، وسمهرى عرضه على النار منقفه ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذى يقول
قسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم»

ثم أخذ يتعلل بالآمال ، ويضرب فى ذلك الأمثال ، ليسلى نفسه ويهدئ
منها بعبارات شعرية يريد أن يؤثر بها فى نفس المرجو ، ويحمده على كل شيء ،
كإيحاء الله على السراء والضراء . فقال:

«هذا العتب محمود عواقبه، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي ، وهذه النكبة سحابة
صيف عن قليل تقشع . ولن يرينى من سيدى أن أبطأ سنيته ، أو تأخر غير
ضنين غناؤه، فابطأ الدلاء فيضا أملؤها وأثقل السحائب مشيا أحفلها، وأنفع الحيا
ماصادف جدبا ، وأذ الشراب ماأصاب غليلا، ومع اليوم غد، ولكل أجل كتاب.
له الحمد على اهتباله، ولا عتب عليه فى اغتفاله

فان يكن الفعل الذى ساء واحدا فأفعاله اللاتى سررن ألوف»

ثم وقف موقف المذلة وكانما يسمع الانسان بكاءه فى كلامه ، واستصغر ذنبه
فى ساحة عفو سيده ، وفى جوار ما ارتكبه غيره من الذنوب الكبيرة ، فقال :

«وأعود فأقول: ما هذا الذنب الذى لم يسمعه عفوك؟ والجهل الذى لم يأت من
ورائه حاكم؟ والتطاؤل الذى لم يستغفره تطولك؟ والتحامل الذى لم يف به
احتمالك . ولا أخلو أن أكون بريئا فأين العدل؟ أو مسيئا فأين الفضل؟
الا يكن ذنب فعد لك واسع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع

فهبني مسيئاً كالذى قلتَ طالباً قصاصاً فأين الأخذ يا عز بالفضل
حنائيك . قد بلغ السيل الزبى ، ونالنى ما حسبى به وكفى ، وما أراى الا لوأمرت
بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت ، وقال لى نوح اركب معنا ، فقلت سآوى الى
جبل يعصنى من الماء ، وأمرتُ ببناء صرح لعل اطلع الى إله موسى ، وعكفت على
العجل ، واعتديت فى السبت ، وتعاطيت فمقرت ، وشربت من النهر الذى
ابتلى به جيوش طالوت»

والمعجب فى ذلك من حضور ذهنه وحدته مما يدل على تيقظه .
الشديد . ثم أخذ بعد ذلك يرى نفسه ، ويعجب من سيده الذى يصنى
الى أعدائه ، على ما كان له من المنزلة التى لم تدفع عنه ذلك ، وأخذ يلوم ابن
جهور لوما لا يظهر الا من خلال عباراته ، لشدة تمكنه من تصرف
الكلام واحتراسه فيما يقول :

« فكيف ولا ذنب الا نعمة أهداها كاشحٌ ، وبأ جاء به فاسق ، وهم الهمّازون
المشاءون بنميم ، والواشون الذين لا يلبثون أن يصدعوا العصا ، والغواة الذين
لا يتركون أديماً صحيحاً

والله ما غششتك بعد النصيحة ، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية اليك ، ولا
ناصبت لك بعد التشيع فيك ، ولا أزمعت ياساً منك ، مع ضمان تكفلت به الثقة
عنك ، وعهد أخذه حسن الظن عليك . فقيم عبث الجفاء بأذمتى ، وعاث العقوق
فى موائى وتمكن الضياع من وسائلى ؟ ولم ضاقت مذاهبى وأكثدت مطالبى ؟ وعلام
رضيت من المركب بالتعليق بل من الغنيمة بالاياب ؟ وأتئى غلبنى المغلب وفجر على
العاجز الضعيف ، ولطمتنى غير ذات سوار ؟ ومالك لم تمنع منى قبل ان افترس

وتدركنى ولما أمزق، أم كيف لا تتضرم جوامح الكفاء حسدا الى على الخصوص
بك ، وتتقطع أنفاس النظراء منافسة فى الكرامة عليك ؟ »

ثم ذكره باخلاصه له ، ومدحه اياه ، وأخذ يرجع الى استعطافه ويعلقه
فقال :

« وقد زاننى رسم خدمتك ، وزهانى اسم نعمتك ، وأبليت البلاء الجليل فى
سماطك ، وقمت المقام المحمود فى بساطك

ألست الموالى فىك غرق قصائد هى الأنجم اقتادت مع الليل أنجما
ثناء يُظنّ الزوض منه منورا ضحى ويخال الوشى فيه مُنمّنا
وهل لبس الصباح الا بُرداً طرزته بفضائك؟ وتقلدت الجوزاء الا عقداً فصلته
بما ترك؟ واستلمى الربيع الا ثناء ملائته فى محاسنك؟ وبث المسك الاحديثاً أذعته
فى محامدك؟ ما يوم حليلة بسر. وان كنت لم أكسك سليبا، ولا حلتيك عطلا،
ولا وسئتك غفلا. بل وجدت أجراً وجصاً فبنيت، ومكان القول ذا سعة فقلت .
حاشاك أن أعد من العاملة الناصبة ، وأكون كالذبالة المنصوبة تضى للناس
وهى تحترق ، فلك المثل الأعلى وهو بى وبك أولى . »

ثم جاءت به عزّة نفسه فانتقل نقلة أخرى ، فبين له أن مثله لا يصبر على الهوان
وأنه يستطيع فراقه وهجر بلده الى مكان آخر ، ويخاطر فى هجرته هذه بما عسى
أن يلاقى من الآلام مستأنساً بأدبه وفضله . فقال :

« ولعمرك ما جهلت أن صريح الرأى أن أتحوّل اذا بلغتنى الشمس ونبأى
المنزل، وأصفح عن المطامع التى تُقطع أعناق الرجال، فلا استوطى العجز، ولا أطمئن

الى الغرور . ومن الامثال المضروبة خامرى أمّ عامر . وانى مع المعرفة بأن الجلا
سباً ، والنقلة مثلة

ومن ينترب عن قومه لم يزل يرى مصارع مظلوم تجرّاً ومسحبا
وتدفن منه الصالحات وان يسيء يكن مأساء النار من رأس كبكباً

عارف أن الأدب الوطن لا يخشى فراقه ، والخليط لا يتوقع زياته ، والنسيب
لا يخفى ، والجمال لا يخفى . ثم ما قران السعد للكواكب أبهى أثراً ، ولا أسنى خطراً
من اقتران غنى النفس به ، وانتظامها نسقاً معه ، فان الحائز لها ، الضارب بسهم فيهما ،
وقليل ما هم ، أينا توجه ورد منهل بر ، وحط في جانب قبول ، وضوحك قبل انزال
رحله ، وأعطى حكم الصبي على أهله
وقيل له أهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا مبيت صالح ومقيل

وكأنه شعر بأن هذا يدعو ابن جهور الى أن ينسى استعطافه لما يظن في
هذا الكلام من عجب ابن زيدون بنفسه . فأخذ يلفظ من حديثه ، ويسكن من
هياجه ، ويظهر تمسكه بجوار سيده لأنه أفضل شيء لديه في الحياة . فقال :
غير أن الوطن محبوب ، والمنشأ مألوف ، واللبيب يحن الى وطنه ، حنين
النجيب الى عطنه ، والكريم لا يجفو أرضاً فيها قوابله ، ولا ينسى بلدة فيها مراضعه ،
قال الاول :

أحب بلاد الله ما بين منيع الى وسلمى أن يصوب سحابها
بلادها حل الشباب تمانى وأول أرض مس جلدى تراها
هذا الى مغالاتى بعقد جوارك ، ومنافستى بلحظة من قربك ، واعتقادى
أن الطمع في غيرك طبع ، والغنى ممن سواك عنا ، والبذل منك أعور ، والموض
لقاء ، وكل الصيد في جوف الفرا

وإذا نظرت الى أميري زادني ضنا به نظرى الى الامراء »

ثم أخذ يقوى أمله في اجابة طلبه، ويضرب الامثال في ذلك، ويمدح في جوار سيده بقوله :

« أعينك ونفسى من أن أشيم خلِّباً وأستمطر جَهماً ، وأكرم غير مكرم ، وأشكو شكوى الجريح الى العقبان والرخم ، فما أبَسْتُ لك الالندر ، وحركت لك الحوار الالحن ، ونهبتك الا لأنا ، وسريت لك الا لأحمد السرى لديك ، وانك ان سنيت عقد امرى تيسر ، ومتى أعذرت في فك أسرى لم يتعذر ، وعلمك محيط بأن المعروف ثمة النعمة ، والشفاعة زكاء المروءة ، وفضل الجاه يعود صدقة وإذا امرؤ أهدى اليك صنعة من جاهه فكأنها من ماله »

هذا أكثر ما في هذه الرسالة الجدية . وأعظم ما فيها تأليفها الذى يرى من خلاله تلك النفس الحائرة المضطربة ، التى تهيج مرة وتسكن أخرى ، وتجد أحيانا ثم ترجع وتلين ، وكأنما الكاتب فى نزاع مستمر بين نفسه وأهوائه ، أو كأنه هو ونفسه قرنان : يشدد كل منهما عند ما يخاف قوة صاحبه

هذه صورة نفس ابن زيدون يراها القارئ اذا وقف على كشب ونظر الى حركات نفسه وهو يكتب أو يفكر فى هذه الرسالة . يرى نفسه الأبية وهو يفخر بها ويظن أنه من أهل الفضل ، ويرى نفسه المتهكة ، وهو يحسب ويعد الذنوب الكبيرة التى تستحق مثل عقوبته ، لا يريد أن يقول هذا ظلم ، ولكن يريد أن يقول هذا حق وخرق فى رأى . ويرى نفسه الكثيبة التى أخذتها الأكار فذلت وأخذت تستعطف وتستشفع وتتملق . يرى الانسان كل ذلك فى هذه الرسالة . ومن هنا جمالها وابداعها . لا ما بها من الاسلوب البليغ أو العبارات المختارة لا غير ،

أما رسالته الثانية التي كتبها لابن عبدوس عن لسان ولادة . فقد دل فيها على اطلاع واسع بالأمثال والأخبار ، وعلى باع أوسع في الهجاء . لأنه أقذع في ذم ابن عبدوس اقداعا ، وتهكم به تهكما لامثيل له ، حتى انه ليسخيل الى الانسان أنه جمع كل ما يمكن أن يقال في الذم والتهكم وأفرغه على ابن عبدوس واستعمل أسلوبا جريلا خلايا يدل على تمكنه من التصرف في الكلام ومعرفة امتلاكه عقول القراء ، لأن هذه الرسالة على طولها وكثرة الاقتباس فيها ، الذي يستغرق أربعة أخماسها أو أكثر ، وعلى ما فيها من الأمثال المعروفة والايات المشهورة ، والاطناب في ذكر الاسماء التي يكفي منها القليل ، ليس فيها ما يدعو الى الملل ، ولا ما يشعر بالاستهجان والابتذال . على أن بها شيئا كثيرا من تلك العيوب ، فقد ذكر أكثر من خمسين اسما لمشهورى الرجال ، سردها سردا ، وكان يكفي عشرها ، وأكثر أيضا من صفات الذم مما كاد يكون ثرثرة ولغوا . ولكنه ستر كل ذلك ببراعته في الصناعة . وليس أدل على جفاء الطبع وغلظه من هذه الرسالة . فقد ابتدأها بسفاهة نادرة ولكنها سفاهة أدبية فنية فقال :

«أما بعد أيها المصاب بعقله . المورط بجهله . البين سقطه . الفاحش غلطه العائر في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره . الساقط سقوط الدباب على الشراب . المتهافت تهافت الفراش على الشهاب . فان العجب أ كذب . ومعرفة المرء نفسه أصوب . وانك راسلتني مستهديا من صلتى ماصفرت منه أيدي أمثالك . متصديا من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك . مرسلا خليلتك مرتادة ، مستعملا عشيقتك قوادة . كاذبا نفسك انك ستنزل عنها الى . وتختلف بعدها على

ولست بأول ذى همة دعت لما ليس بالنائل
ولاشك أنها قلتك اذا لم تضن بك . وملتلك اذا لم تعز عليك . فانها أعذرت

في السفارة لك . وما قصرت في النيابة عنك . زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه .
والانسانية اسم أنت جسمه وهيولاه . حتى خيلت أن يوسف عليه السلام
حاسنك ففضضت منه . وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه . وأن قارون أصاب
بعض ما كنزت . وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك»

وسار على هذا النحو وأكثر من ذكر هذه الاسماء . ثم أقذع في الدم وأفحش
في صفاته فقال :

« وهبالم تلاحظك بعين كليله عن عيوبك ملؤها حبيبها حسن فيها من تود .
وكانت انما حلتك بجلاك ، ووستك بسيمك . ولم تعرك شهادة ... ولم تكن كاذبة فيما
أثنت به عليك ، فالعبدى تسمع به خير من أن تراه . هجين القذال ، أرعن السبال .
طويل العنق والعلاوة . مفرط الحق والغباوة . جاف الطبع . سيء الجابة والسمع .
بغيض الهيئة . سخيذ الذهاب والجينة . ظاهر الوسواس . منتن الأنفاس .
كثير المعاييب . مشهور المثالب . كلامك نممة . وحديثك غممة . وبيانك فقهة .
وضحكك قهقهة . ومشيك هرولة ، وغناك مسألة . ودينك زبدقة . وعلمك مخزقة
مسار لو قسمن على الغواني لما أمهرن الا بالطلاق »

واستمر على هذا النحو الى آخر الرسالة يضرب الأمثال للاستهزاء
والتهكم . ولقد كشف ابن زيدون في هذه الرسالة عن نفس حقودة محبة للانتقام
وانه شديد الحفيظة ، ودل على غلظة في طبعه ، وخشونة في أخلاقه . مع ذلك
فهي رسالة تمتاز بأسلوبها . وتناسق عباراتها . ولعل ابن زيدون أخذ هذا
الاسلوب عن الجاحظ في بعض رسائله ، كما في رسالة التبريع والتدوير

احمد ابن عبد ربه^(١)

عاش ابن عبد ربه في أيام نضارة دولة بني أمية في الأندلس ، زمن عبد الرحمن الناصر ، وكان أكرم الناس لديه ولدى وليّ عهده الحكم ، واشتهر ذكره بما كان له من العلم والفضل . تعلم في قرطبة قاعدة العلوم اذ ذاك . ودرس جميع الفنون العربية ، ولا سيما علوم الأدب ، حتى أصبح اماما فيها ، وكان محبا للاطلاع فصار أعلم أهل زمانه ، وأكثرهم معرفة بآداب العرب ولا سيما التاريخ والنوادر والملح . وكان في أول أمره ككل الادباء والظرفاء الذين يميلون الى اللهو فكان كثير من شعره في صباه شعراً رقيقاً غزلياً^٢ وقد رجع عن لهوه في شيخوخته وتاب عما فعله في أيامه الماضية . وقالوا انه عمل على أعاريض شعره الذي قاله في صباه أشعارا في الزهد وسماها الممحصات

١ هو احمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب كان جده من موالى هشام بن عبد الرحمن الداخل ثاني خلفاء بني أمية بالأندلس . ولد في سنة ٢٤٦ هـ وتوفي سنة ٣٢٨ هـ ودفن بقرطبة بعد أن عاش ٨٢ سنة . ذكره ابن خلكان في الجزء الاول . وياقوت الحموي في كتابه معجم الادباء في الجزء الثاني ، والضي في كتابه بنية الملثس صفحة ١٣٧ . وذكر في عدة مواضع من نفع الطيب ولا سيما في الجزء الثاني ، وفي الجزء الاول من يتيمة الدهر طائفة من شعره ٢ شهد له المتلبي بهذا . روي في ذلك وذكره صاحب نفع الطيب في الجزء الثاني وياقوت في كتابه معجم الادباء جزء ثاني انه اجتمع مع أبي الطيب في مسجد عمرو بن العاص أحد الادباء ففاوضه قليلا ثم قال له أنشدني للمليح الأندلس يعني ابن عبد ربه فأنشدته :

ياؤواؤا يسى العقول أنيقا ورشا بتعذيب القلوب رقيقا
ماأن رأيت ولا سمعت بمثله دارا يمود من الحياء عقيقا
واذا نظرت الى محاسن وجهه أبصرت وجهك في سناء غريقا
يا من تقطع خصره من رقعة ما بال قلبك لا يكون رقيقا
فلما أكل انشادها استمادها ثم صفق يديه وقال : يا ابن عبد ربه لقد تأتيتك العراق حبوا .

وقال عنه صاحب اليتيمة: «أحد محاسن الأندلس علماً وأدباً ونبلاً . وشعره في غاية الجزالة والحلاوة ، وعليه رونق البلاغة والطلاوة » وأورد له طائفة من شعره .
والحق ان مقطوعاته الشعرية في الغزل والوصف من أرق الشعر المعروف في ذلك وأحسنه . وأجمل شعره في هذا النوع ، وكل هذا من قبيل الصناعة وحب الكلام الجميل لأنه كان من الذين يميلون الى قول الشعر ونظم الكلام ، لا ممن خلقوا شعراء ، بل هو أديباً أكثر منه شاعراً . وإنما جاءه الشعر من كثرة حفظه وإطلاعه وأمثالته بأقوال الشعراء . وكان بطبيعته ميالاً الى الرقة ، فأنحدر الى قول الشعر الرقيق ، وأغرب بعض الاغراب فيه ككثير ممن يسميهم الأدباء شعراء . فهو رقيق الذوق حسن الديباجة

وكثير من كلامه أبيات قليلة تدل على انه كان شغوفا بقول الشعر ولكنه شغف فني . حتى لقد يقول البيتين أو الثلاثة فيعرف كيف يختار الالفاظ والمعاني المرقصة ، وكأنما يشرب الانسان خمرًا لا يقرأ شعراً . أو كأنما انفتح أمامك منظر جميل ، أو لحظة من لحظات الحياة اللذيذة . أو كأن الكأس ومافيه والحبيب وجماله كل شيء في الحياة . كما قال :

اشرب على المنظر الأنيق وامنح بريق الحبيب ريق
واحلل وشاح الكماب رفقاً خوفاً على خصرها الرقيق
وقل لمن لام في التصابي خل قليلاً عن الطريق
وقد أجاد في هذا النوع من الغزل ، كقوله :

بنام الهوى أمت اليه وبحكم المقار أقضى عليه
بابي من زهى على بوجه كان يدمي لما نظرت اليه
كلما علني من الراح صرفاً علني بالرضاب من شفتيه

ناول الكأس واستمال بلحظ فسقتنى عيناه قبل يديه
كذلك كان رقيقاً في شعره وميلاً الى الرقة في كل شيء ، والى الابتكار
في المعاني والأساليب . فقد قالوا عنه ، ورواه ابن بسام في « الذخيرة » وابن
خلدون « في مقدمته » : انه أول من سبق الى اختراع الموشحات .
ولقد كان يصف مواقف العشاق ومحدثهم ويصور ذلك بشكل ساحر
خلاب وعبارات جذابة . كقوله :

ودعتنى بزورة واعتناق ثم نادى متى يكون التلاق
وبدت لى فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والاطواق
ياسقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق
ان يوم الفراق أفضح يوم ليتنى مت قبل يوم الفراق
وله قصائد طويلة في العقد الفريد .

وأفضل ما جاء به ابن عبد ربه ، وعد من أجله أكبر أدباء الأندلس ، كتابه
الشهير «العقد الفريد» الذى هو من أمهات كتب الأدب العربية ، وهو كتاب
فد بين هذه الكتب جرى فى تأليفه على أسلوب لم يسبق اليه . وهو تقسيمه
الى عقود وجواهر ، خص كلا منها بكلام فى موضوع خاص واستوعب هذه
الموضوعات بقدر ماسمحت له مباحثه ، فجاء كتابا وافيالمن يريد أن يطلع على ما قيل
فى الأدب العربى : من أخبار وقصص ورسائل وكل أنواع النثر والشعر : من
كلام الأعراب والمستعربين . ومن رسائل أدبية وفنية ، وكلام فى السياسة
والملك والوعظ والفكاهات والحكم والنوادر . ونقل شيئا عن بعض الامم
الأخرى مما كان معروفا فى كتب الجاحظ وغيرها . وأودعه كثيراً من
كلامه . وهو مع هذا كتاب سهل خفيف الروح جم الفائدة ، أسهل تناولا من

غيره وأدل في جملته عل أدب صاحبه ورقة ذوقه في الاختيار . وفي هذا الكتاب من مسائل التاريخ ما ليس في غيره ، ويكفي الاطلاع عليه للوقوف على شيء عظيم من الأدب العربي وعقول العرب ونفسياتهم . ومعظم الكتاب ، أوكله من مختار كلام الناس ، وقد ذكر المؤلف ذلك فقال :

« وقد ألفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب ومحصل جوامع البيان ، فكان جوهر الجواهر ولب اللباب . وإنما لي فيه الاختيار وحسن الاختصار . وفرش لدور كل كتاب وما سواه فما أخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء والأدباء . واختيار الكلام أصعب من تأليفه ... وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفرقة في فنون الأخبار ، ولا جامعة لجل الآثار ، فجمعت هذا الكتاب كافيًا جامعًا لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة وتدور على السنين والملوك والسوقة ، وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها وتوافقها في مذاهبها . وقرنت بها غرائب من شعري ... »

وقد أخذوا على المؤلف انه لم يذكر شيئًا في كتابه عن أحوال بلاده ولا اقتبس فيه من أهل بلده . وقالوا ان صاحب بن عباد سمع بكتاب العقد فلما حصل عليه وتأمله قال هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ظننت ان هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم وإنما هو يشتمل على أخبار بلادنا ، لا حاجة لنا فيه ورده . وعابه في ذلك أبو علي الحسن محمد النيسمي القيرواني صاحب الرسالة التي كتبها إلى أبي المغيرة بن حزم .

ابن دراج القسطلی^(١)

هو ابو عمر احمد بن درّاج القسطلی . آدب أهل زمانه ، وأشهر من عرف في عصره بطلاقة اللسان وبلاغة الشعر . قال عنه الثعالبي في يتيمة الدهر: « بلغني أن القسطلی كان عندهم بصقع الأندلس كاللبنی بصقع الشام »

ولد ابن درّاج سنة ٣٤٧ هـ وتوفي سنة ٤٢١ هـ وأدرك عز الدولة الأموية ، لانه ولد في آخر أيام عبد الرحمن الثالث وعاش في عصر الحكم ابنه ، ذلك العصر الذي بلغت فيه حضارة العرب منتهىها ، وفي عصر المنصور بن أبي عامر ، وكان كاتبه وشاعره وأكبر شعراء دولة بني عامر كما يقولون ، بل قالوا انه كان آخر شعراء هذا العصر المجتهدين . واشتهر ذكره في الشام والعراق^٢

كان ابن دراج يعيش بشعره ، فكانت صناعته قول الشعر ومدح الملوك . وناهيك بمن تكون هذه صناعته ، يفد على من يعرف ومن لا يعرف ، ويمدح كل الناس ويقول غير ما يعتقد . ولعل تهافتة على المدح وتسابقه في هذا الميدان ووقوفه بين أيدي الملوك والأمراء هو الذي أكسبه هذه الشهرة . على أن عصره كان عصر الشعراء المداحين ، لأنه مبدأ الاضطراب بخروج الأمر من يد بني أمية وتآلب الناس على دولة بني عامر ، والاشتغال بالدسائس . ذكر مؤرخ الأندلس

١ راجع ابن خلكان ج ١ والذخيرة ج ١ وفهرس الجزء الثاني من نفع الطيب طبع أوروبا وبقيّة الملتس ص ١٤٧

٢ ويقول فيه ابن إسحاق انه كان في وقته لسان الجزيرة شاعرا وآخر حامل لواء شعرائها ومدحه كثيرا وقال عنه ابن خلكان انه من جملة الشعراء المجيدين والعلماء المتقدمين وكان يجيد ما ينظم ويقول . وقال ان له ديوانا في جزئين

الشهير أبو حيان ابن درّاج بقوله: « أبو عمر القسطلّيّ سابق حلبة الشعراء العامرين ،
وخاتمة محاسن أهل الأندلس أجمعين ، كان ممن طوحت بهم تلك الفتنة الشنعاء
واضطرتّه الى النجعة فاستقرأ ملوكها أجمعين ... بهز كلا بمدحه ، ويستعينه على
نكبته ، وليس منهم من يصنى له ، ولا يحفظ ما أضيع من حقه ، وأرخص من عقله
وهو يخطبهم بمقوله ، فيصون عنه . الى أن أناخ بساحة مندر بن
يحيى أمير سرقسطة فألقى عصا سيره عند ما بواه ، ورحب به وأوسع قراه ولم
يزل عنده وعند ابنه بعده . »

أما شعره فهو في جملته شعر من يتردد على موائد الأدب ليتذوق من كل
لون طعمًا ، ويجمع هذه الطعوم ليجعل له مائدة خاصة به يدعو اليها الآكلين
وكأنما يأكلون من مائدته . حتى ان بعض الباحثين استدل بقصيدته التي مدح
بها المنصور بن أبي عامر على تقليده الشعر القديم . ويقولون انه عارض بها قصيدة
أخرى في المدح على انه أجاد اجادة عظيمة في هذه القصيدة التي دلت على براعته
في التقليد . ولعله أراد أن يبين للمنصور انه أفضل ممن مدحه ذلك الشاعر ، وان
مدحه خير من مادح ذاك . والقصيدة في غاية السبك وحسن البيان ، وهي من
أجمل قصائده . تشبه الشعر القديم بما فيها من الروح البدوية التي تدل على أخلاق
العرب من الشهامة وصدق العزيمة ، وعزة النفس والجلد والصبر على تحمل الآلام ،
ومخاطبة النساء ووصف الوداع . حتى لقد يظهر من عباراتها انها من كلام أهل
البدو لمئاته أسلوبها ونزعتها العربية الخالصة ، وكأنها صادرة من عربي يحب القفار
وتقطع الضحارى أعناق مطايه . ويلفحه الهجير فيحرق وجهه . وتهب عليه
النكباء فيستنشقها وكأنه يستنشق الموت . ويتلظى حرارة الرمضاء بقدميه وكأنما
يطأ حطائر الجحيم . يقطع المفاوز طولاً وعرضاً . وكأنه في بحر يزخر . مياهه
الرمال وأمواجه السراب

يكاد يلمح الانسان من كلامه صورة متقنة الصنع لتلك الصحارى التى يسمع
بذكرها، ويظن انه أمام منظر من تلك المناظر البعيدة الرهيبة. فإذا امتلأت نفسه
من هيبة هذه القفار وهول الاسفار وهبوب الرياح ، سمع فى كلامه ما هناك
من زفير الاسود وأصوات الحيوانات المفترسة وكأنه يرى الشاعر يعانى الخلاص
من تلك الأهوال ويحاول الفرار ، من مخالب الموت الزؤام . ولم ينس وهو
يخوض غمار هذه الأخطار وصف الكواكب فى هذا الليل البهيم والقصيدة هى :

ألم تعلمى أن الشواء هو التوى وأن بيوت العاجزين قبور
تخوفنى طول السفار وأنه لتقبيل كف العامرى سفير
ذرينى أرد ماء المفاوز أجنا الى حيث ماء المكرمات نيمر
فان خطيرات المهالك ضمن لراكبها ان الجزاء خطير

ومنها فى وصف وداعه لزوجته وابنه الصغير

ولما تدالت للوداع وقد هفا بصبرى منه أنه زفير
تناشدنى عهد المودة والهوى وفى المهد مبغوم النداء صغير
عيبى بمرجوع الجواب ولفظه بموقع اهواء النفوس خبير
تبوأ ممنوع القلوب ومهدت له أذرع محفوفة ونحور
فكل مفدات الترائب مرضع وكل محياة المحاسن ظير
عصيت شفيع النفس فيه وقادنى رواح لتدآب السرى وبكور
وطارجناح البين بى وهفت بها جوانح من دعر الفراق تطير
لئن ودعت منى غيورا فأننى على عزمقى فى شجوها لغيور
ولو شاهدتنى والهواجر تلتظى على ورقراق السراب يمور

اسلط حر الهاجرات إذا سطا على حروجهى والأصيل هجير
واستنشق النكباء وهى لوافح واستوطى الرمضاء وهى تفور
ولموت فى عين الجبان تلون ولذعر فى سمع الجرىء صغير
لبان لها أنى من البين جازع وأنى على مض الخطوب صبور
ولو بضربى والسرى جل عزمى وجرسى لجنان الفلاة سمير
واعتسف المومة فى عسق الدجى وللأسد من غيل الضباب زئير
وقد حوَّمت زهر النجوم كأنها كواكب فى خضر الحدائق حور
ودارت نجوم القطب حتى كأنها كؤوس مهى وإلى بهن مدير
وقد خيلت طرق الحجر أنها على مفرق الليل البهيم قدير
وقد أيقنت ان المنى طوع همتى وأنى بعطف العامرى جدير

هذا فى جلته أسلوب عربى صميم، من أمثلة الشعر العربى الخالص من شوائب التكلف . ولكنه يدل على أن ابن درّاج لم يكن شاعراً فطرياً يقول الشعر عن شعور صحيح أو دافع نفسى ، وإنما هو مقلد بارع ، حتى فى المعانى التى لم تشعر بها نفسه، وفى وصف الامكنة التى لم يرها الا فى كلام الشعراء . فهو من الذين اتخذوا الشعر صناعة لفظية ، وآلة من آلات الكلام ليمدح من يريد

ومما قاله فى قصيدة مدح يذكر فيها حضور صاعد اللغوى من بغداد الى الأندلس قوله :

وأهدت لنا بغداد ديوان علمها هدية من والى وتحفة من حيا
فكانت كمن حيا الرياض بزهرة وأهدى الى صنعاء من نسجها وشيا
ويبكي ملوك الأرض من كان مفخرا اذا امثلوا من بعض أفعاله شيا
وحسب رواة العلم أن يتدارسوا مآثره حفظا وآثاره وعيا

إذا لمعت زرق الأسنة حوله كاضرام فيران الهوم جواليا
وقد لاذ أبطال الجلال بمطفه كما لاذ أطفال الجلال بمطفيا
وما قصرت عنه رماح عداته كما قصرت عنهم رياش جناحيا
فيالك من ذكرى سناء ورفعة اذا وضعوا في التوب أيمن شقيا
وناحت ليالى الدهر منى ميتا بآخر أيام دفنت بها حيا
وكان ضياعى حسرة وتندما اذا لم يفد شيئا ولم يغنى شيا
وأصبحت فى دار الغنى عن ذوى الغنى وعورضت فاستقبلت أسعد بوميا
فيا عبرتى سحى لعلى مبلل بجريك ما انزفت من ماء خديا
الى آخر ما قال

وقد أجاد فى أساليب المدح اجادة لا يقدر عليها الا من اقتطع لها .
فلقد تجده يمدح مدحا يحرك الاطماع ويدفع الممدوح الى الغرور، ويجعله يعتقد
فى نفسه ما ليس أهلا له . وهو يتظاهر له بالتواضع والحمد والشكر ، ويجعله فوق كل
انسان ، حتى كأنه ليس فى خلق الله من يدايه أو يجاريه فى صفات الكمال .
قال من كلام يمدح منذر بن يحيى :

فلئن تركت الليل فوقى داجيا فلقد لقيت الصبح بعدك زاهرا
وحلت أرضا بدلت حصباؤها ذهباً يرف لناظري وجوها
ولتعلم الاملاك انى بعدها ألفيت كل الصيد فى جوف الفرا
ورمى على رداه من دونهم ملك تخير للعلا فتجيرا
ضربوا قباهم على فعاذنى من كان بالقدرح المعلى أنجيرا
وكأنما تابعت تبع رافعا أعلامه ملكا يدين له الورى
وحططت رحلى بين نادى حاتم أيام يقرى موسراً أو معسرا
ولقيت زيد الخليل تحت عجاجة يكسو غلائلها الجياد الضمرا

وأتميت بمجدل وهو يرفع منبرا للدين والدنيا ويخفض منبرا
تلك البدور تتابعت وخلفتها سعيًا فكنت الجوهر المتخيرًا
كل هذا من الكلام السهل الجميل الذى تتسابق الى الاسماع رنته وحسن
سبكه . ولقد جعل ابن دراج كل أغراضه الشعرية المدح ، ولكنه ذكر فيه
كل خواطره وأفكاره ؛ وكأنه اتخذ وسيلة للتعبير عن آرائه التى لا تخرج عن
الشكوى والحقد على الأيام وبعض الآراء المعروفة ، ولقد كان يتأثر بالحوادث ،
ونفسه توحى عليه بأخيلة مظلمة فيقول :

ومن دوننا آنسات الديار نهاب الحى موحشات الطلول
مغائى السرور لبسن الحداد على لابسات ثياب الدهول
خطيبات خطب النهى والمهور مهادى عليها رجال الرحيل
فمن حرة حلين بالجلال وغدراء نصت بنص الزميل
ولا حلّى الا جمان الدموع تسيل على كل خد أسيل
فيبدلن من طول خفض النعيم بشق الحزون ووعث السهول
ومن قر الليل تحت الحجال بهول السرى تحت ليل طويل

وفد جرى فى وصفه على الطريقة الخيالية المعروفة عند شعراء العرب . كما وصف
أسطول المنصور بن أبى عامر . فقد كان يستطيع أن يتكلم عن عز الدولة ، وان
ذلك من آثار تقدمها ، ومن وسائل حمايتها ، ومن المسائل الحيوية لصيانتها ، أو يذكر
شيئاً من الآراء الجدية ، أو الاجتماعية أو السياسية . ولكنه لم يقل شيئاً من
ذلك ولم يفكر فى هذا ، وإنما كان يفكر فى مدح الأمير لا غير . ولو أنه كان
مدفوعاً بشعور صحيح وأراد أن يمدح عمل الأسطول وهو يعتبره من آلات
الدفاع عن وطنه لكان له غير هذا الخيال . ولكنه قال :

تحمل منه البحر بجرا من القنا يروع بها أمواجه ويهول
 بكل معالات الشراع كأنها وقد حملت أسد الحقائق غيل
 اذا سابت شأو الرياح تخيلت خيولا مدى فرسانهن خيول
 معائب تزجها الرياح فان وفيت أنافت بأجساد النعام فيول
 ظباء سهام ما لهن مفاحص وزرق حمام مما لهن هديل
 سوا كن في أوطانهن كأن سما بها الموج حيث الراسيات تزول
 كما رفع الآل الهوادج بالضحي غداة استقلت بالخليط حول
 أراقم تفرى نافع السم ما لها بما حملت دون الغداة مقيل
 هذه نظرة تدل على أن ابن درّاج وان لم يكن من الشعراء المبتكرين ، أو من
 أصحاب الصفات الشعرية الممتازة ، فهو بارع في صناعته متين ، في أسلوبه ،
 مادمح يجيد الاختيار في اللفظ والمعنى . وله قصائد كثيرة وبعض رسائل نثرية ،
 ذكرها صاحب الذخيرة في الجزء الأول . وكلها من باب الخيال ونقل معاني غيره
 في نظمه ونثره . ومع ذلك يحسبه الأدباء من أكبر الشعراء .

المعتمد بن عباد^(١)

نشأ المعتمد في عز أبيه ، وترعرع في أبهة الملك ، وورث كثيراً من صفات والده . فقد كان أبوه نبيل الطبع شريف النفس ، شجاعاً مهاباً داهية في السياسة انسح الملك على يده ، وصارت دولته أكبر دولة اذ ذاك ، وكان مع هذا أديباً فاضلاً ، كريم الاخلاق فألقب بالذهن حاضر الخاطر ، شاعراً رقيق النوق حسن

١ هو أبو القاسم محمد المعتمد على الله بن المعتض بالله بن عباد صاحب قرطبة وأشبيلية وأشهر ملوك الطوائف

ولد المعتمد سنة ٣٤١ هـ بمدينة باجة وتوفي في السجن بالغمات من بلاد البربر سنة ٤٨٨ هـ ويحل خبره في ذلك أنه تولى الامر والحال في اضطراب وشقاق ، والدولة في ضعف : فقد كان تابعاً للملك الافرنج يدفع اليه اتاوة سنوية ، حتى طمع ذلك الملك في أخذ بلاد المعتمد وأبى قبول ضريبتها . وأرسل الى المعتمد رسولا ، فضرب المعتد الرسول وقتل من معه ، فتاهب ملك الافرنج للاغارة على قرطبة . فلما علم كبار الناس اجتماعوا الى أحد القضاة هناك وتشاوروا فيما بينهم لينفذوا بلادهم من شر العدو . واتفقوا على أن يستنجدوا ملك مراکش يوسف بن تاشفين ، وأخبروا المعتمد بذلك وبينوا له خطورة الحال فوافق على رأيهم وطلب من ذلك القاضي أن يذهب بنفسه لقضاء ذلك . فتوجه وقابل ابن تاشفين وأخبره بخبر المسلمين هناك ، فأرسل جيشاً الى الأندلس ، وتقابل هذا الجيش بجيش المعتمد بن عباد ثم تقابل جيش المسلمين بجيش الافرنج ، فانهزم الافرنج وفرملسكهم هاربا ، وقوى أمر المسلمين . وقد أبلى المعتمد في هذه الموقعة بلاء حسنا . وقاوم مقاومة الأبطال ، ولم يبال الموت حتى أنه أصيب بكثير من الجروح وهو ثابت ثبات الوائقي بالظفر .

ولقد كان هذا لانتصار العظيم الذي سر به المعتمد بن عباد أعظم سرور في حياته من أكبر الأسباب لشقائه : لأن يوسف بن تاشفين ذلك البربري طمع في بلاد الأندلس ولا سيما عند ما اطلع على ما هناك من الأموال والذخائر والبساتين وأصناف الاموال وأسباب الترف التي لم يرها في بلاده . وزاد طمعا في ذلك تزيين حاشيته تلك البلاد وما فيها حتى كان يسيل لعابه عند ذكرها . واشتد به الطمع والحقد على المعتمد لما رأى من قوته هو وضعف ذاك وانهزت بطائته هذه الفرصة فأغروا صدره على

الاختيار طلى العبارة ، جميل الصورة بهيج الطلعة ، جذابا بهيئته وشكله، جواداً كريماً :

عاش المعتمد بن عباد فى هذه البيئة فأكتسب منها شيئاً كثيراً، ومال بطبعه الى الأدب والمجون . فكان كأبيه فى كل صفاته . ولكنه كان أشعر منه وأرق ذوقاً وأخف ظلاً ، وأحب للأدب من أبيه ، حتى قالوا انه لم يجتمع الأدياء والشعراء عند أحد كما اجتمعوا عنده ، وناهيك بأمير شاعر من أفضل الشعراء ديباجة ، وأرقهم ذوقاً ، وأحبهم الى مجالس الأدب . ألا يكون ذلك من الأسباب التى تساعد على نمو الأدب ورقة الشعور والاهتمام بالأدياء ؟^١

وقد كان المعتمد يعيش عيشة ترف وثناء^٢ ميالا لأن يصرف وقته فى اللهو الأدبى ومجون الشعر وبجارية الشعراء فى قولهم . وكان يعجبه كثيراً أن يكون شاعراً وأديباً بين هؤلاء الأدياء والشعراء ، ويجتهد فى أن يقول

المعتمد حتى عزم على الانتقام منه ، فحاصره وهو بأشيلية . ولما علم المعتمد بذلك أخذ يدافع عن نفسه وبلده وجالد المجادلة لا تعرف . وأظهر من البسالة والشجاعة ما اشتهر به . ولكن ماذا يعمل انسان رقيق أمام هؤلاء الاجلاف ؟ على أنه ألقى بنفسه الى الموت وهو ثابت الجأش . والناس فى رعب وفزع يترامون فى الانهار من شرفات الاسوار ، الى أن نزل القضاء بهذا البلد ودخلها البربر سالبين ناهبين آخذين كل شئ رأوه ووجدوه . وقبضوا على المعتمد وأهله بعد أن نالوا من أسرته وحاصروا ولديه المؤمنين والراضى وقتلوهما وأرسل المعتمد مقيداً مع أهله الى بلاد مراکش بعد أن شيعه أهل بلده ومحبه بالبكاء والنحيب وأرسله ابن تاشفين الى مدينة الحماة وبقي فيها الى ان مات سنة ٤٨٨ هـ

١ راجع سؤاله عن كلمة مسهب فى نفح الطيب طبع أوربا جزء ثانى صفحة ٤٧٣

٢ قالوا انه أمر بصياغة غزال وهلال من ذهب فكان وزنها سبعمائة مثقال وأهداهما الى فتاتين. وحضر أبو العرب الصقلى عند المعتمد وقد حل اليه حمولة وافرة من قراريط الغضة فأمر له بكيس منها وكان بين يديه تماثيل عنبر من جلتها جل مرصع بالذهب واللاتى فقال له أبو العرب معرضاً ما يحمل هذين الكيسين الا جل فتبس المعتمد وأمر له به فارتجبل شعراً فى ذلك وقالوا ان هذا الجمل بيع بخمسمائة مثقال

الشعر فكان حبه لقول الشعر وميله الى ذلك من الأسباب التي جعلت شعره رقيقاً .

وكان صافي الذهن نقي الذوق ، شريف الطبع عليه مسحة من الجلال ، عذب الحديث اذا تكلم ، حسن الاختيار في نظم الألفاظ والمعاني ، فكان شعره في جملته رقيق الحاشية صادقا في معناه ، خاليا من التكلف ، أكثره مأخوذ من حوادث حياته :

فهو صورة من حياته وصفحة من صحفه اليومية . كانت تملئ عليه الحوادث فيقول ، وتدفعه ميوله أو توخزه آلامه فيفتق لسانه بقول الشعر الجميل الخالي من كل تصنع ، أو معنى ليس له أثر في نفسه ، أو خيال لم ينشأ من شعور صحيح . فكان شعره أياماً من حياته يشمل أوقات سروره ولذاته وساعات محنته وبؤسه . وأجاد في كل ذلك اجادة تدعو الى الاعجاب برقة شعره ورقى خياله .

أما مجونه فلم يخرج فيه عن الوصف الجميل والأدب اللائق بمثله . يشعر الانسان عند تلاوته بخفة روحه وحسن ذوقه ، وبراعته في سهولة الكلام والتعبير عما يريد ، بدون تكلف وحسن في الصناعة واقتنان في التعبير . وهو كل جمال شعره وقد اكتسب أسلوبه من أساليب زمانه المعروفة عند أكثر الشعراء في حسن الوصف ودقته .

فقد كان حلو الفكاهة في جميع أوقاته تشمله الخمر أحياناً فتزيد من رقة أدبه . ولقد كانت تنزل به عواطفه النفسية من عظمة جلاله فتحمله على مدح جواريه ، وبديهته تملئ عليه جميل القول . فقد جاءت اليه جارية تسقيه وكان كلما بها ، اذ لمع البرق فارتفعت فقال :

يزوعها البرق وفي كفها برق من القهوة لماع

كل ذلك كان له أثر عظيم في شعره . وإذا لم يكن المعتمد من كبار الشعراء الذين كانت صناعتهم الشعر وكل ميولهم في الحياة قول الشعر ، ولا من المكثرين ، فهو وجه من وجوه الأدباء ، وصورة من صور الشعراء الظرفاء عشاق الشعر والأدب . ودليل على ما وصلت إليه حال الأدب في تلك البلاد ، وعلى تأثير الحضارة في النفوس وتهذيبها الاخيلة والتصور ، ورقة الشعور وجمال القول .

كما كتب الى أبي محمد المصرى يدعوهُ الى مجلسه :

أيها الصاحبُ الذي فارقتُ عيى ونفسي منه السنا والسناء
نحن في المجلس الذي يهَبُّ الراحة والسمع والغنى والغناء
تعاطى التي تُسَى من اللذة والرقّة الهوى والهواء
فأته تلف راحته ومجيا قد أعدا لك الحيا والحياء

وقال في ساق وذكر ذلك صاحب قلائد العقيان بقوله :

انه دخل عليه في دار المزيّنة والزهر يحسد اشراق مجلسه ، والدر يحكي
انساق تأنّسه ، وقد رددت الطير شدوها ، وجددت طربها وشجوها ، والفصون
قد التحفت بسندسها ، والأزهار تحي بطيب تنفسها ، والنسيم يلم بها فتضعه
بين أجفانها ، وتودعه أحاديث آذارها ونسيانها ، وبين يديه فتى من فتيانه ، يفتنى
تثنى القضيّب ، ويحمل الكأس في راحة أبيه من الكف الخصب ، وقد توشح
وكان الثريا وشاحه ، وأنار فكان الصبح من محياه كان انضاحه ، فكلما ناوله
الكأس خامره سوره ، وتخيّل ان الشمس تهديه نوره ، فقال المعتمد :

لله ساق مهفّف غنّيج قام ليسقى فجاء بالعجب
أهدى لنا من لطيف حكته في جامد الماء ذائب الذهب

وأما يؤسه وما ألم به في آخر حياته فقد وصفه وقد نالت منه الآلام وأذابت
مهجته، حتى لم يبق في نفسه بقية من الصبر، واستولى عليه الجزع، وكأنما ينظر إلى
عزه الماضي، وملكه الزائل فيتملكه اليأس، ويكاد يقضى على كل مافي نفسه من
شجاعة وبأس، وقد نحلته الضعف وملكه البكاء، وذابت نفسه حسرة على ما هو عليه
وما أصاب أهله وبنيه من الذل، حتى أصبحوا خدما لخدمهم، وقد كانت تذلل
لهم الجبابرة، وتخدمهم خاصة الناس .

يصف ابن عباد ذلك في شعره ، وكأنك تراه في أشد ما يكون الرجل من
البؤس واليأس ، فلا يرجو الخلاص الا الى الموت . فقد بلغ من أمره ان أكرم
بناته دعاها الحال الى أن تطلب غزلا من الناس تسد بأجرته بعض مالها . فأدخل
عليها فيما أدخل غزل لبنت شُرطة أبيها . واتفق ان السيدة الكبرى أم بنيه
اعتلت وكان الوزير أبو العلاء زُهر بمرأ كش قد استدعاه ابن تاشفين لعلاج ،
فطلب اليه المعتمد راغباً في علاج زوجته، فكتب اليه الوزير رسالةً بإجابة طلبه ،
ودعاه فيها بطول البقاء . فقال المعتمد في ذلك :

دَعَا لِي بِالْبَقَاءِ وَكَيْفَ يَهْوَى	أَسِيرٌ أَنْ يَطُولَ بِهِ الْبَقَاءُ
أَلَيْسَ الْمَوْتُ أَرْوَحَ مِنْ حَيَاةٍ	يَطُولُ عَلَى الشَّقَى بِهَا الشَّقَاءُ
فَمَنْ يَكُ مِنْ هَوَاهُ لِقَاءَ حُبٍ	فَإِنْ هَوَايَ مِنْ حَتْفِي اللَّقَاءُ
أُرْغَبُ أَنْ أُعِيشَ أَرَى بِنَاتِي	عَوَارِيَّ قَدْ أَضَرَّ بِهَا الْخَفَاءُ
خَوَادِمَ بَنَتْ مَنْ قَدْ كَانَ أَعْلَى	مَرَاتِبِهِ إِذَا يَبْدُو النَّدَاءُ
وَطَرْدَ النَّاسِ بَيْنَ يَدَيَّ مَمَرَى	وَكَفَّهُمْ إِذَا غَصَ الْفَنَاءُ
وَرَكُضَ عَنْ يَمِينٍ أَوْ شِمَالٍ	لِنَظْمِ الْجَيْشِ أَنْ رَفَعَ اللَّوَاءُ
وَلَكِنْ الدَّعَاءُ إِذَا دَعَاهُ	ضَمِيرٌ خَالِصٌ نَفَعَ الدَّعَاءُ

جزيت أبا العلاء جزاء بر نوى يرا وصاحبك العلاء
سيسلى النفس عن ما فات على بأن الكل يدركه الفناء

ودخل عليه في سجنه بناته يوم عيد في أطمار بالية وحالة يؤس ، وكن يغزلن
للناس بالاجرة في اغمات . فلما رآهن المعتمد في اطمار رثة شعر كأنما تمزقت
أحشاؤه وانصدع قلبه . فقال :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيد في اغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائئة يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
أفطرت في العيد لاعادت إساءته فكان فطرك للأ كباد تفتطيرا
قد كان دهرك ان تأمره ممثلا فردك الدهر منهيا ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسر به فانما بات بالأحلام مغورا

وهكذا عرف كيف يصدع القلوب بكلامه ، وكيف يفتح قلبه ليرى مكنوناته
وأبان لنا كيف أن الآلام تدفع بالقلوب الى الكلام وتجسم المعاني . « دخل عليه
وهو في تلك الحال ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقيه عض الأسود ،
والتوت عليه التواء الأساور السود ، وهو لا يطيق اعمال قدم ، ولا يريق دمعاً
الا ممزوجاً بدم ، بعد ما عهد نفسه فوق منبر وسرير ، وفي وسط جنة وحرير ،
تحقق عليه الألوية ، وتشرق منه الأندية ، فلما رآه بكى وقال : »

قَيِّدِي أَمَا تَعْلَمُنِي مَسْلَمًا أَيْتَ ان تُشْفِقَ أَوْ تَرْحَمًا
دُمِي شَرَابُ لَكَ وَاللَّحْمُ قَدْ أَكَلْتَهُ لَا تَهْشِمِ الْأَعْظَمَا
يَبْصُرُنِي فِيكَ أَبُو هَاشِمٍ فَيَنْثُنِي وَالْقَلْبُ قَدْ هَشُمَا

ارحم طُفَيْلاً طائِشاً لَبُّهُ لَمْ يَخْشَ أَنْ يَأْتِيكَ مُسْتَرْحِماً
وارحم أُخَيَّاتٍ لَهُ مِثْلُهُ جَرَعَتْهُنَّ السُّمُّ وَالْعَلَقَمَاتُ

أليست هذه نفس شاعر عرف كيف يعبر عما يجول في نفسه من المعاني ،
ويصف آلامه وصفاً قريباً من الحقيقة ؟ واستعان على ذلك بما رآه من البؤس
وآثاره الظاهرة ، فذكر حالته وماهى عليه ، وذكر أولاده وما يعانونه ، ولم يلتجئ
الى الخيال ولا الى الاحلام . ولكن شعره جميل لأن الحقائق اذا ألبسها الشعراء
ديباجة الشعر أصبحت شعراً جميلاً . وليس الشعر الجميل الا حقائق شعرية .

ولقد كانت تملك ابن عباد عزة نفسه ورفعة شأنه ، فيستعذب هذه الآلام
ويفضل الاستئثار بها على الخضوع لعدوه ، وتملكه الشجاعة وكرم المحتد
فيستصغر كل شيء يلاقيه ، لأنه انما خرج الى القتال بهذه النفس التي يحملها
بدون أن يتحصن بشيء سوى قوة بأسه ، عالم بأنه سيجود بها يوماً ما في موقف
يرى الموت فيه خيراً من الحياة . نظم ذلك كله بعبارة جميلة مؤثرة . فقال عند ما
أخذ أسيراً .

لما تماسكت الدموع وتنهنه القلبُ الصديق
قالوا الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع
وأذ من طعم الخضوع على فم السم النقيع
ان تستلب عني الدثنا ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبّا ع أسلب الشرف الرفيع
قد رمت يوم نزالهم ألا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميص عن الحشا شيء دفع
وبذلت نفسي كي تسيل اذا يسيل بها النجيع

أَجْلِي تَأْخِرُ لَمْ يَكُنْ بهوای ذلی والخشوع
شِمْ الْأُولَى أَنَا مِنْهُمْ والأصل تتبعه الفروع
وله في الحنين الى شلب وقت ان كان يرتع في بحبوحة العيش مع صديقه
ووزيره ابن عمار كلام سهل رقيق ، صادر عن قلب مقروح ، وقد فارقه ابن عمار
فأرسل اليه يقول :

ألا حىَّ أوطانى بشلب أبا بكر وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى
وسلم على قصر الشراجيب عن فتي له ايدياً شوق الى ذلك القصر
منازل آساد وبيض نواعم فناهيك من غيل وناهيك من خدر
وكم ليلة قد بت أنعم جنحها بمخصبة الاردا ف مجدبة الخصر
وبيض وسر فاعلات بمهجتى فعال الصفايح البيض والأسل السر
وليل بسد النهر هوا قطعته بذات سوار مثل منعطف البدر
نضت بردها عن غصن بان منعم نضير كما انشق الكمام عن الزهر
ومما قاله وهو يبكي على نفسه :

قد كان كالثعبان رحلك في الورى فغدا عليك القيد كالثعبان
قلبي الى الرحمن يشكو بشه ما خاب من يشكو الى الرحمن
يا سائلاً عن شأنه ومكانه ما كان أغنى شأنه عن شانى
هائيك قينته وذلك قصره من بعد أى مقاصر وقيان
من بعد كل عزيمة رومية تحكي الحائم فى ذرى الأغصان

كذلك كانت حسرته على أيامه الماضية ، وحالته الحاضرة منعباً من منابع
شعره ، هو يتسلى عما ما يتذوق من الآلام . وليس فى البؤس معين غير الشكوى
ولا للعنكبوت ارتياح لنير أبنه ونظره الى أيامه الماضية ، والى تلك اللحظات التى
كان ينعم فيها ، فترتاح نفسه الى ذكرها ، فيشعر كأنه لا يزال فى نعيمها ولذاتها .

فلقد تكون ذكرى السعادة سعادة أخرى في أوقات البؤس، يتسلى بها البائس في
محنته ، فيرى انه كان وفي الحظ فيها ، وان الدهر يومان ، فاذا كان يوم
السعادة قد انقضى فانه لا يزال يذكره . وهكذا تتناوبه الافكار فيستسلم للقضاء
وتخف آلامه وهو يتغنى بحوادث الايام

هذه حال ابن عباد في شعره الذي يبكي فيه ويندب حظه . كما في قوله :

غريب بأرض المغرين أسير	سيبكي عليه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا	وينهل دمع بينهما غزير
مضى زمن والملك مستأنس به	وأصبح منه اليوم وهو نفور
برأى من الدهر المضلل فاسد	مضى صلحت للصالحين دهور
أيا ليت شعري هل أبيت ليلة	أمامي وخلق روضة وغدير
بمنبت الزيتون موروثه العلا	تغنى قيسان أو ترن طيور
بزاهرها السامي الذرى جاده الحيا	تشير الثريا نحونا ونشير
ويلحظنا الزاهي وسعد سعوده	غيورين والصب المحب غيور

ولقد كان كل خاطر يمر به وكل منظر يراه يذكره شيئاً من آلامه أو حنينه الى
أهله، فيفتق لسانه بقول الشعر الذي يمزق القلوب وينديها حسرة

ولما قتل المرابطون ابنه المأمون في قصر قرطبة وألقوا بجسده على الارض ،
ومالوا الى رندة حيث ابنه الثاني الراضى وقضوا عليه ، قال المعتمد برئيهما ، وقد
رأى قرية تنوح ، وأمامها وكر فيه طائران يرددان نغماً

بكت ان رأت الفين ضمها وكر	مساء وقد أخنى على الفها الدهر
وناحت فباحث واستراحت بسرها	ومانطقت حرفا يبوح به سر

فألى لا أبكى ؟ أم القلب صخرة وكم صخرة فى الأرض يجرى بها نهر
بكت واحداً لم يشجها غير فقدته وأبكى لآلاف عديدهم كثر
بنى صغير أو خليل موافق يمزق ذا فقر ويفرق ذا بحر
ونجمان زين للزمان احتواهما بقرطبة النكداء أو رندة القبر
عذرت اذا أن ضن جفنى بقطرة وان لؤمت نفسى فصاحبها الصبر
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معى لملهما فلتحزن الأنجم الزهر

هذا بعض ما فى نفس المعتمد بن عباد ، وهذا بعض شعره المنبعث من
قلبه المقروح . فكان شاعراً وجدانياً ، ولكن وجدانه امتزج بالحقائق وحوادث
الحياة . فكان شعره جميلاً له علقه بالقلوب ، لان الوجدان والحقيقة اذا تألفا فى
الشعر وامتزجا فى ساحة الخيال ، أظهرتا الحقيقة شعراً جميلاً ، والشعر حقيقة مريئة
فى ثوب خيالى جميل .

الوزير بن عمار

كان ابن عمار في أول أمره فقيراً خامل الذكر ، فلم يرد أن يعيش عيشة العامة كغيره ، فقصده إلى تلك السوق الرائجة ، سوق الأدب ، ورجح فيها ، وكان أديباً يقول الشعر فأخذ يسأل بشعره ، وكان من الأذكياء كثير المجون كجميع الأدباء في ذلك العصر فانفتح له باب آخر في الشعر والغيلال ، وقال في ذلك كما قال غيره ،

١ هو أبو بكر محمد بن عمار من أسرة يقولون أنها عربية الأصل وقد عاش إلى سنة ٤٧٩ حيث قتلته المعتضد بن عباد بيده . ويظن أنه عمر ٥٠ عاماً تأدب على بعض علماء قرطبة ككل الأدباء . لأن رواج سوق الأدب في تلك الأيام وسهولة مواردها كانت تحمل أمثال ابن عمار على ورود ذلك المنهل . وقد أراد أن يعيش على متون القوافي ومصاريح القريض . فحمله ذلك على أن يجيد الشعر ، وكان بطبعه ميلاً إلى ذلك فبلغ مبلغ غيره من مشهور دي الشعراء وقد كانت حياته حياة حركة واضطراب : فقد كان في أول أمره يسأل بشعره ليعيش . ويتدلى الكبير والصغير ويمدح الأمير والصلوك طالباً عطايهم .

قالوا عنه . . . انه لم يزل يحول في الأندلس مسترفداً لا يتخص بمدحه الملوك دون غيرهم ، بل لا يبالى من أخذ ولا من مدح من ملك أو سوق ، وأنه ورد في بعض سفراته شلب لا يملك إلا دابة لا يجيد علها ، فكثب بشعر إلى رجل من وجوه أهل السوق : فكان قدومه عند ذلك الرجل أن ملأ له الخجلة شعيراً ووجهها إليه ، فرآها ابن عمار من أجل الصلات وأسنى الجوائز . ثم اتفق أن علت حال ابن عمار وساعده الجدة ونهض به البخت . وانتهى أمره إلى أن ولأه المعتضد على الله مدينة شلب وأعمالها ، فدخل في موكب ضخمة وجلة عبيد وحشم ، وأظهر نخوة لم يظهرها المعتضد على الله حين دخلها أيام أبيه المعتضد بالله . فكان أول شيء سأل عنه صاحبه . صاحب الخجلة . فقال ما صنع فلان أهو حي : قالوا نعم ، فأرسل إليه بمخلاته نفسها بعد أن ملأها دراهم وقال لرسوله قل لو ملأناها برأ ملأناها تبرا

وما زال ابن عمار على هذه الحال في كسب الأموال ، يدفعه الطمع إلى السير في طريق الوصول إلى مراكز العظماء فتشج من لسانه لأنه هو السلاح الوحيد لديه . حتى علا ذكره بين الشعراء ، واشتهر في عالم الأدب ، ومدح المعتضد بن عباد بقصيدة أعجب بها أعجاباً وجملة

حتى أخذوا عليه الامعان في المجون ، والادمان في الشرب ، فقال يدفع عن نفسه ذلك ويذكر مآثرها

نقسم على الراح أدمن شربها وقلمت قى راح وليس قى مجد
ومن ذا الذي قاد الجياد الى الوغى سواى ومن أعطى كثير أو لم يكده
فديتكم لم تفهموا السر انما قليتكم جهدى فأبعدتكم جهدى

من أجل ذلك في جملة شعرائه . ومنذ ذلك الوقت اندمج في حاشية الامراء ، وخلق عن نفسه لباس البؤس . ثم اتصل بالمتعمد بالله بن المعتضد ، وكان شاباً أديباً يحب الشعر ويميل اليه فأحبه المتعمد لاتفافه معه في البيوت والاهواء وفنون الادب والشعر والملاهي وانواع السرور . ولما تولى المتعمد ولاية شلب جعل ابن عمار وزيراً له هناك وترك له الحكم والأمر والنهي ، وهناك عاش مع المتعمد عيشة الاصدقاء وعيشة اللهو والطرب والمجون ، وقد كان مجلس الامير هناك يجتمع الادباء والشعراء الذين كانوا يملأون الجو لكثرتهم ، ولا يكاد يخلو مكان منهم وكانت مجالس الادباء هناك كل شيء في الحياة . فأنفصر ابن عمار والمتعمد بن عباد في السرور واللهو انغمارا ، وصارا كأنهما شخص واحد ، حتى غاب ابن عمار المتعمد على أمره ، وملك منه كل شيء ، وساءت السمعة بينهما . فلما علم المتعمد بذلك فرق بينهما ، ونفى ابن عمار في أقاصي بلاد الأندلس ، وما زال في منفاه الى ان مات المتعمد وتولى الامر بعد أبيه المتعمد فدعا اليه ابن عمار واختص به . وامتزج به امتزاجاً لا يكون بين رجل وأقرب الناس اليه ، حتى لقد كانا ينمان أحياناً على وسادة واحدة . ولكن ابن عمار على الرغم من ذلك كان سقى الظن غير مخلص في وده . فكان يتربص من المتعمد الفتك به ، رغم اخلاصه له ، وقد ولاه المتعمد ولاية شلب ثم لم يقدر على بعده فدعاه اليه واستوزره ، وكان معه كما كان جعفر البرمكي مع الرشيد وسلم له كل شيء في السياسة وأمر الدولة ، حتى انه أصبح من قواد الجيش وانتصر على الاعداء في وقائع معروفة ، وكان له حيل في الخداع ومهارة في التغلب على غيره . ولما رأى علو أمره خطر له أن يستبد بالملك وأن يكون ملكاً ، فأراد أن يأخذ بالنسبة ويعلمكها بعد أن فتحها ويخضع طاعة المتعمد ، ونسى كل ما كان بينهما ؛ ولكن لم يتمكن من ذلك . وبلغ المتعمد أمره فهرب ولجأ الى سرقطة . فخافه هناك بنو هود . فأخرجوه . فالتجأ الى حصن ثم قبض عليه صاحب هذا الحصن وسجنه ثم بعث المتعمد من تسلحه ودخل ابن عمار قرطبة أشنع دخول على بقل بين عدلى تبين وخرج الناس جميعاً لرؤيته على هذا الحال ، بعد ان كان يهرع اليه الكبير والصغير لتقبيل يده . ولما مثل بين يدي المتعمد أخذ يعد أيديه عليه وابن عمار مطرق رأسه خجلاً . ثم أمر به فدخل أشبيلية على الحال التي دخل بها قرطبة . وسجن في غرفة في قصر المتعمد . ومنذ هذا الحين كتب قصائده الشهيرة في الاستعطاف حتى لان منها المتعمد ولكنه رجع عن عنوه وقتله بيده في السجن سنة ٤٧٩ هجرية .

مع ذلك فقد برع في المجون ، وكان شعره فيه أصدق منه في غيره
واجمل ديباجة وأسلوباً لانه صادر عن شعور صادق . وله في ذلك خيالات
ومعان جميلة .

وقد كلف بالفناء ومجالسه ، وكلف الناس بحضوره لأنه كان حلو الفكاهة
عذب الحديث ، يهرع الأدباء الى مجالسه ويسرون بحضوره . فقد روى ان
بعض الكتاب اصطبج يوماً والجو مسكي العوارف ، لازوردي المطارف ،
والروض أتيقة لباته ، رقيقة هباته ، والنور مبتل ، والنسيم معتل ، ومعه قومه ،
وقد راقبهم يومه ، وصلاته تصافح معتفيه ، ومبراته تشافه موافيه ، والراح
تشعشع ، وماء الامان ينشع ، فكتب الى ابن عمار وهو ضيفه :

ضمانٌ على الأيام أن أبلغ المنى إذا كنت في ودي مسراومعلنا
فلو تسأل الأيام من هو مفرد بود ابن عمار قللت لها أنا
فان حالت الأيام بيني وبينه فكيف يطيب العيش أو يحسن الفنا
فلما وصلت الرقعة اليه تأخر عن الوصول ، فقال أحد الحاضرين : اني
لأعجب من ابن عمار ، كيف قعد عن هذا المضمار ، مع ميله الى السماع ؟ فلما
كان من الغد ورد ابن عمار ومعه الجواب وهو :

هضرت لى الآمال طيبة الجنى	وسوغتنى الأحوال مقبلة الدنيا
وألبستنى النعمى أغض من الندى	واجمل من وشى الربيع وأحسننا
وكم ليلة أحظيتنى بحضورها	فبت سميلاً للثناء وللسنا
اعلن نفسى بالمكارم والعلى	وأذنى وكفى بالفناء وبالغنى
مأقرون بالتمويل ذكرك كلما	تعاورت الأسماء غيرك والكُنَى
لأوسعتنى قولاً وطولاً كلاهما	يطوّق أعناقاً ويخرس ألسنا
وشرفتني من قطعة الروض بالى	تناثر فيها الطبع وردا وسوسنا

هذا كلام وجداني جميل ، يسوغ للنفس تذوقه ، لأنه طلى العبارة ، عذب سهل في لفظه ومعناه . مدح ولكنه ليس من المدح الجاف المقصور على ذكر الفضائل وجميل الأوصاف التي ربما لم يكن للمدوح حظ وافر فيها ، بل هو مدح ممزوج بوصف جمال أوقات السرور والسعادة وآثار النعيم في النفوس وأثر النعمة على المنعم عليه . أو هو شكر يراد به المدح ، أو هو نوع من الافتنان في المدح وأساليبه

وكانت له خفة روح تظهر في كلامه ، وكأنه لا يبالي بما يقول ، ولا سباً إذا ذكرت الراح . فقد كان في حضرة الرشيد بن المعتمد فلما دارت الكأس وتمكن الأنس ، وغنيت أصوات ، ذهب الطرب بأبن عمار كل مذهب . فارتجبل يخاطب الرشيد .

ما ضر ان قيل اسحق وموصله ها أنت أنت وذى حصص واسحق
أنت الرشيد فدع ما قد سمعت به وان تشابه أخلاق وأعراق
لله درك داركها مشعشة واحضر بساقيك ما قامت بناساق
هكذا كان يفعل السرور في رأس ابن عمار ، فكان لأثره في نفسه وشعره شيء كثير ، وكان شعره في اللهو والغزل من أحسن ما قيل في نوعه ، وان كانت معانيه ككل المعاني ، الا ان له بهاء في أسلوبه ككل الشعراء الفنيين . ولقد يقول المعنى فيخيل اليك انه شيء جديد . كما قال يتغزل :

قالوا أضربك الهوى فأجبتهم يا حبيداه وحبذا اضراره
قلبي هو اختار السقام لجسمه زياً نفلوه وما يختاره
غير تموني بالنحول وانما شرف المهند أن ترق شفاره
من قد قلبي اذ تثني قد وأقام عذري اذ أطل عذاره
أم من طوى الصبح المنير نقابه وأحاط بالليل البهيم خماره

أما مدحه، فله أسلوب خاص في تصور المعاني وترتيبها : يعرض صوراً مختلفة من الأخيلة التي كانت معروفة في الأندلس بعبارة سهلة رشيقة ، كما في قصيدته التي مدح بها المعتضد ، وهي تدل على مقدار ملكة الشعر وقوتها في نفسه ، وانه شاعر بفطرته . يشعر بجمال القول، ويعرف كيف يصل الى اقتناص المعاني الجميلة ، ويضعها في أسلوب جميل ، وخيال جميل ، ورقة في الذوق ، وكأنك تقرأ كلاماً منشوراً لا شعراً منظوماً . أو كأنك تسمع نغمات الأوتار ، أورنات القوافي أو حفيف الأشجار والنسيم يسحها ويملقها . أو أنك في روض تفتحت فيه الأزهار ، ومالت عليك ظلال الاشجار ، أو كأنك ترى كتاباً مفتوحاً سطرت فيه حياة المعتضد أو مرآة تنعكس فيها أعماله ، أو مصوراً يرسم لك بالقلم والبيان لا بالريشة والألوان. كما قال :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى	والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره	لما استردّ الليل منا العنبرا
والروض كالحناء كساه زهره	وشيا وقلده نداه جوهره
أو كالغلام زهى بورد رياضه	خجلا وتاه بأسه من معذرا
روض كأن النهر فيه معصم	صاف أطلّ على رداء أخضرا
وتهزه ريح الصبا فتخاله	سيف ابن عباد يبدّد عسكرا
عباد المخضر نائل كفه	والجوّ قد لبس الرداء الاغبرا
علق الزمان الاخطر المهدي لنا	من ماله العلق النفيس الاخطرا
ملك اذا ازدحم الملوك بمورد	ونجاه لا يردون حتى يصدرا
أندى على الاكباد من قطر الندى	والذفي الاجفان من سنة الكرى
يختار اذ يهب الخريدة كاعبا	والطرف أجود والحسام مجوهره
قدّاح زبد المجد لا ينفك عن	نار الوغى الا الى نار القبرى

لاخلق أفرى من شفار حسامه
 أيقنت انى من ذراه بجنة
 وعلمت حقاً انّ ربهى مخصب
 من لا توازنه الجبال اذا احتبى
 ماض وصدر الريح يكهم والظبا
 قاد الكتاب كالكوكب فوقهم
 من كل أبيض قد تقلد أبيضاً
 ملك يروك خلقه أو خلقه
 أقسمت باسم الفضل حتى شمته
 وجهلت معنى الجود حتى زرته
 فاح الثرى متعطراً بثنائه
 وتووجت بالزهر صلع هضابه
 هصرت يدي غصن الندى من كفه
 حسبي على الصنع الذى أولاه أن
 يا أيها الملك الذى حاز المنى
 السيف أفصح من زياد خطبة
 مازلت تغنى من غنى لك راجيا
 حتى حلت من الرياسة محجرا
 شقيت بسيفك أمة لم تعتقد
 أثمرت رحلك من رؤوس كراتهم
 وصبغت درعك من دماء ملوكهم
 تحقها وشيا بذكرك مذهباً

ان كنت شبهت المواكب أسطرا
 لما سقاني من نداء الكوثر
 لما سألت به الغمام المطرا
 من لا تساقه الرياح اذا جرى
 تنبوا وأيدى الخيل تعثر في البرى

عضبا وأسمر قد تأبط أسمرا
 كالروض يحسن منظرا أو مخبرا
 فرأيت في بردتيه مصورا
 فقرأته في راحتيه مفسرا
 حتى حسبنا كل ترب عنبرا
 حتى ظننا كل هضب قيصرا
 وجنت به روض السرور منورا
 أسعى بجدة أو أموت فأعذرا
 وحياه منه بمثل حمدي أنورا
 في الحرب ان كانت يمينك منبرا
 نيلا وتفنى من عتا وتجبرا
 رحبا وضت منك طرفا أحورا
 الا اليهود وان تسمت بربرا
 لما رأيت الفصن يعشق مشمرا
 لما علمت الحسن يلبس أحمرا
 وفتقتها مسكا بحمدك أذفرا

من ذا يناغنى وذكرك صنمك أوردته من نار فكري مجرا
فلئن وجدت نسيم حمدي عطرا فلقد وجدت نسيم برك أعطرا
واليكها كالروض زارته الصبا وحنا عليه الطل حتى نورا
وكان ابن عمار يتخذ الشعر وسيلة للتعبير عن كل شيء ، فلم تكن تمر به
حادثة من الحوادث الا ذكرها في شعره . فكان اذا أراد أن يكتب للمعتمد
كتب له شعرا ، واذا أراد أن يشكو ، شكاف في شعره ، واذا أراد أن يذكر خبرا
ذكره في شعره . وكانما كان شعره صحيفة من صحفه اليومية .

ويخيل الى من يقرأ كلامه أن المعاني كانت تنهال عليه انهيالا ، أو أن الشعر
صقل لسانه وتمكن منه ، حتى أصبح لا يقول الا شعرا ، أو لا يقدر على التعبير الا
بنظم المعاني ، أو أن الشعر عنده كالنثر في سهولة التعبير . وأكثره خال من
الخيالات الشعرية ، ولكنه يحسب من صميم الشعر لأن به جمال الشعر : وهو
امتلاك النفوس بهذه العبارات السهلة ، واعجاب الانسان بزلاقة لسانه وتناسق
ديباجته . اذ ليس كل شعر خيالا ، وليست بهجة الشعر وصناعته محصورة في
الخيال : من تشبيه حسن أو كناية عجيبة أو مجاز غريب . فقد يكون الشعر معرفة
التعبير عما في النفس وكشف ما بها . وحسب الشاعر أن يصل بعبارته الى امتلاك
الاسماع واعجاب النفوس بقوله . وليس الشعر غير ذلك . كقوله :

أأسلك قصدا أم أعوج عن الركب فقد صرت من أمرى على مركب صعب
وأصبحت لأدري أفي البعد راحتي فأجعله حظي أم الخط في القرب
إذا اتقدت في أمرى مشيت مع الهوى وإن أتعبه نكصت على عقبي
على أنني أدري بأنك مؤثر على كل حال مايزحزح من كربى
أهالك للحق الذي لك في دمي وأرجوك للحب الذي لك قلبي
أبظلم في وجهي لذا قمر الدجى وتنبو بكفى صفحة الصارم المضرب

حنانيك فيمن أنت شاهد نصحه وليس له غير انتصاحك من حسب
وما جئت شيئا فيه بغي لطالب
سوى أنسى أسمتني للمسة فقلت بها حدتي وكسرت من قربى
وما أغرب الايام فيما قضت به ترينى بعدى عنك آنس من قربى
أما انه لولا عوارفك التي جرت جريان الماء في الغصن الرطب
لما سمت نفسى ما أسوم من الأذى ولا قلت ان الذنب فيما جرى ذنبى
سأستمنح الرحى لديك ضراعة وأسأل سقيا من تجاوزك العذب

وكان لآلامه أثر عظيم في شعره، فكانت قصائده في استعطاف المعتمد وسيلة
من وسائل التعبير عن كل آرائه وخطرات نفسه. وليس أرق في كلامه من
استعطافه ، ولا أشد أثرا في النفس من كلامه حين تضيق في وجهه الدنيا على
رحبها. فمن ذلك قوله للمعتمد

سجايك ان عافيت أمدى وأسمح وعذرك ان عاقبت أجلى وأوضح
وان كان بين الخطتين مزية فأنت الى الأدنى من الله أجنح
حنانيك في أخذى برأيك لاتطع 'عدائي وان أثنوا علىّ وأفصحوا
وما ذا عسى الاعداء أن يزيديا سوى أن ذنبى واضح متصحح
نعم لى ذنب غير أن ملحه صفاة يزل الذنب عنها فيسفع
وان رجائي ان عندك غير ما يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد أسلفت ودا وخدمة يكران فى ليل الخطايا فيصبح
وهبنى وقد أعقبت أعمال مفسد أما تفسد الأعمال ثمت تصلح
أقلنى بما بينى وبينك من رضا له نحو روح الله باب مفتح
وعف على آثار جرم جنيتسه بهبة رحى منك تمحو وتصفح

ولا تلتفت رأى الوشاة وقولهم
وما ذاك الا ماعلمت فأننى
وقالوا سيجزيه فلان بفعله
ألا ان بطشا للمؤيد يتقى
وبين ضلوعى من هواء تميمية
سلام عليه كيف دار به الهوى
ويهنيه ان مت السلو فأننى
وقال يصف سجنه لصديق له وكأنما هى أنة من أبنه ، ولوعة من لوعاته ،
وهى من الشعر المطبوع :

أدرك أخاك ولو بقافية
فلقد تقاذفت الركاب به
طاحت صحابته بلا سنة
بمعارج أدت الى جرد
عال كأن الجن اذ مردت
وحش تناكرت الوجود به
قصر تمهد بين خافيتى
متحير سأل الوقار على
ملككت عنان الريح راحته
مأوى العزيز وقد نصحت فان
واصلت خدمة قاطع سبى
دع ذا وصلنا غير مؤتمر
وله مدائح كثيرة فى المعتضد وابنه كلها من جميل القول .

هذا شئ عن ابن عمار وهذه صورة من حياته وميوله النفسية ، يمكن بها معرفة ما في شعره من الرقة والمعاني الوجدانية ، وما له من السهولة في الأسلوب ولا سيما خلو كلامه من المعاني الجدية أو الفلسفية أو الاجتماعية ، فقد قصر كلامه على الوجدانيات في شكواه وبث آلامه . فليس هو من الشعراء المفكرين ، ولا ممن كان للتربية العالمية أثر في نفوسهم ، وكأنه لم يطلع على شئ سوى أوزان الشعر وعبارات البلغاء . حتى امتلأت نفسه من ذلك ، ومال الى قول الشعر . فأصبح من أكبر الشعراء الوجدانيين

عبد الجليل بن وهبون^(١)

عاش عبد الجليل ابن وهبون في حاشية المعتمد بن عباد، ومر بتلك الأحوال التي مر بها ابن عمار وغيره . من مجون ولهو وطرب ، فكان له نصيب في ذلك . وقالوا عنه ما قالوا في غيره من حب اللهو والميل إلى الغلمان . وذكروا له شعرا كثيرا في ذلك . وكأن كل نفسه كانت منصرفة لهذا ، وليس بعجيب أن ينغمس ابن وهبون في هذه البيئة لانه عاش فيها ، ولأن كل الناس كانوا على تلك الحال.

١ لم ننف على تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته. ولكن عرف عصره الذي عاش فيه ورفاقه الذين عاشهم .

عاش ابن وهبون في عصر المعتمد بن عباد وكان من المقدمين في حضرته، وصديقا للوزير ابن عمار . فهو إذاً من أهل القرن الخامس الهجري ويقولون انه توفي في أوائل القرن السادس قبل سنة ٥٣٣ . هاجر من بلاده كورة تدمير واستقر بأشبيلية حيث عزة الملك والمال كانت في أوجها ، وسوق الادب والعلم رائجة ، وكان من أصحاب الرحلات والنقلة ، يند على الملوك والامراء مع عزة في نفسه . فقد اجتاز مرة بالمرية وقد ملكها المعتمد بن صمادح فاهتزله وعرض عليه مالا وانرا فلم يقبل وكان اليوم عيداً فقال :

دنا العيد لو تدنو به كعبة المنى وركن المعالي من ذؤابة يعرب
فيا أسفا للشعر ترمى جواره وبأبعد ما بيني وبين المحصب

وقد صاحبه ابن عمار وأخلص له ورفع قدره وأكرمه . وسبب ذلك أن ابن وهبون لما قدم شبيلية قصد الاستاذ أبا الحجاج الاعلم مؤدب أولاد ابن عباد . وكان في نفس ابن وهبون أن يكون له بهذا الاتصال شيء من الرفعة . وعلق آمالا كثيرة على ذلك . وحدث أن مدح المعتمد بقصيدة من أحد كبار الشعراء الذين كان يستثقل ظلمهم الاستاذ الاعلم ، وقالوا انه عرض في هذه القصيدة به . فعرضها على ابن وهبون وولاه أمر الرد عليها، فقال في ذلك قصيدة سمعها لجن بها وطار بذكره ، وأعجب به . ولما علم المعتمد به أنزله منزلة عظيمة وقصره على هواه فلم يرحل إلى ملك سواه . وبقي في حضرة المعتمد . ولما بدت الفتنة هناك خرج هاربا ثم تلاقى بعصبة وجيش من جيوش الأعداء فاستشهد على أيديهم .

ولكنه مزج بين الجد والهزل في شعره. فتراهم تارة خليعا ماجنا ، حلوا الكلام عذب .
 العبارة ، منعسا في ملاذه ومسراته انغماس الرجل الذي تسيره أهواؤه ، وكأنه
 لا ينظر الى الدنيا وما فيها غير نظر الماسجين . فاذا أتعبتك خفة روحه ،
 وأفعمت نفسك سرورا من خلاعته ومجونه ، ونظرت نظرة أخرى الى شعره ،
 رأيت ينابيع الحكمة تنفجر من غضونه ، وظننت أنك تقرأ في كتاب حكمة
 وفلسفة ، لا في ديوان شعر وخيال ، أو كأنما تقرأ كلام شاعر حكيم ، بلسان عربي
 مبين ، أو انه نفحة من نفحات المعرى ، أو حكمة من حكم المتنبي
 لم يترب ابن وهيون تربية خاصة ، ولم يعيش عيشة غير عيشة من كان معهم .
 ولكن آراءه ليست كأراء غيره ممن عاشوا معه ، بل ذلك شيء غير معروف
 عند أكثر شعراء الأندلس . فقد عهدنا الأندلسيين برعوا في نوع جميل
 من الخيال ورقة الاسلوب وجزالة اللفظ ، والأوصاف التي دعهم اليها آثار تلك
 المدنية الحديثة ولم يمهدها شعراء العرب . أما ابن وهيون فقد برع في نوع آخر وهو
 الشعر الفلسفي على انه لم يقصر في ذلك النوع ولم يتأخر عن السبق في هذا الميدان

١ شاعر روائعه انه ركب بأشبيلية زورقا في ليلة مظلمة مع جماعة كان بينهم غلام جميل بيده
 شمعتان . فقال ابن وهيون في ذلك :

أعجب بمنظر ليلة ليلاء	تحيا بها اللذات فوق الماء
في زورق يزهي بغرة أمجد	يختال مثل البانة العينا
قرنت يداه الشمعتين بوجهه	كالبدور بين السر والجوزاء
والتاح تحت الماء ضوء جبينه	كالبرق يخفق في غمام سماء

وقال في فتي وقد تابطه وزير جميل .

يا هلال استتر بوجهك عني	ان مولاك قابض بشمال
هبك تحكي سناء خبرا بخير	قم بجفئي لقده بمشال

وقال متفzلا وقد أبدع ابداع المفرمين الفنين .

زعموا الغزال حكاك قلت لهم نعم	في صده من عاشقيه وهجره
وكذا يقولون المدام كريقه	يارب ماعلموا مذاقة نقره

ميدان الخيال. حتى رموه باحجونه أكثر من غيره ، وقالوا ان ذلك حط من شأنه .
ولكنه رغم ذلك من الشعراء المفكرين . وفي الحق ان ذلك لم يكن ناشئاً من تربية فكرية
أو اطلاع واسع على علوم الدين والفلسفة ، ولكنه كان ذكياً مفكراً ، وشاعراً صافى
القرينة ، قادراً على نظم المعاني نظماً شعرياً . ولا بد أن يكون قرأ كثيراً من شعر
المتنبي وأبي العلاء فأخذ يعارضهم في أساليبهم ، أو يجاريهم فيما كانوا ينظمون من
المعاني والموضوعات ، مع بلاغة عبارته . كما قال :

نفسى وجسى ان وضعتها معا	آل يذوب وصخرة خلقت
لوتعلم الأبال كيف مآلها	علمى لما امتسكت لها أرجاء
انا لنعلم مايراد بنا فلم	تعبنا القلوب وتغلب الأهواء
طيف المنايا فى أساليب المنى	وعلى طريق الصحة الا دواء
تتعاقب الأضداد مما قد ترى	جلبت عليك الحكمة الشفاء
ماذا على ابن الموت من ابصاره	ولقائه هل عقت الانشاء
أيفرنى أن يستطيل بى المدى	وانا بحيث تواطت الغبراء
لم ينكر الانسان ماهو ثابت	فى طبعه لو صحت الآراء
ونظير موت المرء بعد حياته	ان تستوى من حسنه الاعضاء

هذه فلسفة منظومة . واذا كان هذا يحسب من الشعر الجميل فذلك لمعانيه
وما فيه من الآراء التى تجذب النفوس اليها ، كما يجذبها الخيال الجميل ، والبلاغة
الساحرة ، فهو من هذه الجهة شعر جميل أيضاً

ولكن الأدباء لم يفهموا هذا النوع من الشعر ، بل لا يقولون انه من باب
الشعر . وقد ظنوا أن الشاعر الذى يحوم حول هذه المعاني إنما دفعه العجز الى

ورودها، ورماء اليها ضيق التصور وجفاف الفكر^١

قال ابن وهبون هذه القصيدة في رثاء أبي الحجاج الاعلم ، وأتمها في مدحه .
ورثاؤه يشبه في جملته رثاء أبي العلاء من حيث معانيه . وقد يكون قرأ
شعر أبي العلاء أو المتنبي . ولكن مهما كانت الحال فليس ادراك ابن وهبون
كادراك غيره من الشعراء . وان كان جارا هم في أساليبهم الشعرية ، فان له ميزة ظاهرة
في المدح نفسه ، الذي هو شكل معروف وطابع اتفق عليه في الادب والخيال ، من
تعداد الفضائل والأوصاف الكريمة كما قال من قصيدة في مدح ابن عمار قال :

قَتَلْتُ بَنِي الْأَيْلَمِ خَيْرًا فَبَاطِي	مَشَيْبٌ وَمَا يَبْدُو عَلَى شَبَابٍ
وَلَمَّا رَأَيْتُ الزُّورَ فِي النَّاسِ فَاشِيًا	تَخِيلُ لِي أَنَّ الشَّبَابَ خَضَابٌ
وَأَلَيْتُ لَوْلَا مَلِكٌ نَحْمُ مُحَمَّد	لَمَا كَانَ مَلِكٌ فِي الْأَنَامِ لِبَابٍ ^٢
وَلَوْلَا ابْنُ عِمَارٍ وَفَاضِلٌ سَعِيهِ	لَأَصْبَحَ رَجُلُ الْمَجْدِ وَهُوَ خَرَابٌ
وَمَا كَانَ يُؤْتَى الْأَمْنُ مِنْ حَيْثُ يَلْتَقِي	وَلَا كَانَ يَدْرِي لِلْحَوَادِثِ بَابٌ
وَلَا أَحْرَقَتْ أَرْضَ الْعَدُوِّ صَوَاعِقُ	وَلَا أَمْطَرَتْ أَرْضَ الْعَفَاةِ سَحَابٌ
وَمَا كَانَ هَرُونَ أَصْحَ وَزَارَةَ	لِمُوسَى وَهَلْ دُونَ السَّحَابِ حِجَابٌ
نَهَوْضٌ وَلَوْ أَنَّ الْأَسْنَةَ مَرَكَبٌ	وَرُودٌ وَلَوْ أَنَّ الْحِمَامَ شَرَابٌ

١ قال صاحب النخبة في ذلك :

وهذا معنى فلسفي قلما عرج عليه عربي . انما نزع اليه المحدثون من الشعراء حين ضاق
عنهم منهج الصواب : وعدموا رونق كلام الاعراب ، فأسرعوا الى هذا الهديان اسراع الجبان الى
تنقص أفرانه . واستجادة سيفه وسنانه . وقد قال بعض أهل النقد انه عجيب في الشعر والنثر أن
يأتى الشاعر أو الكاتب بكلمة من كلام الحكماء أو بألفاظ الفلاسفة القدماء . وانى لأعجب من
أبي الطيب على سعة نفسه ، وذكاء قلبه ، فانه أطال قرع هذا الباب والتمرس بهذه الاسباب .
وكذلك المعرى كثر به انتزاعه وطال اليه ابطاعه ، حتى قال فيه أعداؤه وأشباعه وحسبك من
شرباعه ،

٢ كذا في الاصل

مضى مثل ما يمضى القضاء وهزه همام يهز الجيش وهو هضاب
 كما اقترنت بالبدر شمس منيرة له عن سناها في الخطوب مآب
 أنافت به فوق السما كين همة أناف عليها عنصر ونصاب
 فلفظته يوم المباهاة خطبة ولحظته يوم اللقاء ضراب
 له سنة في الجدد والهزل مثلما تدار كؤوس أو تدق حراب
 وقد نزع أيضاً في بعض شعره نزعاً أبي العلاء والمتنبى في الفخر بنفسه
 ومدحها ، لان تلك كانت الطريقة الجديدة أو بدعة الشعر في ذم الناس والفخر
 بالنفس كقول المتنبى .

الخليل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
 وقول المعرى .
 ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا تجاهلت حتى ظن انى جاهل
 فقد قال ابن وهبون:
 اتخفى على الأيام غر مناقبي وقد بد شأوى شأو كل نقاب
 ويركبنى رسم الخول وقد غدت خصال العلى والمجد طوع ركابي
 سأرمي بهمتى قصارى مراتبي وان كان أذناها يطيل طلايى
 لتعلم أطراف الأسنة اننى كفيل بها عند الصدى بشراب
 وتشهد أطراف اليراعات اننى بهن مصيب فصل كل خطاب
 وليس ندى غير أبيض صارم وليس سميرى غير شخص كتاب
 مضمخة لا بالخلق أناملى مزعفرة لا بالعبير حرابى
 ولكن بنفج ينجل الروض زاهرا ولكن بدعسى فى كلى ورقاب
 وربما كانت تملأ نفسه حكم المتنبى وأسلوبه فينسج على منواله ، حتى لقد

يُخيل اليك أنك تقرأ شعر المتنبي وقوافيه . ولعل ذلك كان من ضرورب التقليد
والحكاكاة أكثر منه من باب التفكير والابتكار . ولكنه يدل على ميل ابن
وهبون الى التفكير وحب الكلام فى المعانى الجديدة ، والبحث فى بعض أحوال
الناس ووصف بعض الأخلاق ونقدها ، وإظهار عدم رضاه عما يرى ويسمع فى
الحياة وهو يتخذ الشعر وسيلة من وسائل التعبير وجمال القول . كما قال :

أطلتُ فى الدهر تصعيدى وتصويبى	ودهر ذى اللب مضمار التجارب
ورُبَّ آخر لا يُهدى إلى فـه	أصاب غرة مأمول ومرغوب
وأفتى أدب باد فضيلته	من حيث يشفع لى قد صار يغرى بى
كفى من الحظ أنى لا أنافس فى	حظ ومخبرتى تكفى وتجربى
وقد أرى صورا فى الناس مائلة	أشبهها بين تحقيق وتكذيب
لما ملأت يدى منهم لأخبرهم	نفضت كفى باشباه اليعاسيب
بيض وجوههم سود ضماهم	فما حصلت على عـرب ولا نوب
الصدق أولى بمن ييدى ضعيفته	لا تجعل الصدق من نعت الأصحاب

مع هذا فكان ابن وهبون يجارى الشعراء فى صناعتهم من مدح صناعى
وكلام صادر من غير شعور . وذلك لنمكن ملكة الشعر منه واحتياجه الى هذه
المجاراة . ولمكن ذلك لم يكن يخلو من نظرائه وملاحظاتة ، مما يدل على انه كان كثير
التفكير . ولقد يمزج بعض آرائه النقدية بعباراته الشعرية مع شىء من التهمك
فتجد كل ذلك جميلا . كما قال وقد توقف مرتبه عند العامل

ألستم ممشرا الاملاك طائفة	تقضى بتخليدها هذى الأناشيد
فان نقصتم أناسا من نوالكم	فحق منكم لأهل الشعر تزويد
لكم خلقنا ولم نخلق لأنفسنا	فانما نحن تحميد وتمجيد
يا صاحب المجد ان المجد سائمة	تضل اذ لم يكن بالشعر تقييد
خذنى بماشت من غراء شاردة	يصغى الأصم اليها وهو مفؤود

واعذر بتقصيرها من لا يزال له
لا يدرك القوت مما أنت واهبه
ليس للشعر الا خاطر يقظ
وما المدائح الا بالملوك وهل
في ساقه الرزق ارقال وتوخيد
حتى يطول من المال تنسكيد
يهزه منك ترفيد وتأيسد
يبدي سنا المعقد الا النحر والجيد
وكما قال:

قل للرشيد وقد هبت نواخه
أشكولديك الندى من حيث أحده
ياقاتل الشكر بالاحسان يغمره
عجبت من كرم في راجتيك بدا
آثرت عندك من جاه ومن نسب
يلواحداً تقتضي آلاؤه مجلا
للناس بعدك في العليا منازلهم
أسرفت ياديمة المعروف فاقتصد
لوفاض فيضاً على البحرين لم يزد
مهلا أما لقتيل الجود من أود
اسرافه كيف لا يعزى الى الفند
حتى وجدت الغنى في همتي ويدي
برحت بي وبنظم الشعر فانتد
والواحد الفرد يحوى مبدأ العدد

وبرع في الوصف وفي كل ما قال فيه ، فقد وصف قصرا بقصيدة طويلة
جيدة المعنى ، ولم تخل من بعض الآراء لأنه لم يكن يسرد الكلام سرداً بدون
فكر . قال في هذه القصيدة :

وللزاوى الكمال سنا وحسنا
يحاط بشكله عرضاً وطولاً
تواصلت المحاسن فيه شتى
وقدر مثل ركز الطود ثبت
تدافع من جوانبه اثلافا
فلو أدنوا حرام السحر منه
سواء ترمى بعباب تبر
كما وسع الجلالة والكمالا
ولكن لا يحاط به جمالا
فوفد اللحظ ينتقل انتقالا
ومختال من الحسن اختيالا
يكاد المستبين يقول مالا
لأضحى يعبد السحر الحلالا
كأن بها اكما أو تلالا

فقد كاد اليبس يهاب منه ويحسب ان بحر الجو سالا
فما أبقى شهابا لم يصب ولا شمساً نير ولا هلالا

ومنها في الحكم

تزاحمت الميوم خلال صدرى فما تركت لأفاسى مجالا
وما خلت الزمان يكون ثقلا ولا نفحاته تأتى وبالا
كأنى كلما استنشقت منه أردت به الى كبدي نصالا
وكيف يصح ذو قلب أبى اذا كان الابهاء له نكالا

هذا هو عبد الجليل بن وهبون . وهو وان لم يكن من الشعراء المعروفين
بكثرة الكلام ، فان شعره صورة من صور الأدب فى الأندلس القليلة المثال.
بل هو من الشعراء الذى كانوا يحاولون الانتقال بالشعر من الخيال الصرف الى
المعانى العامة . أو الى نوع من فلسفة التفكير التى تدل على ان حسن الديباجة
وجمال الأسلوب يجعلان الفلسفة شعراً ، والتفكير العميق فى باب الخيال الجميل

ابن حمديس الصقلي^(١)

ولد عبد الجبار بن حمديس بجزيرة صقلية. ولم يكد يتنسم ريح الشباب حتى وقعت بلاده في يد النرماندين، الذين لم تكد تظا أقدامهم تلك الجزيرة حتى نكلوا بأهلها كل تنكيل، وأذاقوهم العذاب الأليم، وحلومهم على ترك دينهم، وفتكوا بأعراضهم، وأذلومهم وأهانوهم في شرفهم. فشاهد ابن حمديس، ذلك ورأى بعينه كيف تسلب الأوطان من أهلها، وكيف يجرؤ القوى على سلب حقوق الضعيف، وينقضّ عليه كما ينقضّ اللص ذو القوة والطول، على الضعيف السليب من كل قوة وحول.

لذلك أثر الهجرة على البقاء بين قوم اغتصبوا بلاده. وكان لهذا أثر عظيم في نفسه وخياله الشعري وأخلاقه حتى أصبحت نفسه من النفوس المظلمة، وصدره من الصدور المنقبضة، واستولى عليه البؤس بسبب هذه الحوادث. فهاجر الى أسبانيا ونزل بأشبيلية، وعاش في حاشية المعتمد بن عباد وصار في جملة شعرائه، وتبعه في منفاه. ولم يكن ابن حمديس معروفا عند قدومه الى أشبيلية. فقد قال:

«أقمت بأشبيلية لما قدمت على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت الى، ولا يعباي، حتى قنطت لخيتي مع فرط تعبي، وهممت بالنكوص على عقبي. فاني لكذلك ليلة

١ ولد أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الازدي الصقلي سنة ٤٤٧ هـ في جزيرة صقلية وفي سنة ٤٧٦ هـ هاجر الى أسبانيا وعاش في أشبيلية وتوفي سنة ٥٢٧ هـ بجزيرة ميورقة

من الليالى فى منزلى اذ بنلام معه شمعة ومركوب، فقال لى أجب السلطان. فركبت من فورى ودخلت عليه فأجلسنى على مرتبة فَنَكَّ^١، وقال لى افتح الطاق اتى تليك ففتحتها، واذا بكُور زجاج على بعد والنار تلوح من بابيه، وواقدة تفتحهما تارة وتسدهما أخرى، فحين تأملتها. قال لى أجز .

انظرهما فى الظلام قد نجما . فقلت: سكارنا فى الدُجْنَةُ الأسد فقال: يفتح عينيه ثم يطبقها . فقلت: فعل امرى فى جفونه رمد فقال: فابتزه الدهر نور واحدة . فقلت: وهل نجا من صروفه أحد فاستحسن ذلك وأمر لى بجائزة سنية وألزمى خدمته^٢ »

أما نفسه فنفس رجل ربه الحوادث ونالت منه الايام . وأذاقته مرها قبل حلوها . فنقلت عليه الحياة . ولوت من ظهره بعد ان أخرجته من وطنه وليس له الالسانه وخياله . وقد كان لبلاده أثر طيب فى نفسه ومنزلة رفيعة وحب جم . فلما اضطر الى الهجرة والنزول فى غير أهله تعست نفسه، وأظامت فى وجهه الدنيا وكثر حنينه الى بلده، وصار ذلك من أظهر صفاته النفسية مهما حاول الخروج منه الى وصف الملمات أو التظاهر بالمسرات . ولقد يلمح الانسان هذا فى كل شعره حتى فى الغزل والخريات والمدح والوصف .

وأما عقله فكان ميالا الى ادراك الاشياء والمعانى ادراك من يحاول فهم ما يرى ويفكر . فقد كان يرغب دائماً فى تشبيه المحسوسات بالمعقولات، والمعقولات بالمحسوسات^٣ . وهذه طريقة من طرق المحاولة فى الادراك . وأكثراهتمامه فى تشبيهاته موجه الى وصف المراثيات وادراكها . ولقد تظهر حركة عقله عند قراءة شعره بسبب انتقاله من معنى الى آخر، ومحاولة الخروج من طريق واحد الى طرق

١ دابة فروتها أطيب أنواع الفراء

٢ نفج الطيب جزء ٢ صفحة ٤١٦

متشعبة . أما قوته الشعرية التي بها تكوين هذه الاشياء ووضعها في أسلوب خيالى جميل فتابعة لنفسه وعقله ، وأ كثر اعتماده في ذلك على ما يكتسبه من التأثر بظواهر الأشياء وما فيها من التشابه بالجمال .

ذلك أسلوبه في شعره أو أن هذه هي صفات شعره : يشكو الزمان ونصيب الحر منه وكثرة نوبه ، ويأتى في خلال ذلك بعبارات شعرية جميلة تدعو القارئ الى الشعور بما يشعر به هو

وعلى الرغم من صبغته الجدية في شعره ، فإن كثرة كلامه في الحزن ومجالسه والمشي وآثاره ، تدل على انه كان يميل الى شيء من المجون ، ولكنه كان أقل من غيره في ذلك فإن الانسان لا يكاد يرى للتهتك أثراً في كلامه . ولولا انه عاش في هذا العصر وفي حاشية المعتمد بن عباد ، لقننا انه كان بعيداً عن اللهو والمجون ، ولعلنا شعره الذى جاء في هذا على نوع من الصناعة والخيال ، اذ اننا نجد في كثير من شعره يميل الى الكلام في المواعظ والعبر ، أو الى بعض الآراء التي تدل على انه كثيراً ما كان يدفعه الفكر الى خوض المعاني النفسية أو الخواطر الفلسفية ، ويمزج هذه الافكار ويصوغها في أنواع شعره . ويظهر من شعره انه أنضج من غيره وأكثر تأثراً بالمعاني الاجتماعية من سواه . ولهذا أيضاً نراه شاعراً مفكراً من أصحاب الملاحظات والنظر في الحياة والاجتماع أكثر منه شاعراً وصافاً كما هو معروف عنه . ويمكن الاستدلال من هذا على تربيته العقلية وحالته الفكرية .

وقد أبدع في هذا الشعر الجدى المملوء بالعبر والحكم . كما دل على انه مفكراً أكثر منه خيالياً لاشتمال شعره على جولات فكرية مملوءة بأحواله النفسية ، والآلام التي يشعر بها ، وكثيراً ما تظهر هذه الآلام آلاماً لجميع الشاكين والمتألمين من الحياة ، كما نظهر آلام العاشق الشاعر آلاماً لكل العاشقين . لذلك كان ابن حمديس شاعراً نفسياً نالماً على الحياة وما فيها . كما قال

هل أقصر الدهر عن تمنيت ذى أدب
لا يلحظ الحر الا مثلما وقعت
وكيف يصفو لنا دهر مشاربه
ان الزمان بما قاسيت شيني
ولو خلا الدهر ذو الأبناء من عجب
قرأت وحدي على دهرى غرائبه
أحلت عزمي على همي فقطعه
ماقر بي السير في سهل ولا جبل
ولم أضق في السرى ذرعا بمعضلة
وترتقى حر أنفاسي فابعثه
وأحر بالحر ان تلقاه ذا جلد
ولقد تنقبض نفسه فتحرك خياله
الحاقد، ويعدد مساوئها ويندب أوقات الشباب، وكأنه واقف على أبواب الموت
يودع الحياة ويطلب المغفرة من الله ذلك وهو في حالة كآبة نفسه متأثرة بهنمه
الخواطر . كما قال :

وعظمت بلمتتك الشائبة
وسبعين عاماً ترى شمسها
فويحك هل عبرت ساعة
فرغت لصنعك ما لا يقيق
وغرتك دنيائك اذ فوضت
أصاحبة خلها ؟ انها
وفقد شبيبتك الذاهبة
بعينك طالعة غاربة
ونفسك عن زلة راغبة
كأنك عاملة ناصبة
اليك أمانيتها الكاذبة
باحداثها بثست الصاحبة

اما سلبت منك برد الشباب فهل يسترد من السالبة
 وان دقائق ساعاتها لعمر ك آكلة شاربة
 وان المنية من نحوها عليك باظفارها وائبة
 ألم ترها بمحصاة الردى لكل حيم لها حاصبة
 كأن لنفسك مغنيطسا غدت للذنوب به جاذبة
 فيا حاضرًا ابدا ذنبه وتوبته أبدا غائبة
 أذب منك قلبا تجارى به سوا كب عبرتك الساكبة
 على كل ذنب مضى في الصبا وأتعب اثباته كاتبه
 عسى الله يدركك العقاب والا فقد ذمت العاقبة

وقد يكون ابن حمديس من أكبر شعراء العرب وأفضلهم، لأن لشعره صبغة
 خاصة ليست معروفة كثيراً في الشعر العربي : تلك الصبغة هي محاولة الخروج
 من الوجدانيات التي هي أكبر مظاهر الشعر العربي ، الى الكلام عما يجول
 بالنفوس ، لا من جهة الخيال وما به من الجمال لا غير ، بل من جهة التفكير أيضاً
 وما يمر بنفس الانسان وما يشعر ويحس من حوادث الحياة وأشكالها ،
 وما يعتريه من حيرة وشك و يقين ، وكراهة للوجود أحياناً ، وميل الى البقاء تارة .
 ذلك بعرض صور الحوادث المؤلمة التي تزهد في الدنيا وتنفر الانسان من رؤيتها
 وتلك بوصف أوقات الانس ولحظات السرور ، من حسن الذكرى ووصف
 بمجالس اللهو والطرب والخمر ولذتها ، والجمال وأثره في النفس وغير ذلك من
 أصفى وجوه الحياة وأجمل صورها .

فهو في كل أنواع شعره جاد لا مازح . ولذلك تجد أثر فكره وحركة عقله
 في كل كلامه ، وتشعر بنفسه المفكرة اذا قرأت شعره ، كما تشعر بتلك الحيرة التي
 هي أصل كل تفكير ، وكما تشعر بسعة خياله الشعري واذا اجتمعت قوة الفكر

وسمة الخيال لانسان كان من أ كبر الشعراء ،فاذا كانت حاسته النفسية التى هى رقة شعوره قوية أيضاً كان فى مقدمة الشعراء . كل ذلك فى شعر ابن حمديس . فهو شاعر نفسى فى مقدمة شعراء العرب المفكرين . بين فى شعره ما تنطوى عليه نفسه ، ولكن لا بصفته الشخصية الفردية ، بل بصفته انساناً أمثاله كثيرون . واذ كان كثير التفكير فى ظلمات الحياة وجوها العابسة وميالا الى التأمل فى ذلك أ كثر من التفكير والنظر فى وجوها النضرة الباسمة غلبت على شعره صبغة التشاؤم . أ كان كذلك لأن نفسه كانت مريضة وأعصابه مضطربة ؛ قد يكون هذا . وربما كانت رقة شعوره تقود عقله وتملك منه ادراكه ، وكان اغترابه عن وطنه ونزوح الأعداء اليه ووقوعه فى غير قبضة أهله من الأسباب التى أثرت فى نفسه واستولت على عواطفه . فكان يشعر بضيق ويكره الحياة وينحى باللوم على نفسه وينهرها . ولكنه لم يكن فى ذلك فيلسوفاً ، بل كان يميل الى أمثال أفكار المتصوفة فى لوم النفس والنيل منها . ولقد كانت تملكه هذه العاطفة أحياناً ، عاطفة الندم أو توبيخ النفس ، فىرى نفسه ذليلاً حقيراً ، وكأنه يبكي على ذنوبه وهو حزين كئيب . ولكن ما أجمل حزنه الشعرى وأرقه فى هذا الأين . حيث يقول :

ياذنوبى ثقلت والله ظهري	بان عذرى فكيف يقبل عذرى
كلما تبت ساعة عدت أخرى	لضروب من سوء فعلى وهجرى
ثقلت خطوتى وفودى تفرى	غيب الليل فيه من نور فجرى
ربّ موت السكون فى حركائى	وخبا فى رماده خمر جمرى
وانا حيث سرت آكل رزقى	غير ان الزمان يأكل عمرى
كلما مر منه وقت بربح	من حياتى وجدت فى الربح خسرى
يارفيقا بعبده ومحيطا	علمه باختلاف سرى وجهرى

هل بقلبي الى صلاح فسادى منه واجبر برأفة منك كسرى
وأجرنى بما جناه لسانى وتناجت به وسوس فكرى
أو كقولوه وهو يفكر فى نفسه وحياته وكأنه متصوف ، ولكنه مع ذلك شاعر
جهيل القول :

كملت لى الخسوس والخس ووقعت فى مرض له نكس
ووجدت بالاضداد من جسدى غصنا يلين وقامة تقسو
وتنافرت عنى الحسان كما لحظ المصور جاذر خنس
وأبيض من فودى من شعري وحف كأن سواده النفس
والعمر يذبل فى منابته غرس ويلبس نضرة غرس
الى أن قال

وأقل ما يبتلى الجدار اذا ما انهد تحت بناءه الأس
يارب ان النار عاتبة ولكل سامعة لها حس
لا تجعل جسدى لها حصبا فيه تحرق منى النفس
وارفق بعبد لحظه جزع يوم الحساب ونطقه همس
وكقولوه فى الشكوى :

أسلمنى الدهر للرزايا وغير الحادثات قفشى
وكننت أمشى ولست أعيا فصرت أعيا ولست أمشى
كأننى اذ كبرت نسر يطعمه فرخه بعش
ومن دعاياته فى ذلك :

نومى على ظهر الفراش منغص والليل فيه زيادة لا تنقص
من عاديات كالذئاب تذاءبت وسرت على عجل فما تتربص
جعلت دمي خرا تداوم شربها مسترخصات منه مالا يرخص
فترى البعوض مغنيا برابة والبق تشرب والبراغث ترقص

وكانت تثور نفسه ثورانا وتغلى غليان الرجل فتنتطق بالشعر وكأله زاهد
في صومعة . أو ناسك في دير أو تقي من كبار التقاة . فيقول :

يبتك فيه مصرعك	وفي الضريح مضجعتك
غرثك دنيالك التي	لها شراب يخدعك
همت بحب فارك	وقلما تمتعك
يضررك الحرص بها	والزهد فيها ينفعك
لا تأمن منية	ان عصاها تفرعك
مغربك القبر الذي	يكون منه مطلقك
ان فرقتك تربة	فالله سوف يجمعك
وللحساب موقف	أهواله تروعك
كم جر ما أشفقت من	لسك منه أصبعك
فكيف بالنار التي	من كل وجه تلهعك
يراك ذو العرش اذا	ناديته ويسمك
فثق به ولا يكن	لفيره تضرعك

وقد تجول نفسه جولات في ذكر أيامه الماضية ، فيذكر كل ما يخطر بباله ،
ويسطر الماضي كما يسطر الكاتب مذكراته في كتاب ، أو كما يرسم المصور
صورة من ماضيه على اختلاف أحواله . وهو يخرج من معنى ليدخل في معنى آخر
بين جد وهزل ، ولكن كل ذلك بصيغة الرجل الجاد المفكر ، وكأنما تمر أمام
القارئ سلسلة حوادث ، أو صور جميلة يتمتع بها ويتعظ منها . قال في إحدى هذه
القصائد :

قضت في الصبا النفس أوطارها	وأبلغها الشيب اندارها
نعم وأجبلت قداح الهوى	عليها فقسمن أعشارها

وما غرس الدهر في تربة غراساً ولم يجن أثمارها
 فأنيت في الحرب آلاتها واعدت للسلم أوزارها
 كمينا لها مرج بالفتى اذا حثَّ باللهو أدوارها
 تناوها الكوب من دنها فتحسبه كان مضارها
 وساقية زررت كفها على عنق الظبي أزارها
 تدبر بياقوتة درة فتغفس في مائها نارها
 وفتيان صدق كزهر النجوم كرام النجائر أحرارها
 يدرون راحات فيض الكؤوس على ظلم الليل أنوارها

ثم أخذ في وصف دير وصاحبة هذا الدير وما عندها من خمر، وأبدع في وصف الخمر بابتكارات عجيبة، وخیالات غريبة. ووصف ملهى من الملاهي وفيه القيان ترقص وتغنى وهو يقص ذلك ويحكى حكاية، وكأنك جالس في ذلك الملهى ترى خطرات الراقصات وتسمع أصوات الغناء، ولقد تشعر بشدة تمكنه من صناعة الشعر ودقة وصفه وسهولة أسلوبه . قال .

وراهبة أغلقت دبرها فكنا مع الليل زوارها
 هداها إليها شذى قهوة تذيع لأنفك أسرارها
 طرحت بميزانها درهمي فاجرت من الدن دينارها
 تفرس في شمشها طيبها بجيد الفراسة فاختارها
 فتي دارس الخمر حتى درى عصير الخمر وأعصارها
 يعد لما شئت من قهوة سنيها ويعرف خمارها
 وعدنا الى هالة أطلعت على قضب البان أقارها
 يرى ملك الله وفيها الهبوم تشور فيقتل ثوارها
 وقد سكنت حركات الأسى قيات تحرك أوتارها

فهذى تعانق لى عودها وتلك تقبل رِزمِارها
وراقصة لقطت رجلها حساب يد نقرت طارها
وُقْض من الشمع مصفرة تريك من النار نُوارها
كأن لها عمداً صفت وقد وزن العدل أقطارها

الى ان قال

ذكرت صقلية والأسى يهيج للنفس تذكارها
ومنزلة للتصابى خلت وكان بنو الظرف عمارها
فان كنت أخرجت من جنة فأنى أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكا حسبت دموعى أنهارها

وشكى فى قصيدة طويلة آلامه فذكر صبره على ذلك، وذكر غربته، وهجر
وطنه ، وان ذلك كان من أكبر محنه . ثم ذكر شكاته من الناس وهو يضرب
الامثال فى أثناء ذلك ، وفيالاق من الأهوال بانفراده فى عزله حتى عن خيال
كان يزوره . ثم أخذ يتسلى بمدح نفسه ويتغنى بفضله الجم وذكر لىاليه الماضيه،
وعرج على ذكر وطنه ونكبة بلاده باستيلاء الاعداء عليها وأخذ يصف أهل بلده،
وما كان لهم من صفات الكمال والشهامة ومنازلة الحرب بافضل وأجل ما يصف
شاعر قوما يعتز بهم ، ويشرف بالانتماء اليهم . وختم كلامه بالحنين الى وطنه ،
والبكاء على أهله . فقال :

تدرعت صبرى جنة للنوائب فان لم تسالم يازمان فحارب
عجبت حصاة لا تلين لعاجم ورضت شموماً لا يذل راكب
كأنك لم تقنع لنفسى بغربة اذا لم أنقب فى بلاد الأغارب
فُطمت بها عن كل كأس ولذة وأنفقت كنز العمر فى غير واجب
بييت رياش العضب فى ثنى ساعدى معاوضة من جيد غيداء كاعب
وما ضاجع الهندى الا مُثَلِّماً مضارب به يوم الوغى فى الضرائب

فكست وفدّى في الصّبّا مثل قدّه عهدت اليه أن منه مكاسبى
 فان تك لى في المشرقيّ ماّ رب فكم في عصى موسى له من مآرب
 ثم أخذ ينكلم عما في نفسه من ذكرى الحوادث الماضية ، وخيانة الناس
 والأأيام ، وهو يتمثل أثناء الكلام ببعض الحقائق المعروفة للناس جميعاً ليثبت
 بها معانيه ويجسمها للقراء . ولم يخرج في مجموع أسلوبه عن الأسلوب العربي
 المعروف من كثرة استعمال المجاز والغموض في بعض العبارات ، وذكر الركب
 والرحل والنوى وركوبه القلاص وهزلها . كقوله

أتحسبني أنسى وما زلت ذا كراً خيانة دهرى أو خيانة صاحبي
 تغدى بأخلاق صغيراً ولم تكن ضرائبه الاخلاف ضرائبي
 ويلربّ بنت تمرّيه مرارة وقد كان يستقى عذب ماء السحاب
 علمت بتجريي أموراً جهلتها وقد تجهل الأشياء قبل التجارب
 ومن ظن أمواه الخضارم عذبة قضى بخلاف الظن عند المشارب
 ركبّت النوى في رحل كل نجيبة تواصل أسباي بقطع السباب
 ولما رأيت الناس يهرب شرهم تجنّبهم واخترت وحدة راهب

وعجيب تلك العادة التي ابتلى بها الشعراء في مدح أنفسهم مدحا يخجل
 منه القارئ . فكيف بالشاعر وهو يضع نفسه فوق كل شيء ؟ هل هذا من
 الأساليب الشعرية ؟ لعله من وسائل التسلية ، على ما فيه من المبالغة والتغنى
 بمدح النفس . ولكن مهما يكن من شيء في هذا فإنها بدعة عجيبة في الشعر العربي
 وأسلوب غريب .

وبينا الشاعر يكيل لنفسه المدح كيلا ، ولا يقنع بشيء منه تراه فاجأك
 بذكر آخر ووصفها ومدحها . وانك لنكاد تشمل من ذلك ، وإذا هو ينتقل الى
 الكلام في وطنه ويذكر بلده ويمدح أهله . فيقول .

ولى فى سماء الشرق مطلع كوكب
متى تسمع الجوزاء فى الجو منطقى
وكم لى به من صنود محافظ
أخى ثقة لا دسه الراح والصبأ
معتقة دع ذكر أحقاب عمرها
إذا خاض منها الماء فى مضر الحشا
ولو ان أرضى حرة لأتيتها
ولكن أرضى كيف لى بفكاكها
الافى ضمان الله دار بنوطس
أمثلها فى خاطرى كل ساعة
أحن حنين النيب للموطن الذى
ومن يك أبقى قلبه رسم منزل
تمنى له بالجسم أوبة آئب
هذا خلط فى تركيب القصيدة ، ولكنه خلط معهود عند شعراء العرب ،
فالقصيدة من هذه الوجهة من الشعر العربى الجليل . على ان هذا شاعر عرف
كيف يتكلم عن شعور ، وكيف يطبع نفسه حين تدفعه الى الكلام ليصور
خفاياها ويبين مكنوناتها .

وله فى الوصف براعة معروفة ، واستحضار عجيب لصور الأشياء والتشبيهات ،
ودقة فى جمع الأشياء وتنسيقها ، كأنما تراه يجمعها وينسقها بيده ، أو كأنه يفوس على
المعنى الخفى فىأتى به ويضعه فى موضعه . ولقد يتكلف أحيانا جمع هذه المعانى ، حتى
كأن كل كلمة أختطفت من مكانها لتوضع فى مكان آخر . ولكنك تراها
كالعقد يؤخذ من عنق الحسناء الى عنق العانية ، فلا يفقد قيمته ولا تضارته

وكأنك وأنت تقرأ كلامه ترى بعينك ما يصف وتحس ما يقول . لأنه كان ذا شعور قوى ونظر ناقد . لا يكاد يشعر بشيء الا ذكره في شعره ، ولا تكاد تمتلئ عينه بمنظر الا وصفه كأنه كان مملوءا بذلك ، وكأن هذه كانت كل حياته ، لذلك كان يقول في المعنى الطريف ، كما يقول في المعنى المبذل . ولكن الابتذال يضيغ أمام شعوره بالجمال وحسن صناعته .

ولا تكاد تقف له على غور في الوصف ، ولا على أسلوب واحد ، لأنه يميل الى الاختراع : ويصف الصيد والليل ، ويدكر رفاقه ، ثم يعرج على السرور والكلام في الخمر ، ثم يرجع الى الطبيعة ، فيحن اليها ، ويصف طلوع الصبح . ثم يصف الخيل وكلاب الصيد وحركاتها ووثبتها . وكثيراً ما يكون وصفه حقيقياً ، أكثر منه خيالياً كأنما يرسم ما يرى . كما قال :

وليطة حالكة الارار مدت جناحاً كسواد القار
تجربنا غرة النهار عقرت فيها الهمم بالعقار
بجسم ماء فيه روح نار في مجلس ضم بنى الفخار

كما في قوله يصف شجرة

١ فتاة من الشمع مركوزة لها جربة طبت من لب
تحرق بالنار أحشامها فتدمع مقلتها بالذهب
تمشي لنا ورها في الدجى كما يتشى الرضى في الغضب
عجبت لآكلة جسمها بروح تشاركها في العطب

وكما قال يصف ساقية

دساقية تنقى الندامى بعدها كؤوسا من الصبء طاغية السكر
يمود فيها كل جام كأنما تضيئ روع الشمس في جبد البدر
إذا قصدت ما نديما زجاجة تناولها رفقا انمله العشر
وهرسلها في مائها فيعيدها للراحتي ساق على حكمه تجري

كفالة تفضحك عن أقمار
من كل يَمِر في حى الدمار
يُسْقُونَ من ساطعة الأنوار
تزاحمت بالنجم دراري
مهن مال ومعز جار
كثيرة الأسماء والأعمار

الى ان قال :

قنا لنسقى عرض الحنار
بكل طرف سَلَب مطّار
الى ان قال :

فمر بي غيم من الغبار
كأنما يطلبه بنار
يخذه بيزمّع صغار
من ابن ريم في قيص نار
فلو ترانا في انتزاح الدار
نأكل من صيد أبي العقار
يشكل فيه أحرف الآثر
ماذا يريد الظبي بالفرار
حذف المولى باليد اليسار
وهومع الاجهاد والاضرار
في روضة كالغداة المطار
ونشرب الصهباء بالكبار

ما كنت الا خالغ العذار

ويصف مجلس أنس وما يدور فيه ، فتجده ينسى أحياناً نفسه المظلمة ،
ويكعب على اللهو والمجون وكأنه من أكبر رجاله ، ويندكر المبارات التي تدعو
الى الخوض في غماره ، والى انتهاء هذه الاوقات حتى بعد فوات الشباب الذي
يبكي عليه ، بما لا يكون ارق منه ولا ادعى للحسرة وهو يتنفس الصعداء ، ويسلى
نفسه بهذا الكلام ، ووصف هذه المجالس ، ثم يرجع على نفسه بالميرة والعظة
أو تمود اليه نفسه المتشائمة أثناء هذا الهرج والمرج فيفتيق من ثورة سروره
ومجونه ، ويندكر أنه وصاف وصانع من صناع الكلام ، وأنه ليس من أهل

١ سلب طويل عظيم ومطار عداء سريع السير

هذه المجالس ، ولا من شراب الخمر ، ويرجع الى التقوى والندم على الذنوب .
فيقول :

حبذا فتيات صدق عرسوا بمذاوى من سلافتِ الخمر
عزبد الصحو عليهم بالأسى فاتفاه السكر عنهم بالسرور
عمرّوا ربع الصبا من قبل أن يتمشى فيه بالشيب دثور
ان للأعمار أعمازا إذا بلغت لم تمن منهن صدور
كل نافي العسر في شرته للصبأ نار وفي الوجنة نور
يقتنون العيش من قابضة ذات عمر كثرت فيها الدهور
أطلع الساقى عشاء منهم أنجم الكسرات في أيدي البدور
عدّ بالاكواب عني ان لي في يد الآنس عنهن نفور
عمر الشيب الدجى من لمي بنجوم طلع ليست تغور
لا نشور لشبابي بعد ما مات من عمرى الى يوم النشور
وخضاب الشيب لا أقبله إنه في شعري شاهد زور
أنا من وجدى بأيام الصبا أذرف الدمع رواحا وبكور
فكأنى ذو غليل تلتظي لوعة منه الى ماء الثغور
أصف الراح ولا أشربها وهى بالشدو على الشرب تدور
كالذى يأمر بالكر ولا يصطلى نار الوغى حيث تغور
فسواء بين اخوات الصفا وذوى اللهو مفى والحضور
أنا من كسب ذنوبى وجل وان استغفرت فالله غفور
وقد اشتهر بوصف القصور . كما قال :

كم شاخص فيه يطيل تعجبا من دوحة نبئت من العقيان
عجبا لها تسقى الرياض ينابعا نبعت من الثمرات والاغصان

١ مكدا الى الاصل

خضت بظائرة على قن لها حسنت قافرد حسنها من ثان
قُس الطيور الخاشعات بلاغة وفصاحة من منطق وبيان
فاذا أُنيج لها الكلام تكلمت بخرير ماء دائم الهملان
وكان صانعها استبد بصنعة نغر الجناد بها على الحيوان
أوفت على حوض لها فكأنها منها الى العجب العجائب روائى^١
فكأنها ظننت حلاوة مأبها شهدا فذاقته بكل لسان
الى ان قال :

كم مجلس يجرى السرور مسابقا منه خيول اللهو في ميدان
يجلو دماء على الحدود ملاحه فكأنه المحراب من غمدان
فسماؤه في سكبها علوية وقبابه فلكية البنيان
وكفوله :

واذا نظرت الى غرائب سقفه أبصرت روضاً في السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده الى حامت لتبنى في ذراه وكورا
وضعت به صناعه أقلامها فأرتك كل طريدة تصويرا
وكانما للشمس فيه ليقة مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكانما للأزورد مخرم بالخط في ورق السماء سطورا
وكانما وشوا عليه ملأه تركوا مكان وشاحها مقصورا
يامالك الارض الذي أضحي له ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور الملوك تقدمت واستوجبت لقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكت كل رئاسة منها ودمرت العدا تدميرا^٢

١ كذا في الاصل

٢ راجع القصيدة في الديوان المطبوع في رومه ص ٤٨٢

وقد يتغزل فيخاطب حبيبته بما في نفسه من ألم، وما يلاقه في سبيلها من
شهامة الاعداء، وما يتمناه من الصبر في سبيل ذلك. ثم يستحلفها بما لها من الدلال
أن تكف عن أسر قلبه . وهو يستعطفها ويدل في آن واحد . فيقول .

عذبت رقة قلبي	ظلما بقسوة قلبك
وسمت جسمى سقما	وما شفيت بطبك
أسخط كل عدو	رضيته لمحبيك
من لي بصبر جميل	على رياضة صعبك
فيا تشوقاً بعدى	الى تنسم قربك
ووجنة غمستها	في الورد صنعة قربك
لقد جنحت لسلمى	كما جنحت لحربك
فبالدلال الذى زاد	في ملاحه عجبك
فكفي من الأسر قلبا	عليه طابع حبك
ونعمينى بعنبي	فقد شقيت بعقبك

ويمدح على الأسلوب المعروف من حيث البدء بالنسيب. وقد يطيل في ذلك
وربما لم يكن له ميزة في غير الاسلوب ، وربما كان مدحه كفضله ، ولكنه مدح
جميل على الرغم مما يشعر به القارئ من الثثرة . غير أن المعانى تنهل عليه انهيالا
فيعذب الكلام . كما قال .

غيرته غير الدهر فشاب	ورمته كل خود باجتنا
فغدا عند الغواني ساقطا	كسقوط الصفر من عد الحسا
وتولى عنه شيطان الصبا	اذ رماه الشيب رجما بشهاب
وكان الشعر منه سعف	يلتظى فيه شواظ ذو التهاب

أيتها المغرى بتأنيب شج سلط الوجد عليه نهل أناب
 هام لاهمت من الغيد بمن حبها عذب وان كان عذاب
 لمت لا لمت عميدا قلبه عن سماع اللوم فيها ذو انقلاب
 والهوى باق مع المرء اذا كان من عصر الصبا عنه ذهاب
 بأبي من أقبلت في صورة ليس للتائب عنها من متاب
 كل حسن كامل في خلقها ليتها تنجو من العين بعباب
 فالقوام الغصن والردف النقا والأقاح الثغر والطل الرضاب
 ظبية في العقد إما التفتت ومهاة حين ترنو في النقاب

ويذكر الخمر وكان الناس جميعاً سكارى ، وفي كل رأس نشوة وحيرة .
 وكان الخمر حلال لا حرام ، أو كأنها أكل شيء في الوجود ، لانه يصفنها بأكل
 الصفات وأجمع سمات الكمال واللذات . ويخيل الى الانسان انه لم يبق كلمة
 تمت الى الخمر بقراءة الا ذكرها ، أو معنى يدب في النفس بديدها الا قاله ،
 والقارىء يشمل بذكر الخمر كما يشمل بأسلوب الشاعر وعذوبته ، وكأن أحدا لم يقل
 مثله في ذلك كما قال :

وجسم له من غيره روح لذة سليل ضروع أَرْضعت حَلَبَ السحب
 اذا قبض الابريق منه سلافة تقسمها الشراب حويله بالقَمْب
 شربنا وللأصباح في الليل غرة تريد اندماجا بين شرق الى غرب
 على روضة تحيا بحية جدول يفىء عليه ظل أجنحة القضب

أو كما قال الشاعر

أشهب لي دجى الليل ثقب أم سراج ناره ماء العنب
 أم عروس فوق كرسى بدا يجتليها اللهو في عقد الحب
 يا شقيق النفس أنفاس الصبا بردت والمبعج لاشك اقترب
 قم امتعك بعيش لم تقع في صفاء منه اقذاء النوب

بلاهر يجلو اللهو فيه عرائساً
 كأن لها في الخمر حمراً غلائلاً
 وكم من كُئيت اللون تحسب كأسها
 إذا مزجت لانت لنا وتحولت
 جرى في عروق النار ماءً كأنما
 وان نال منها ذو الكآبة شربة
 كراسيها أيدي السكّام من الشرب
 مزردة الأطواق بالؤلؤ الرطب
 لها شفة لمساء ذات لمي عذب
 بأخلاقها عن قسوة الجامع الصعب
 رضى السلم منها يتقى غضب الحرب
 تسربت الأرواح منه إلى القلب

فلقد حان لضوء الفجر أن
 فأدركها تحت ليل سقفه
 أو على برق سماء ضاحك
 سكر الروض وغنى طيره
 هات درا فيه ياقوت وخذ
 فموة لو سقيتها صخرة
 يجذب الروح إليه روحها
 ولدت بالشيب في عنقودها
 كلما موجها المزج أرت
 مادري خمارها عاصرها
 خندريس عثقت في أجوف
 ومليح الدل ان عل بها
 شمع القهوة في صوب الحيا
 فتلاقي في فسي من كأسه
 يضرب السرحان فيه بذنب
 ظلمة فيها من النور ثقب
 غيمه بالدمع منه منكب
 أفلا ترقص قامات القضب
 جسم ماء حاء لا روح لهب
 أورقت باللهو منها والطرب
 ألطف الشيشين عند ما يجذب
 وهي اليوم عجوز لم تشب
 حبيب الفضة في ماء الذهب
 فعديث الصدق فيها كالكدب
 من دم العنقود مملوء نجب
 قلت لنجم في فم البدر غرر
 وسقاني فضلة مما شرب
 ماء كرم وغمام وشند

ابن برد الأصغر^(١)

بنو بُرد أسرة معروفة بالأدب كبنى شهيد وبنى حزم. وكانت هذه الأسر جماعات وأحزاباً أدبية تستخدم عمالاً للملوك والأمراء، يكتبون لهم ويساعدونهم في أغراضهم. والأمراء أنفسهم أدباء وشعراء، فكانت تربطهم بهؤلاء صلة الأدب، للاستعانة بهم في مسائل السياسة والكتابة فيما يكون من أمر الدولة والاستفادة بأرائهم، ولاحتياجهم اليهم في أوقات الطرب وبجامع اللهو والمسامرة والشرب والحديث والأسفار. ولذلك كان الوزراء جميعاً كتاباً وأدباء وشعراء ورجال جد وهو. وكانت هذه الجماع تحتوى على كثير من الناس المختلفى المذاهب والعقائد في كثير من المسائل، كما كانت مسرحاً للدسائس والملق، ومثاراً لغضب الملوك والأمراء، وباعثاً من بواعث الرضى، وجد الناس بالحظوة عند الرؤساء.

بهذا وغيره رقى الأدباء الى مراكز الوزارة، وقبضوا على أزمة الامور، كما سبق وتكلمنا عن بعضهم. وقد انتشرت هذه المجالس الأدبية وكثر الأدباء فيها، وانتفى الى الأدب والكتابة كثير ممن كانوا يرون أنفسهم أهلاً

١ هو حفيد أبى حفص الأكبر كاتب يحيى بن على بن حود الذى خرج على عمه القاسم بن حود وأسره ستة أعوام ثم قبض عليه ستة عشر سنة ثم قتله خنقاً سنة ٤٣١ هجرية. وكان بين يحيى هذا وعمه حروب ومنافسات طالت زمناً وانتصر كل منهما على صاحبه مرات وخذل مرات (راجع المعجب فى تلخيص أخبار الغرب) ولم يكن هناك وقت أكثر اضطراباً من هذا الوقت الذى خرجت منه السلطة من بنى أمية ثم رجعت اليهم ثم خرجت منهم نهائياً الى ملوك الطوائف وكان أبو حفص الأكبر من أشهر الادباء

لان يجولوا في هذه الميادين . وعرف بنفسه من لم يكن معروفا ، واستعان على ذلك بالحاجة الى أمثاله . وكان ذلك وقت أن كانت الفتن يدب ديبها في جسم الدولة هناك ، والفرقة بين الناس تعمل فيهم ، والأمة آخذة في التدهور ، وسلطان بني عامر قد قام على دعامة من الدسائس والخداع ، والمنصور يحاول هدم ملك بني أمية ، وكانت بقية العلوم والآداب من عصر عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم لا تزال وافرة . فاندس في هذه الفتنة نفر من الأدباء أرادوا أن يعيشوا من ألسنتهم . فقصدوا الأمراء والملوك ، فرحب هؤلاء بهم وافسحوا لهم صدورهم . فكان من جراء ذلك انتعاش حركة الأدب في عصر كانت الدولة مائلة فيه الى السقوط ، والدسائس تتطلب مثل هؤلاء الكتاب والشعراء . فطال عمرهم بطول الحاجة اليهم . وهذا سر بقاء الأدب في الأندلس حافظاً شكله ومكانته الى أواخر الدولة هناك . ومن الذين عاشوا في هذه البيئة وتربوا فيها وكانوا يرتعون في ساحاتها بنو برد . وأشهرهم أبو حفص الأبرور وحفيده أحمد أبو حفص الأصغر

كان أبو حفص بن بُرد الأصغر من كبار الكتاب والأدباء ومن النبهاء الأذكياء ، ومن الشعراء أصحاب الديباجة الحسنة وأهل الظرف في الشعر . أخذ عن جده أبي حفص الأبرور وسلك مسلكه . وكان يفخر به وبالاتقاء اليه ١

(توفى سنة ٤٢٨ هـ بمرقسطة) ومن كتاب ديوان الانشاء في دولة العارفين وكتب للمظفر بن أبي عامر . وكان من أقطاب البيان وله عدة رسائل شهيرة تدل على طول بابه في السياسة . (ومن رسائله الشهيرة ما كتبه لعبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر وكان قد استبد بالامر وحجر على الخليفة هشام الاموي وأراد أن يستأثر بما بقي من رسوم الخلافة . فطلب من هشام المؤيد أن يولي عهده فأجابه وأحضر لذلك الملائكة من أبواب الشورى وأهل الحل والعقد فكان يوما مشهودا فكتب عهده من انشاء أبي حفص بن برد

١ حيث يقول

من شاء خبري فأنا ابن برد حد حسامي قطعة من حدى
وأرفع الناس بناء جدى من نظم الالفاظ نظم القمد
ونقد الكلام حق النقد وكف بالاقلام ايدي الاسد

وهو من المقدمين بين الادباء والشعراء ذكره ابن بسام بقوله
 « كان أبو حفص بن برد الأصغر في وقته فلك البلاغة الدائر . ومثلها
 السائر . ينفث فيها بسحره . ويوردها بناصع نظمه وبارع نثره
 وكان يفخر بامتلاك أعنة البلاغة ^١ . فقد كان الأدب ولا سيما الشعر
 والنثر أشبه بما يسمونه الآن فنون الجمال ، التي تقاس بها أذواق الأمم الفنية
 ودقة الإدراك لديهم ، وفهمهم أسرار الوجود الخفية
 وأسلوبه النثرى هو في جملته أسلوب خطابي ، يسلك فيه مسلك توارد الجمل
 والمترادفات ليملك الأسماع ، ويؤثر في نفس القارئ . وإن كان كثير من هذه
 الجمل مكررا خاليا من معنى جديد . وهذا طريق طويل . ولكنه أحد طرق البلاغة
 الذي يسموه بالأطناب ، ويريدون أنه في نهايته يصيب الغرض المقصود من
 التعبير ، ويوصل الى ما يؤدي اليه الإيجاز : من معرفة مواقع الكلام الدال
 على المعنى تَوْأ . وقد يكون هذا الأسلوب آتق في لفظه ، لكثرة اختيار الكاتب
 الجمل الفصيحة وأثبت في أذهن ، لكثرة تردد المعنى الواحد في ذهن السامع
 بصيغرات مختلفة .

١ كتب يقول في كتاب سماء (سر الادب وسبائك الذهب) ... وأصبحنا بعد نرى أغراض
 الكلام بأسهم أزرها شديد . ونمقد مناظم القول بالسن برى منها التعميد . ونسيل من
 المنشور جد اول النطاف . ونجيد من المنظوم جواهر الاصداف ، وكان جدى احمد بن برد رحمه
 الله لطول ممارسته هذه الصناعة برحاء الله ، ونهية الطلب . ودعة الزمان واقبال السلطان ...
 كأنه وقد أقبى من مصاييح وصاياه فيها .. وصرف لى ضوا من هداياته مأفاه الله به نفعاً
 وأوسع معها ارشادا . ثم ان الايام اثمصابه . وبعد ذهابه . باكرتنى بهروفا . وشغلتنى ..
 برقع خروفا . ومكابدة ضيقها ؛ وسوق الادب قد كسدت ، والى أمضى من البيان ، والاساءة
 أحد من الاحسان . وأفلامنا يومئذ في عطلة . ومحارنا في عقله . وكنتنا في رقدة .. الخ ...
 راجع الجزء الاول من الذخيرة

وأدل على قدرة الكاتب وسعة خياله ، لكثرة ما يجد من هذه الألفاظ ذات المعنى الواحد ، وعلى الافتنان في معرفة الفرار من ملل التكرار ، وعلى إبراز هذه الجمل المتحدة المعنى كأنها مختلفة الدلالة ، مما لا يقدر عليه الموجز بإيجازه المملوء بالعبارات الدقيقة والمعنى الكبير في الألفاظ القصيرة لعدم ضلال الفكر في كثرة الجمل وإدراك معانيها .

أما أبو حفص فإنه من أصحاب الأطناب ، الذين يميلون إلى قرع الأسماع بنغمات البلاغة في كثرة الجمل وتعاقبها على المعنى الواحد . وهذا كثير في نثره ، وربما كان ميالا إلى زينة اللفظ أكثر من ذكر المعاني . ولكنه في جملة حسن الديباجة ، وأسلوبه من أحسن ما يكون في نوعه

والظاهر أنه كان يعشق هذا الأسلوب . فإن نثره يكاد يكون كله من هذا النوع مفصلا ، جملا جملا ، وكأنما كل جملة مستقلة عما قبلها وما بعدها ، كالحكم والأمثال .^١ وله كثير من النثر الصناعي المتكلف ، وكأنه ضرب من اللعب بالألفاظ والعيب بصناعة الكلام.^٢

وليس أدل على التكلف من مثل هذا الكلام ، ولا أغرب من هذه الأساليب التي يحسبونها من سعة الخيال وغنى اللغة . على أن ذلك لا يخلو أحيانا من أثر في النفس ونغمة للذينة في السمع . تمرر النسيم العليل . كقوله في الاستزارة .

١ من ذلك قوله في وصف القلم والمداد والكتاب . ويقولون أنه أول من ابتكر الكتابة في هذا الموضوع . المداد كالبحر . والقلم كالقواس . والألفاظ كالجرهر . والقرطاس كالسلك والدواة كالقلب . والقلم خادم له . ما أعجب شأن القلم يشرب ظلمة . ويلفظ نوراً
٢ كقوله: أظلم لي جو صفائك . وتوعرت على أرض أخائك ... فليت شعري ما الذي أنسى مهجة الود . وأذبل زهرة ذلك المهد ... وإن رغم أنف القلم ، واتزوت أحشاء القرطاس ... الخ

« اليوم يوم بكت أمطاره . . وضحكت أزهاره . وتقنعت شمسه . وتعطر نسيمه . وعندنا بلبل أزج وساق غنّج . وسلافتنا سلافة أخدان . وسلافة دنان قد تشاركنا في الطباع . وازد وجنا في اثاره السرور . فخرق الينا مرادق الدجى . تجدد مرأى لا يحسن الا لك . ولا يتم الا بك . الزيارة بالليل أحنى . وبالأثر والمزور أحنى . وقد سدل حجابيه . ووقع قرابه . وتبرقت نجومه بفيومه . وتلفعت كواكبه بسحائبه . فاهتك الينا سراً . وخض الينا بجزاً ... »

ومن هذه الاساليب الفنية فصول كتبها في تفضيل الورد على غيره من الازهار وقالوا انه مخترع هذا النوع، وأول من كتب في هذا الموضوع

١ وقد عارضه في هذه الرسالة الأديب أبو الوليد اسماعيل بن محمد المعروف بحبيب . وكان أبو الوليد حبيب هذا من المتأخرين بالكتابة في زمنه ، أديباً مشهوداً له بالفضل . تلميذا لابن الأثير أحد شعراء المعتزدين عباد ، وقالوا انه كان وهو ابن سبع عشرة سنة ينظم النظم الفائق ، وينثر النثر الرائع ، واستوزره جد المتمدن بن عباد وكان يصنف الى مقالته ويرضى بفعله ، وهو ما جاوز العشرين (نفع الطيب طبع أوروبا جزء ٣ صفحة ٢٩٠) وكان شاعراً أكثر شعرة في الازهار ولم يذكر ابن بسام من رسالته التي عارض بها ابن بزد الا صفر الا طرفاً صغيراً . قال فيه « وأما رسالة أبي الوليد فخطب بها المتمدن يومئذ قال فيها : فأول من رأى نور ذلك الكتاب وعين الخطيب ، نواير فصل الربيع . هي خيرة الورد في الوطن . وسحابتها في الزمن . ولما أن قرأته أنكرت ما فيه . وبليت على هدم مبانيه ، ونقد معانيه . وعرفت الورد بما عليه فيما نسب اليه . من استحقاقه مالا يستحقه ، واستثماله مالا يستأمله ، وعلمت ان مخاطبته من أخطأ تلك الخطيئة وأدنى من نفسه تلك الدنيئة ، تدبير دبرى . ورأى غير مرضى ، فكتبت الى الاخوان والحيرى الاصفر كتاباً . قالت فيه لو استحق الورد امامة : واستوجب خلافة . لبادرت بها آباؤنا ولعقدنا أوائلنا التي لم تزل تجاوره في مكانه . وتجيء في أوامه ، ولا ندرى لاي شيء أوجبت تقديمه . ورأت تأهيله . بما غيره أشكل له وأحق به ، وهو نور البهار والبادى فضله بدو النهار . والذي لم يزل عند علماء الشعراء وحكماء البلغاء ، مشبهاً بالعيون التي لا يحول نظرها . ولا يحور حورها . وأفضل تشبيه الورد بحمرة الخند عند من تشيع فيه . وأشرف الحواس العين اذ هي على كل متول عون وليس الخند حاسة فكيف تبلغه رئاسة

أين الخندود من العيون نفاسة ورئاسة لولا القياس الفاسد وأصح تشبيه الورد وأقربه من الحق ، قول ابن الرومى في الشعر الطائى . ولقد وافق ووفق وشبهه الخفق « وطول أبو الوليد في رسالته هذه وختما بمبايعة الازهار البهار ورجع عن تقديم الورد في خبر طويل

أما رسالته في ذلك فهي رسالة نادرة في موضوعها وأسلوبها، تدل على سعة خيال كاتبها، وحسن ذوقه في اختيار الألفاظ ومعرفة مواقع الكلام، وأنه كان من الكتاب الذين يميلون إلى الأساليب القصصية. وربما لم يكن لهذه الأساليب نظير في بلاغة المشرق، لأن أهل الأندلس هم الذين اخترعوا الكلام في الأزهار على هذا النحو.

تصور ابن بُرْد أن الأزهار والرياحين قد اجتمعت في مجلس واحد، وقام أحدها يتكلم ويخطب بين أبناء جنسه. وقد دل الكلام على عقل الكاتب وأنه من أصحاب المعتقدات، أو أنه في كلامه هذا يمثل ميول العقول في عصره. وذلك أنه افتتح كلامه بما يشبه الحمد أو ما يشبه التفكير في الوجود والمخلوقات فقال: «ان صنوفا من الرياحين، وأجناساً من البساقين، جمعها في بعض الأزمنة خاطر خطر بنفوسها، وهاجس هجس في ضمائرهما لم يكن له بد من التفاوض فيه، والتحاور والتحاكم من أجله والتناصف. وأجمعت على أن ما ثبت في ذلك من العهد، ونفذ من التحالف ماض على ما غاب شحه ولم يأن منها وقته فقام منها قائمها فقال: يامعشر الشجر، وعامة الزهر، إن الله تعالى لطيف خبير، خلق المخلوقات البريات، بآيّن بين أشكالها وصفاتها، وباعد بين منحها وأعطياتها، فجعل عبداً وملكا، وخلق قبيحاً وحسنًا، فضل بعضاً على بعض، حتى اعتدل ببدله السكل، واتصل على لطف قدرته الجميع، وإن لكل واحد منها جمالا في صورته، ورقة في محاسنه، واعتدالا في قده، وعبقا في نسيه ومائية في ديباجته»

ثم تطرق من ذلك إلى الكلام في الزهور وما لها، وما اختصت به من الجمال والمنزلة في الاجتماع ونفوس الناس فقال:

«وقد عطف علينا الأعين، وثنت إلينا الأنف، وزهت بحاضرنا

المجالس ، حتى سفرنا بين الأحبة ، فوصلنا أسباب القلوب ، وتجملنا لطائف
الرسائل ، وصيغ فينا القريض ، وركبت على محاسننا الأعاريض »

ثم عمل على نقد الصفات والأخلاق الغير المحموددة بقوله
« فظفح بنا العجب ، وأزدهى بنا السكر ، وحملنا تفضيل من فضلنا ،
رائثار من آثرنا ، على ان نسيم الفسك في أمرنا والتمهيد بمواقبنا ، والتطبيب
لأخبارنا »

وقد اقتبس ذلك من أخلاق الانسان . وهى طريقة جميع أصحاب الأمثال
والأساطير ، الذين يتكلمون على السنة الحيوان أو النبات . ولكن الظاهر ان
الكاتب لم يكن يقصد بذلك الا الوصف أو سمة الخيال ، لا المبرة والعظة . غير
ان هذا باب من أبواب الأساليب الاجتماعية ، أو القرية من ذلك وخروج من
الدائرة المعروفة ، دائرة الرسائل والمكاتبات ، ودليل على رقى الفكر ، وترك
القديم ، وباب جديد من أبواب المنشور ، الذى يدخل منه الكتاب الى القصص
والحكايات

ثم أخذ بعد ذلك فى تفضيل الورد وبيان مزاياه . فقال :
« وادعينا الفضل بأسره ، والكمال بأجمعه ، ولم نعلم ان فينا من له المزية علينا ،
ومن هو أولى بالرياسة منا : وهو الورد ، الذى ان بدلنا الانصاف من أنفسنا ، ولم
نسبح فى بحر عمانا ، ولم نعل مع هوانا ، دنأ له ، ودعونا اليه ، فن لقيه منا حيا
بالمك ، ومن لم يدركه زمن سلطانه ، ودولة أوانه ، اعتقد ما عقد عليه ، وولى ما دعا
اليه ، فهو الأكرم حسبا ، والأشرف زمنا ، ان فقد عينه ، لم يفقد أثره ، أو غاب
شخصه لم يغب عرفه ، وهو أحمر ، والحررة لون الدم ، والدم صديق الروح ، وهو
الياقوت المنضد ، فى أطباق الزبرجد ، وعليها فوائد المسجد ، والأشعار من
محاسنه حسنت ، وباعتدال جماله وزنت »

وقد دل على أوصاف السكال التي في الورد ، وأخذ ينمقها بدقة أسلوبه ومهارته . ثم استرسل في الكلام على هذا النمط ، وذكر أنواعاً أخرى من الزهر وانطقها بالكلام . فقال :

« وكان ممن حضر هذا المجلس ، من رؤساء الأنوار والأزهار ، النرجس الأصفر ، والبهار والبنفسج ، والخيزري النمام . فقال النرجس الأصفر والذي مهد لي حجر الثرى ، وأرضعني ثدى الحيا ، لقد جئت بها أوضح من لبة الصباح ، وأسطع من لسان المصباح ، ولقد كنت أسير من التعب له ، والشغف به . والأسف على تماقب الموت دون لقائه ، ما أتحل جسدي ، ويمكن سقي ، واذ قد أمكن الهوج بالشكوى ، فقد خف ثقل البلوى . ثم قام البنفسج فقال على الخبير سقطت ، أنا والله المتعب له ، والداعي إليه ، المشغوف به ، وكفى ما بوجهي من ندوب ، ولكن الناسى بك آنس . ثم قام البهار فقال : لا تنظروا إلى غضارة منبى ، ونضارة رونقي ، وانظروا إلى وقد صرت حدقة باهتة تشير إليه ، وعينا شاخصة تندى بكاء عليه

ولولا كثرة الباكين حولي على اخوانهم لقتلت نفسي
ثم قام الخيزري فقال: والذي أعطاه الفضل دوني ، ومد له بالبيعه يميني ، ما اجترأت قط اجلالا له واستحياء منه ، على أن أتنفس نهارا ، أو أساعد في لذة صديقا أو جارا ، فلذلك جعلت الليل سترا ، واتخذت حوائجه كنّا » وجعلها تتناقش وتتنافس . ثم تم بعد ذلك اتفاقها في مجلس عام ، وكتبت بذلك صكا اعترافاتها بفضل الورد ، واطاعته . وجعلته رئيساً لها ، نطيع أمره ونخضع له ، فقال :
« فلما استوت آراؤها ، قالت ان لنا أصحابا ، وأشكالا وأترابا ، لا نلتقي بهافي زمن ، ولا نجاورهافي وطن فهلم فلنكتب بذلك عقدا ، ينفذ على الاقصى والاداني فكتب رُقعة ، ونسختها : هذا ما تحالفت عليه أصناف الشجر ، وضروب الزهر ،

وسميتها وشتويها ربيعها وقظيها، ما نجمت من تلمة أو ربوة، وتفتحت من قُرارة أو حديقة، عند ما راجعت من بصائرهما، وألمت من مراشدها، واعترفت بما سلف من هفواتها، وأعطت للورد قيادها، وملكته أمرها، وعرفت أنه أميرها المقدم لخصاله فيها، والمؤمر لسوابقه عليها، واعتقدت له السمع والطاعة، والتزمت له الرقة والعبودية، وبرئت من كل زهر نازعه المباهاة له، والانتداء عليه في كل وطن، ومع كل زمن. فانه زهرة قضى عليها لسان الأيام هذا الحلف، فلتعرف ان ارشادها فيه، وقوام أمرها به »

ذلك من الأساليب الجديدة في اللغة العربية، وليس أدل على سعة الخيال ومثالة البلاغة ورقى الآداب من هذه الأساليب القصصية. لان كل أدب أو بلاغة لا تحتوي على القصص وتمثل وتبين نفوس الكتاب وغيرها من الأسرار الانسانية، التي لا تظهر الا في مثل هذه الموضوعات، تكون آداباً ناقصة أو بلاغة مقصورة على كتابها وشعرائها. ولا تكون هذه الأساليب الا في أمة تربت أخيلتها وعقولها تربية عامية فنية. ولقد ظهرت بوادر ذلك في بلاد الأندلس عند بعض الكتاب، وخصوصاً في القرن الخامس حيث انفتحت أمام العقول أبواب من الخيال، بسبب ما وجد هناك من الترف والبذخ وأبهة الملك. ولقد كان هذا الباب الذي ولجه الكتاب في الأندلس يصل بهم الى طريق جديد لم يسلكه كتاب العرب في المشرق، غير ان هذا الابتداء لم يستمر، ولم يجد له أنصاراً كثيرين، لعدم اعتيادهم هذا النوع من الكتابة، ولان الكتاب والادباء لم يقسّم لهم بعد اقتباس هذه الأساليب القصصية. فكانوا يحتاجون الى زمن طويل لصقلها في عقولهم والتعود على فهمها. ولقد كان أيضاً من الأسباب التي لم تدفع الكتاب الى السير في هذا الطريق ان الدولة لم تدم طويلاً، والملوك الأدباء ابتدؤا يختفون وقت ظهور هذا الأسلوب.

ويلاحظ ان هذا الأسلوب القصصى بدأ يظهر بشكل خيالى أكثر منه بالحقائق التى تلمس النفوس . وكان لا بد أن يبتدئ بذلك لدى أمة ليس لها عهد بهذا . وقد كانوا يريدون الدخول فى الموضوعات الاجتماعية، فلم يجدوا أمامهم نماذج يفتقون أثرها ، غير ما ابتكره أبو العلاء فى رسالة الغفران من جمع الأدباء والمناقشة مع بعضهم بعضاً فى مسائل اللغة والأدب . ولكن يظهر من كثير من المكاتبات والرسائل أن الأسلوب القصصى كان يتسرب اليها شيئاً فشيئاً، وأن رسائل العتاب وغيرها تحتوي على كثير من الملاحظات الفكرية المتصلة بأحوال الناس والاجتماع. وهذا على ضعفه وقلته يعد من الأطوار التى تخطاها النثر فى اللغة العربية. وكل ذلك يدل على تحرك العقول وميلها الى حب الجديد. والأساليب التى كتب بها هؤلاء الكتاب. أساليب حسنة التركيب، جميلة العبارات، تدل على ابتكار الكاتب وشدة عارضته. وانه وجه من وجوه الأدباء فى ذلك العصر .

وقد كان ابن برد شاعراً أيضاً، وربما كان شعره أفضل من نثره ، لانه ميل الى الصناعة فى الكلام ،، والصناعة أمراً على النفس فى الشعر منها فى النثر وكل شعره أو جله قطع صغيرة فى الغزل . وشعره خفيف الروح ، عذب التذوق كأنه نغمات موسيقية ، أو فكاهات أو مسامرات . وله معانى ظريفة أخذها ونصيدها ونظمها ، وألبسها لباساً من صناعته . كقوله .

أبدأً ثأنى بعتب دون أن آتى بجُرم
بيننا فى الحبِّ قربى سقمُ عينيك وجِسْمى
ومن قوله

يا كثيرَ الجفاءِ لى ومُضِيعاً وسائلي
طال حُبِّي ولم تفز منك نفسى بِطائل

١ قال ابن بسام وهذا كقول ابن الرومى
يا عيلاً جعل الملة متاعاً لستمى ليس فى الأرض عليل غير جنيتك وجسمى

أنتَ إلى هاجرٍ وان كنتَ في ثوبٍ واصلِي
 أنتَ ان ررْتَ منْهلاً كانَ أحلى مناهلي
 وجرى خياله في هذه المعاني شوطاً بعيداً ، وأخذ يتصيد ما فيها ويشه في
 كلامه وشعره : كطيب ريح فم الحبيب ، واحتراق فؤاده بنار الحب ، وغرقه في
 دموعه . وله أبيات رقيقة في وزنها وقافيتها من الشعر المرقص الخفيف على النفس ،
 الذي تُلذ قراءته بخفة وزنه ونغائته الموسيقية أكثر مما فيه من المعاني التي هي
 معروفة لكل عاشق . كقوله :

بخداع علَّلوه	وبهجر وصلَّوه
لم يُبالوا يوم صد	أى وجدَ حلوه
أخرجوه من محل	للتسلى أدخلوه
بلغت منه الاعادى	أى شئ أملوه
رُبَّ ستر للتصاني	فوقه قد سلاوه
كلما سقوه كأساً	أتركأس قبلوه
وهلال بشرى	بنجوم كَلَّلوه
في بهيم من ظلام	نسناه أخرجلوه
نشطوه ثم لما	لان عطفا نبطوه
عزلوه عن وصال	حسداً ثم ولَّوه
أنما حبي فيكم	مثلا قد أرسلوه

وقال ابن بسام انه أخذ هذا الوزن والروى من قطعة لشاعر من شعراء
 بغداد . وهكذا كان يسطو على المعاني وينظمها وعلى خيالات غيره وينسجها
 على منواله . كقوله في معنى معروف .

والبدن كالموآة غير صقلها عبث العذارى فيه بالأنفاس
والليل ملتبس بضوء صباحه مثل التباس النقش بالقرطاس
فكان في كل شعره يميل الى زينة اللفظ والتشبيهات البديعة ككثير من الشعراء
مثل قوله :

سقاني وجفن الليل يغسل كحله بماء الصباح والنسيم رقيق
مذابا كذوب الثبر أما بخارها فضخم وأما جسها فرفيق
وكل شعره من هذا النوع وهو من الخيال الصرف يقلد المعاني ويضعها في
أوزان العروض ، غير ان هذا لا يحط من قدره ولا يغمط من حقه في ميله الى
قول الشعر وذوقه الفني . وله قصائد ذكرها صاحب الذخيرة في الجزء الأول

الأعمى التطيلي^(١)

عاش أبو جعفر أحمد بن عبد الله الأعمى التطيلي في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس وكان من أشهر الأدباء في عصره^٢
أما نثره فهو نثر مسجوع من طبقة النثر الممتاز بسهولة العبارة وجودتها ووضوحها ، وعدم التعمق في البحث عن الجمل والألفاظ مع حسن الاختيار والافتنان وأشعار القارئ بأن للكاتب روحاً تدب ديباً بين جملة وألفاظه ، وإن له قوة يظهر أثرها في تلاوة كلامه .
وأما معانيه فأقل ما فيها أنك تراه يحاول ألا يقتصر على اختيار اللفظ

١ تطيله بالضم ثم الكسر ويا ساكنة مدينة بالاندلس في شرق قرطبة (راجع منجم باقوت) وهو معروف بالأعمى التطيلي نفع الطيب ج ٢ ص ٢٣٥ وفي القلائد والذخيرة الطليطي
٢ لم نقف له على ترجمة وافية . وقد حملنا على ذكره شهرته وماله في عالم الادب . وقد مدحه الادباء كما دثهم في كتبهم عند الكلام على الكتاب والشعراء فقال عنه ابن بسام :
له أدب بارع . ونظر في غامضه ولسع . وفهم لا يجارى . وذهن لا يبارى . ونظم كالسحر الحلال . ونثر كالماء الزلال

وقالوا عنه انه نظم أخبار الامم المختلفة في لبة القريش . وعبارة الذخيرة ثمكاد تكون هي بعينها عبارة القلائد . ولست أدري أيهما أخذ عن الآخر لأن الفتح بن خاقان وابن بسام عاشا في عصر واحد (فقد مات ابن بسام في سنة ٥٤٢ ومات الفتح سنة ٥٣٢ أو ٥٢٩) والظاهر ان عبارة قلائد العتيان كانت أشهر لأن الضبي صاحب كتاب « بنية الملتبس في رجال أهل الاندلس » أشار إليها بل ذكرها ولكنه نسبها الى المطمح فأخطأ في هذه النسبة . لأنها ذكرت في قلائد العتيان . واختصر الضبي على عبارة الفتح بعد أن أوجزها وأورد له شيئاً من شعره الاستدلال على فضله . ولقد نبهنا هذا الأسلوب الى صعوبة دراسة كثير من الكتاب والشعراء الذين لم يمن أصحاب التراجم والادباء بالكلام عنهم . ولم أجده عن الأعمى التطيلي هذا شيئاً في ابن خلكان ولا في فوات الوفيات ولم يتكلم عنه القرطبي في نفع الطيب بما يدل على شيء من حياته . لذلك تقتصر على شيء من ذكر منظومه ومنثوره والكلام على ذلك

وبلاغة العبارة . بل يريد أن يكشف شيئاً من أحوال النفوس ، ويضم ذلك الى جمال القول وبهجة المعاني . لذلك تجده في رسائله ينتقل من معنى الى آخر ، ويتكلم عن نفسه وغيره ، ويذكر المعنى العام والخاص ، ويتواضع ويفخر ، ويتعجب ويتكبر ، ويستصغر نفسه ويستكبرها . كل ذلك في رسائل يرسلها في العتب أو التقرب أو الشكوى . وقد كان هذا هو الميدان الوحيد الذي يجوب فيه الكتاب ويظهرون خفايا نفوسهم ، وينشرون على العالم مطويات أفكارهم . وكانت نوع الرسائل كل ما يعرفونه من أساليب الكتابة لبث شكواهم ، والتعبير عن آرائهم الشخصية . وكأنما هناك حجاز منيع بينهم وبين العالم الخارجى . فإذا تكلم أحدهم لا يتكلم الا عن نفسه ، وإذا شكى لا يشكو الا آلامه ، وإذا مدح مدح لحصوله على خير ، وإذا ذم ذم لوقوعه في شر ، وإذا وصف وصف ما يحيط به لا غير . ويكفى دليلاً على ذلك ان أنواع النثر عندهم انحصرت أو كادت تنحصر في كتابة الرسائل الأخوية ، وان هذه كانت الصبغة الغالبة على النثر ، التي امتلأت بها بطون الكتب الأدبية . ولا يكاد يعثر الانسان على رسالة من نوع آخر . غير ان هذه الرسائل القصيرة وان خلت من معان اجتماعية عامة ، فانها مملوءة بنماذج الأساليب العربية البديعة ، والعبارات البليغة ، والأمثال الحكيمة ، والتراكيب المتنينة ، والأفكار الناضجة ، وصور نفوس الكتاب ، ودقة ادراكهم وجل معلوماتهم . وهذه رسالة صغيرة في العتاب للتطيلي :

« شاكرك أو شاكيك ، بل لأتمك ولأتم الأيام فيك ، ياسيدى كناية عن ذكره ، لا توخياً لبره ، وأخى رغبة في انصافه ، لا طمعاً في استعطافه ، الذى عاطيته كأس الوداد فأمرها ، ورفعت اليه بنت الوداد فأضر بها وأضرها ، ومن أطال الله بقاءه ممتعا بظل السلطان ، واقبال الزمان . فإن الرجل بسلطانه ، لا باخوانه ، وباقبال زمانه لا باحسانه . انى أعزك الله وان كان الدهر وضعنى ورفعك ، وضاق

عنى ووسعك ، فبين جنبى نفس عصام ، وبين فكي صارم بسطام
 «الشجو شجوى والعويل عويل» لا أستعير عينا للبكاء ، ولا أبتغى بكبدي كبدًا
 سليمة من الارزاء . وانك أعزك الله لما تكلمت بلسان سهل بن هارون، وجلست
 مجلس الفضل من المأمون ، وخدمك الدهر ، وانثالت في يدك الأنجم الزهر ،
 قلت احم وعلى ، وان لم يكن فشبع وري . وعلى رسلك ، ما كنت أنا الغط في مثلك ،
 انى أبيت طيآن ، ولا أبيت .. ، واحتمل الحرمان . ولا أحتمل الهوان ،
 وليت هذا الأمر وقلبك بي معبور ، وأنت بزعمك لى فقير ، وأنا أظن انى
 سأولى وأعزل ، وأحدث في كنفك وأعدل ، فاهو الا ان ثبتت قدمك ، وخفق
 علمك ، وابتل قرطاسك وقلبك ، اختصرت شطر الاسلام ، ودفعت في صدر
 القيام ، عزلت فلانا قبل الولاية ، واقتصرت بأبى الأصبع دون الغاية . هينة أنا
 كنت معناها ، وكاس لى شعثت حياها . وولايتك خطر وفي علمك نظر ،
 انما هو ظل غمامة ، وبيض حمامة . ثم تعود الى استحلاص البيت ، وأكل الخبز
 بالزيت .

وقال فى رسالة أخرى :

«ولم أزل منذ تخيل جنائى ، وتقوّل لسانى ، وأدبر ملكي او شيطاني ،
 ألتبس من أهل هذا الشأن ، ما أسعى باسمه ، وأحفل وأقيس على حكمه ، وأقل
 وأحل ... وأعقد ، والناس كثير ، والناقد بصير ، والأمر أعجاز
 وصدور . فكيف ترانى اتخذتك خليلا ، وأخذتك على الأيام عهداً مستولاً ،
 وبايعتك على الطاعة والسمع ، وشايعتك سرى الاستطاعة والوسع ، ففعلت
 عليك كعبة أولى وجهى شطرها ، وأسندت اليك هضبة أرفعى سوامى وعرها ،
 لا كون قد قدرت هذه الطاعة قدرها ، وأبلغت نفسى فى طلبها والتعلق بسببها . الخ»

١ هكذا فى الاصل

اما نظمته في بعض قصائده كلام من الشعر الممتع ، مع طول لا يمل ،
وأراء تدل على فكر جوال وعقل ناضج . وكأنه حكيم يتكلم أو ينظم
الحكم . وهو مع ذلك شاعر بليغ متقن ، عالم بأساليب النظم البليغ والاسلوب
الخطابي ، الذي يجذب الاسماع والقلوب ، ويملاها حكمة وعظمة ، واعجابا
وجالا . قال من قصيدة في المدح

عتاب على الدنيا وقلَّ عتابُ	رضينا بما ترضى ونحن غضابُ
وقالت وأصغينا الى زورِ قولها	وقديستفدُ القول وهو كذابُ
وعمت على أبصارنا وقلوبنا	فطال عليها الخومُ وهي سرابُ
ودانت لها أهواؤنا وعقولنا .	وهل عندها إلا المناء كوابُ
نلَّذُّ ونلهو والأعزة حولنا	رفاة وبسنى والديار خرابُ
ويخدعنا عسايرُ ادُّ بنا منى	لبحر المنايا دونهن عبابُ
ونغتسم الأيام وهي مصائب	هت عليها جيئة وذهاب
بكنت هندمن ضحك المشيب بمفرق	أما علمت أن الشباب خضاب
وقالت غراب ماأرى وتجاهلت	وليس على وجه النهار نقاب
هل الشيب الا الرشد حل غوايتي	فأصبحت لا يخفى على صواب
أأعفو لصرف الدهر عن هفواته	على حين لا يأتى على عقاب
وأتركه يمضى على غُلُوَّاته	وقد عز اعتاب وطال عتاب
أينضب حسادى قيامى الى العلا	وقد قعدوا عما ظفرت وخابوا
هم حسدونى لالوفر وفِرتة	ولكن شهدت المكرُمات وغيابا

وما أجمل مدحه في هذه القصيدة ، فقد يرى الانسان فيها المدح وعظمته
وسمو قدره ، وقد يصرفه جمال القول وسبك العبارات وبلاغة الكلام عمدا
في الشعر من المبالغة . بل قد يتجه فكره الى تذوق المعاني . وليس أبلا ولا

أشرف من انسان يتصف بهذه الصفات . ولا أشعر من شاعر يحمل القراء على
صدق قوله ببلاغة كلامه وحسن أسلوبه . اذ يقول :

سجايأ على مر الليالى كأنما هى المزن فيها رحمة وعذاب
موارد فيها سم كل معاند ولكنها للمستفيد عذاب
مخوفتى ريب الزمان وقد حدث برجلى الى ابن الحضرمى ركاب
اذا الله سنى لى لقاء محمد تفتح دونى للسماحة باب
فتى لم تسافر عنه آمال آمل وكان لها الا اليه اياب
له همم فى الجود والبأس لم تزل لها فوق أتياح النجوم قباب
وأقسم لولا ماله من مآثر لأصبح ربع المجد وهو يباب

ولقد تدب فى نفسه صناعة الشعر ، وتلعب برأسه ، كما تلعب الكأس ،
فيشمل ويقول فيشمل السامع معه ، وكأنه يترنح من صدق قوله ، والسامع يترنح
معه من عنوبة هذا المقال :

وهل أنا الا' عبد أنعمك التى هى الشَّهد اذ كلُّ الموارد صابُ
وهل شهد المجد الذى أنت سره فانك بجرئ والكرام عياب
وهل أنا يارضوان باسمك هائف وهل لى الى دار المقامة باب
اذا قايسوك المجد كنت غضنفرأ اذا زار لم يثبت عليه ذئاب
وما أحمر الا من صيالك معرك ولا أخضر الا من نداك ثياب

وما أقدره عل طول الكلام ، وأصبره على الجرى وراء المعانى حتى يدركها .
ولقد مدح الوزير أبا الحزم ، فعرف كيف يمدح الوزراء . وبدأ قصيدته بشئ من
الغزل ، ولكنه غزل غير مبتذل ، وأسلوب عشقى غير ظاهر فيه السطو على
المعانى ، وكأنما هو من مبتكراته ، على أنها معانى غيره ، وأسلوب سواه . كما قال

غداة وقفنا نقسم الشوق بيننا
وقد اطلمت تلك الهواجج أنجما
فأبت بدمعى لؤلؤا فوق نحرها
خليلي هل بعد المشيب تلمة
وهل راجع عيش لمسنه أنفاً
وهل لي حظ من موأاة صاحب
بدت رقة الشكوى على عطفاته
على ما اشترطنا وانقضت سنة القسم
تركن جفوني في الكرى أسوة النجم
وأبت بما في مقتلتيها من السقم
لدى الجهل أو في الحب شغل لدى العلم
كيوم لذيد في بيوت بني حزم
له قدرة القاضى وموعدة الخضم
ورابتك في أعطافه قسوة الظلم
ثم أخذ في المدح بما يحمل القارئ على الاهتمام بالكلام وكأنه قيل فيه أو
أو كأنه كلام لم يسمعه . وليس ذلك لحسن الاسلوب وجماله لا غير ، بل لأن
الشاعر يعنى بذلك ، حتى يحمل القارئ على الاهتمام بما يقول . كما قال :

أبا جعفر هذى المكارم والعلا
أرى الناس قد باعوا المروءة فاشتر
دعاءً بحق أو دعاء على غنم
وقد ضيعوا ما كان من حسب غنم
وأنت أحق الناس بالحزم فأنت
وحق العلا بالمال أشبه بالحزم
وأنت بعيد الهم مقترب الجدى
كريم السجايا ماجد الخلال والعم
وأخفى بألباب الرجال من الهوى
وأخفى وراء الحادثات من الدهر
وأحى لحوزات المعالي من الردى
وأسخى بآمال النفوس من الحلم
وكل قصائده في المدح متينة جميلة (راجع الكلام عنه في الجزء الثانى من
الذخيرة) وربما كان في رثائه أسجل منه في مدحه . كقوله في قصيدة تشبه
قصيدة مالك بن الرب وكأنه ملهم بأبياتها

على مثلها فلتبك ان كنت باكيا
أفى كل يوم أودع الارض صاحباً
فقد عهد الاجاب الا تلاقيا
أريق به في الترب ماء شبابيا
وأحسب أنى لورجوت مكانه
يعز عليه أن يكون مكانيا

ولو أننى أحببته الحب كله لاُبعت به نفسى وأهلى وماليا
 خليلى من يطعم بشئ فأننى نفعت به لا بل نفعت فؤاديا
 وليس حياى غير شجوة مرّدة عهدت له الا ألد حياتيا
 . وهذه القصيدة هى تقليد للشعر القديم المعروف ولكنها جميلة فى بابها تدل
 على ذوقه وحسن سبكه فى التقليد

وله فى الغزل شعر يمتاز بطريقته وأسلوبه أكثر منه ببلاغته وجماله . فقد ساق
 قصيدة يتغزل فيها بفتاة تسمى لذيذة جعلها حديثاً بينه وبين امرأة تحببه وتسليه
 وهذا الأسلوب ليس من الأساليب الشائعة عند العرب . وهو أشبه بالمناظرة
 بين عاشقين . وكأنما أراد أن يكشف فى حديثه عن نفس العاشق بما أودعه فى كلامه
 من الآراء ، وعما عسى أن يلاقى من الوسائل الناجحة بما فى آراء تلك الفتاة
 فقال :

لما التقينا وقد قيل المساء دنا	وغابت الشمس أو لاذت ولم تغب
وأضلى بين منقضى ومنقصف	وأدمى بين منهل ومنسكب
وأملّنى أم المجد قائلة	بمن أراك أسير الوجد والطرب
فقلت قلبى مسّى وأنتك لو	كتمت سري لم أكتك كيف سبى
وأعرضت ثم قالت قد أسأت بنا	ظناً أيجمل هذا من ذوى الأدب
فقلت أنى امرؤ لما لقيتكم	والمرء وقف على الارزاء والنوب
سبت فؤادى ذات الخال قادرة	ولا نصيب لها منه سوى النصب
ألهو بها وهى تلهو فى بلهنية	شتلن والله بين الجد واللعب
أصابت القلب لما ان رمته ولو	ولورمته أخرى إذن لا شك لم تُصب
فقلت اشكوا إليها مالميت ولا	ترهب فلم تبلغ الآمال بالرهب
عسى هواك سيّديها فينصبها	وقديكوب الهوى أعدى من الجرب

قللت أعظمها بل ما أكلمها
 قالت أنا أنولى ذاك في لطف
 قللت مثلك من يرجى لمعضلة
 صليه أو فاقتليه فالحمام له
 فلو ترانى قد استسامت مرتقبا
 حتى اذا ما ألانت تلك جانيها
 طفت أثم كفيها وقد جنحت
 لله مثلى ما أدنى سجيته
 كم مأثم مستلذ قد هممت به
 الا أشار الى الموت من كئيب
 فقد أولف بين الماء واللهب
 لازلت في غبطة ممتدة الطئيب
 خير من الهجر في جهد وفي تعب
 منها حنان الرضا أو جفوة الغضب
 والقلب مها أرم تسكينه يحب
 اليك تضحك بين العجب والعجب
 من المعالي وأناها عن الريب
 فلم يدعنى له ديني ولا حسبي

ولقد ينظم الكلام المعروف فيغير من صبغته في النفس ، ومن معناه في
 الفؤاد ، فيكون جديداً لان روح الشاعر غالبية على معانيه . كما في كلامه عن
 لذيذة حبيبته . وله أبيات حكيمة بثها مدحه كقوله :

كم مقلّة ذهبت في الى مذهبا
 رهن بأضغاث أحلام اذا هجعت
 فانظر بعقلك ان العين كاذبة
 ولا تقل كل ذى عين له نظر
 دع الغنى لرجال ينصتون له
 واخلع لبوسك من شح ومن أمل
 وصاحب لم أزل منه على خطر
 أغراء حظ توخاه وأخطأني
 وغره ان رآه قد تقدمني
 بنظرة هي شان أولها شان
 وربما حلت والمرء يقظان
 واسمع بقلبك ان السمع خوان
 ان الرعاة ترى ما لا ترى الضان
 ان الغنى لفضول الهم ميزان
 لا يقطع السبق الا وهو عريان
 كأننى علم غيب وهو حسان
 اما درى ان بعض الرزق حرمان
 كما تقدم باسم الله عنوان
 ولقد ينظم الحكم والعبر في كلامه فتجده حكيما وشاعرا معا . كقوله :

تنافس الناس في الدنيا وقد علموا ان سوف يقتلهم لذاتها بدلا
 قل للمحدث عن لقمان اوليد لم يتبرك الدهر لقمانا ولا لبدا
 وللذى هم البنيان يرفعه ان الردى لم يفادر في الثرى احدا
 ما لابن آدم لا تقفى مطالبه يرجو غدا وغسى أن لا يعيش غدا

١ ووصف سدأ يمج ماء من فيه
 أسد ولو أنى أنا قشه الحساب لقلت صخره
 وكأنه أسد السما • يمج من فيه المجرة
 ومن قوله في الحكمة
 واداعجت من الزمان لحادث فتسابع يسكى على متبوع
 واذا اعتبرت العمر فهو ظلامه والموت منها موضع التوقيع
 (راجع بنية المتمس للضي ص ١٨٦)
 وقالوا انه اجتمع مع كثير من الادباء فبرز عليهم في موشعته التي يقول فيها
 ضاحك من جان سافر عن يدر ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

ابن عبدون^(١)

كان ابن عبدون كاتباً ناثراً وشاعراً بليغاً . أما نثره فهو نثر أدباء عصره : كلام أشبه بالنظم منه بالسجع ، أو سجع مُتَعَمِّلٌ غير ظاهر فيه التكلف ، إذا قيس بنيره أو عودض يسواه ، أو معنى قصير في سلسلة من ألفاظ طويلة ، أو هو من نوع البراعة في الاحاطة باللغة وتنسيق الألفاظ ، أو ضرب من الافتنان الدقيق في اخفاء ابتدال الموضوعات والمعاني المعروفة تحت ستار من الصناعة . ولقد ينجح الى الناقد ان الكتاب في ذلك العصر كان يقلد بعضهم بعضاً ، وان هذه هي الصفات التي تظهر فيها ميزة الكاتب ، وانه لا فضل لمن اكتسب هذه الملكة بكثرة ما يقرأ ويعلم من أساليب معاصريه ومعانيهم . ولقد يظهر لنا ان هؤلاء الكتاب والشعراء سائرون في طريق واحد متشابه الارحاء والنواحي ، وأنهم يضربون على نفمة واحدة ، من حيث الكلام في الموضوعات المعروفة لهم ، وانه ليس لأحدهم فضل في غير الانفراد بالأسلوب واختيار الألفاظ واتباع

١ عاش ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد بن عبدون في أزهي عصر من عصور الادب زمن ملوك الطوائف ، وعاشر أذكي ملوكهم وأعلمهم باللغة والادب والتاريخ وهم بنو الافطس الذين اشتهر علمهم وفضلهم وعرف حبهم للادباء وأكرامهم اياهم وكان كاتباً للمتوكل على الله بن المظفر وناهيك بمن يكون في حضرة هؤلاء ويكتب لهم وهم العلماء والشعراء . وقد قالوا عنه انه كان أعجوبة في النظم والنثر ، من كبار حفاظ اللغة والادب في وقته . ورووا عنه وعن قوة حفظه انه أدب الاندلس وامامها وسيدها في عالم الآداب وان أيسر محفوظاته كتاب الاغانى . ومهما بالفوا في نسبة هذا اليه فذلك يدل على مقدار معلوماته وقوة ذاكرته . وهو فهرى من أصل عرني وتوفي سنة ٥٢٠ هجرية مدة سلطة المرابطين وقد اتصل بعد سقوط ملوك الطوائف ييوسف بن تاشفين وكتب له ولابنه -

الطرق التي يختارونها اقتفاء لآثار غيرهم . ولكن أليس من البراعة أن يشبه الكاتب جميع الكتاب ويعرف كيف يمتاز عنهم بمعانيه وأسلوبه ؟ ان العصر الذي يفص نالاً دباه لمن أشق العصور وأصعبها على الكتاب والشعراء الذي لا يمتازون بشيء في مواهبهم ، وحتى على الكبار منهم ، الذين يحملهم ذكاؤهم وقدرتهم على أن يمتازوا ويظهروا على معاصريهم . ان ميزة الصناعة الأدبية والافتنان لا يكونان في اختلاف الموضوعات والأسلوب لا غير ، بل ذلك شيء كامن في نفس الكاتب لا يظهر الا على شبا قلمه ولا تمليه قريحته الا لشخصه .

قد يظهر للقارئ ان الكتاب أو الشعراء يشبه أحدهم الآخر هذا يمدح ويذم ، ويمتدح ويمتدح ، وهذا يأخذ من لفظه ويسير على نهجه . ولكننا لنعدم أن نرى في خلال هذه الصحف المتشابهة عبارات ومعاني جديدة ، وأساليب تدل على شخصية الكتاب والشعراء في هذه الألفاظ . وقد نجد جملة واحدة أو كلمة واحدة يستريح اليها الفكر وتطمئن اليها النفس

ربما كان ابن عبدون من هؤلاء فان له رسائل طويلة أكثرها مملوءة بالألفاظ المعروفة، والعبارات المأخوذة من كلام غيره والاطناب الذي يذهب بصبر القراء . وعلى الرغم من اعتباره من أكبر كتاب أهل زمانه ، ليس في كتاباته غير الطول الممل والسجع المتكلف^١ ولكن كان هذا الأسلوب من أفضل الأساليب . ولا ين عبدون في أسلوبه أحياناً شبه بأسلوب ابن زيدون، من ذكر الحوادث وأسماء الرجال^٢

أما شعره فأفضل من نثره. ومن قصائده القصيدة التي رثى فيها بني الأفتس وذكر فيها أشهر حوادث الملوك وأشهر الدول البائدة الى أيامه . وهي قصيدة ممتازة في أسلوبها ومعانيها . قد احتوت على كثير من المعاني الدقيقة والملاحظات العامة . بدأها بالنفج والشكوى من الايام فقال :

١ ورسائله كثيرة في الذخيرة والمعجب ٢ راجع فلائد العقيان ص ١٤٨

الدهر يفجع بعد العين بالأنثر
 انهاك انهاك لا آلوك موعظة
 فالدهر حرب وأن أبدى مسالة
 ولا هوادة بين الرأس تأخذه
 فلا تغرنك من دنياك نومتها
 ما لليالى أقال الله عثرتها
 فى كل حين لها فى كل جارحة
 تسر بالشئ لكن كي تغربه
 فالبكاء على الأشباح والصور
 عن نومة بين ناب الليث والظفر
 والبعض والسود مثل البيض والسمر
 يد الضراب وبين الصارم الذكر
 فما سجية عينها سوى السهر
 من الليالى وخاتها يد الغير
 مناجراح وان زاعت عن النظر
 كالأيم نارالى الجاني من الزهر

ثم أخذ فى سرد أصحاب الدول البائدة والملوك الماضية فقال :

كم دولة وليت بالنصر خدمتها
 هوت بدار وفلت غرب قاتله
 واسترجعت من بنى ساسان ما وهبت
 وألحقت أختها طسما وعاد على
 وما أقالت ذوى الهيئات من يمن
 ومزقت سبأ فى كل قاصية
 لم تبق منها وسل ذكراك من خبر
 وكان عضبا على الاملاك ذا أثر
 ولم تدع لبنى يونان من أثر
 عاد وجزهم منها ناقص المرر
 ولا أجارت ذوى الغايات من مضر
 فما التقى رائح منهم بمبتكر

والقسم الثالث منها وهو رثاء بنى المظفر أبلغها ، لما احتوى عليه من
 الموعظة ، والاعتبار والتذكير بالأيام الماضية ، أيام العز والمجد الرفيع . وفيها كثير
 من المعاني المبكرة التى خالف بها سنة الرثاء المعهودة . وفى هذا يقول :

بنى المظفر والأيام لا نزلت
 سحقا ليومكم يوما ولا حملت
 من للأسرة أو من للاعنة أو
 من للظباوعوالى الحظ قد عقدت
 مراحل والورى منها على سفر
 بمثله ليلة فى غابر العمر
 من للأسنة يهديها الى الثغر
 أطراف ألسنها بالى والحصر

وطوقت بالمنيا السود بيضهم فاعجب بذاك ومامنها سوى الذكر
 من للبراعة أو من للبراعة أو من للسماحة أو للنفع والضرر
 أو دفع كارثة أو ردع رادفة أوقع حادثة تعي على القدر
 وله شعر كأنه هو من مبتدعيه رقيق المعاني والحاشية . كقوله في مدح
 المتوكل.

وافاك من فلق الصباح تبسم وانجاب عن غسق الظلام نجم
 والليل ينعي بالأذان وقد شدا بالفجر طير البانة المترنم
 ودموع طل الليل تلحق أعينا يرنو بها من ماء دجلة أرقم
 يصاحي بين الفرات ودجلة ودع علاقة مسعد ومنم
 وهو في مدحه من عشاق المتنبي وحفظة اسلوبه . ومع هذا التقليد ميزته
 ظاهرة وروحه جذابة في كلامه، جليلة في ان هذا له . كقوله يمدح أيضاً .

مضوا يظلمون الليل لا يلبسونه وان كان مسكي الجلابيب ضافيا
 يؤمون بيضا في الأكنة لم تزل قلوبهم حبا عليها جاجيا
 وأغربة الظلماء تنفض بينهم قوادما مبلولة والخوافيا
 اذا مرقوا من بطن ليل زقت بهم الى ظهر يوم عزمة هي ماهيا
 وان زعزعهم روعة زعزعوا الدجى اليها كماً تأ والرياح مذاكيا
 ولو انها ضلت لكان أمامها سنا عمر في فحة الليل هاديا
 وصلت بها الهيجا عليه وسلمت

همام أقام الحرب وهي قميدة وروى القنانيها وكانت صواديا
 ومن أساليبه في تقليد المتنبي قصيدته التي يقول فيها :

هيئات لا ابتغى منهم هوى بهوى حسبي أكون محبا غير محبوب
 فسا أراح لذكرى غير مؤلة ولا ألد بحب دون تعذيب

والأصالح أياي على دخل ليس النفاق الى خلقى بمنسوب
يادهر ان توسع الاحرار مظلمة فاستثنى
ولا تخل اننى ألقاك منفرداً ان القناعة جيش غير مغلوب
ماكل من سيم خسفا عاف مورده ان الالباء لظهر غير مركوب
وكم تأزرت الغيطان بي كرما واستنشقتنى أنفاس المناخير
وله كثير من الشعر الجيد غير انه مقلد لشعراء المشرق . ولذلك لا تجد له
ديباجة واحدة ، ولا اسلوباً معروفاً ، ولا معانى مبتكرة.

ابن هاني^(١)

كان محمد ابن هاني من أصحاب الظرف والخلاعة ، ذا أدب جم ، لا يبالي بما يفعل ولا بما يقول ، حتى قالوا عنه انه كان في كلامه كثير من الافراط والغلو في المدح المفضي الى الكفر ، وكان ينتجع أماكن الرزق لدى الخلفاء والامراء كغيره من الشعراء ويميش على متون الثوافي . وكانت حياته ككل حياة الأديباء التنقل والرحلة وانشاد الشعر وحفظه ، والاطلاع على الأدب واللغة

١ فالتأنا تذكر ابن هاني في مقدمة الشعراء لتقدمه في الزمن عن ذكرنا ، ولكننا أئسنا ذلك . على ان الادب في الأندلس لا يظهر فيه اختلاف المذاهب الادبية ظهورها في المشرق وهو أبو القاسم محمد بن هاني الازدي الأندلسي ، من أكبر شعراء الأندلس وأشهرهم . ذاع ذكره في المشرق والمغرب وتقدم على غيره من الشعراء . وعاش في أرغد أيام دولة بني أمية في الأندلس . فقد مات في سنة ٣٦٢ بعد أن عاش ستا وثلاثين سنة . فيكون مولده على هذا القول في نحو ٣٢٦ وهذه الأيام هي أزهى أيام دولة الأمويين وأبهى أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم (مات الناصر سنة ٣٥٠ ومات الحكم سنة ٣٦٦) في هذا العصر عاش ابن هاني . وظهر على الشعراء ولكنه لم يكن من بين شعراء الناصر ولا من حاشية ابنه . واصل أبيه هاني من أفريقية . وكان هو أيضاً شاعراً مشهوراً وأديباً معروفاً ، فانتقل الى الأندلس ، فولد له محمداً بمدينته أشبيلية . واذ كان أبوه أديباً وشاعراً ، أي صنعته الاب يمشي منه ويرحل في طلب السؤال به ، كان ابنه أيضاً من عشاق الشعر . وكانت أشبيلية اذ ذاك أخصب بلاد الاندلس علماً وأدباً . فنشأ بها وبرع في الادب واندمج في صف الشعراء لما كان له من الميل الى ذلك . وقد ورث الذوق الادبي عن أبيه وتربى على حب الشعر ، وعرف منزلة الشعراء وادرك ما كان لهم من رفعة الشأن والافاضة عليهم بالمال والثراء . وكان ذكياً نبهاً ميالاً للخفة والدعارة . وكانت بذرة اعترف والهو نبت في تلك البلاد فاندفع في هذه البيئة ندفاعاً واتصل بمساحب أشبيلية . ونال حظوته وانهمك في الملاحى والملاذ ولم يكن له رادع نفسى ولا ديني . ثم جاهر بشيء من الآراء المسقوطة هناك ففضب عليه أهل أشبيلية وسات الغالة في حق الملك بسببه واتهم بمذهبه . فأشار الملك عليه بالغبية مدة ليس فيها خبره فخرج من أشبيلية وعمره ستة وعشرون عاماً ورحل الى عدوة المغرب فلقى جوهر القائد (الذي فتح مصر للمعز)

وشئ من تاريخ الأدباء وحياتهم ، ومعرفة أقوال الشعراء ، ووعى أشهر كلامهم وأساليبهم وطرق التصور لديهم ، وموازنة الكلام بمضه ببعض ، والامعان في معرفة الجيد والردى منه . لأن ذلك كان لهولاً مثاله المرجع الوحيد الذى يستمد منه أفكاره ومعلوماته وتصورات ، التى هى كل شئ لديه .

هذه كانت حياته العقلية وحياته أمثاله من الأدباء الخالص الذين لم يشتغلوا بالعلوم ، ولم يتجهوا الى الاستفادة منها . ولم تكن لابن هاني نزعة أدبية في غير الشعر . فقد اتجه اليه بكل قواه العقلية وحصر جميع ادراكه فيه . لذلك ظهرت مواهبه في الشعر ، وكان له شأن رفيع بين كبار الشعراء .

أما شعره فهو في جملة من الكلام الجيد . ونريد بالجودة هنا اختيار المعاني الداعية الى التفكير وحمل الذهن على البحث فيها ، ليدركها القارئ ادراكاً صحيحاً يتمظ به ، أو يستفيد منه شيئاً جديداً في حياته العقلية ، أو يذكره برأى نافع ، أو مسألة صحيحة من مسائل الحياة والاجتماع ، كما هى الحال عند كبار الشعراء المفكرين . ف شعر ابن هاني به كثير من ذلك تطئن اليه النفس وتميل الى آرائه وتصديقها . وبه أفكار عامة في الحياة والمجتمع الانساني . وأكثر كلامه مملوء بهذه الآراء والخيالات الحكيمة . ولقد يجد الانسان روح المتنبي تدب دبيبا في كلامه أحيانا . وكأنه لا يحسب من الشعراء الخياليين الذين جاؤا بعده بأنواع الخيال وتفرغوا لذلك ولم يلجوا باب الحقائق الانسانية في شئ .

أحد ملوك أفريقية ثم اتصل يحيى بن على بن بحر أحد ملوك طنجة وأخيه جعفر صاحب فبالغا في اكرامه . ثم علم به المعز المبيدى أحد ملوك أفريقية فأجرى عليه كثيرا من العطايا وأكرمه اكراما عظيما وكان محبا للعلم والأدب وسافر المعز هذا الى مصر فشيعة ابن هاني ورجع الى المغرب لآخذ عياله . ولما وصل الى برفة أضافه شخص هناك وبقى عنده اياما في هناك وسرور ومجون بلغ أشده وقالوا انه خرج من تلك الديار وهو سكران فنا في الطريق فأصبح ميتا ولم يعرف سبب موته وقيل عربدوا عليه وقتلوه . ولما بلغ المعز خبر موته أسف أسفا شديداً وقال كما نريد أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يقدر لنا ذلك

ولا طرقوا أبواب الحكمة ، بل اقتصروا على الأوصاف والتشبيهات . على ان ابن هاني رغم طريقته المعروفة التي نسبت اليه، كان يظهر عليه انه ناقل ومقلد في تلك المعاني التي حدث في زمن المتنبي ، وفي الأساليب العربية التي كانت قبل ذلك . فان منهجه في كلامه وأسلوبه لا يدل على غير ذلك . غير أنه بارع في جمع المعاني الغربية ونظمها ، واقف على كثير منها ، مستجمع لطائفة عظيمة من الآراء الحكيمة والأمثال والمواعظ ، يذكرها المناسبة ولغير مناسبة . وله في كلامه آراء تشبه الناقد البصير للاجتماع والناس ، ولعل هذا هو الذي حمل على القول بانه كانت له آراء ممقوتة وسموها آراء فلسفية .

ولقد جرى في أسلوبه على الاسلوب القديم : بالبدء بالغزل والاسترسال فيه ، وذكر المعاني القديمة المعروفة عند الشعراء ، ولعل ذلك جاءه من تمكنه من الشعر القديم وحفظه كثيراً منه . ويأتي في قصائد المدح بكثير من الآراء والافكار المختلفة وهي طريقة المتنبي بعينها . وبعض هذه القصائد مملوءة بأوصاف الحروب وتمجيد الامراء . وأسلوبه أسلوب رشيق سهل . حتى ان أبا العلاء المعري قال فيه : « ما أشبهه الا برحى تطحن قرونا لاجل القمعة التي في ألفاظه » وقال الضبي صاحب بغية المتمس . « وهو كثير الشعر ، محسن مجيد ، الا ان قمعة الألفاظ أغلب على شعره » . وربما كان أسلوبه دليلاً على قول من يدعى ان شعراء الأندلس رغم ما كان لهم من الامتياز في الفكر والأساليب كانوا يقفون أثر البدو القدماء .

وأول شيء يشعر به الانسان عند قراءة شعر ابن هاني انه شاعر لا كغيره من الشعراء ، شاعر ممتاز عن سواه ، وكفى بذلك دليلاً على ملكة الشعر لديه . ان الصبغة الخاصة التي تدل على أثر الشاعر أو الكاتب أو على شيء من شخصيته في كلامه هي علامة من علامات الافتنان التي من أجلها يحسب من بين الفنين وليس الافتنان غير إبراز الجمال وكشف دقائق ما فيه

وما هو جمال الشعر ؟ أليس هو ذلك الديدب الذى يدب فى النفوس
 فيملأها بهجة وارتياحا ، ويحملها على الاعجاب بالكلام وما فيه ؟ أليس جمال
 الشعر فى تلك الرنات التى تطرب النفس وتحركها كما تحركها رنات المزاهر
 والأغاني ؟ أليس جمال الشعر فى الألفاظ والمعاني وتنسيقها وتناسبها وتقابلها
 وترتيبها ، ونظمها وجمعها بأسلوب يتحایل به الشاعر على أن ينال من نفس غيره
 وشعوره ، وأن يتقرب الى فؤاده وامتلاك عقله ، وأن يحرك القلوب والعواطف ،
 ويحكم على العقول بالأصغاء اليه ، والتصديق لما يقول ؟ . هذه حقيقة جمال الشعر
 كما ان ذلك هو سر كل فنون الجمال . وأكثر جمال الفنون هو فى معرفة تصوير
 الاشياء أو المعاني مع دقة الفنى فى ذلك . ولقد يكون الافتنان تقليداً متقناً لشيء
 معروف . هذا التقليد المتقن هو ما يراه الانسان جميلا . فليس من لوازم الافتنان
 فى الشعر ابتكار المعاني ، بل الاحاطة بها مع دقة ابرازها .

وهذا ما يشعر به القارئ فى أكثر شعرا ابن هانى ، يشعر بسعة خياله ،
 ودقة ادراكه ، وحسن اختياره ، وتنسيق صناعته ، وافتنائه الخاص ، الذى يدل
 على ان الكلام كلامه ، والاسلوب أسلوبه . يتغزل ابن هانى كما يتغزل غيره .
 ولكنه غزل غير غزل غيره ، تشعر عند قراءتك له انه شاعر ممتاز ، له صفة
 خاصة وذوق خاص . يغرب فى غزله ويتعجب من جمال محبوبته ، ويخاطبها
 ويصفها بما يدعو الى الاعجاب بها ويحرك العواطف اليها . وكأنما ذلك كله أثر
 غرامه الصحيح ، وحبه الصادق ، وربما لم يكن شيء من ذلك . أرايت كيف
 يتغزل فى قصيدة مدح :

فتكات طرفك أم سيوف أبيك وكؤوس خمر أم مراشف فيك
 أجلاذ مرهفة وفتك محاجر مانت راحة ولا أهلوك
 يابنت ذى البرد الطويل نجاده أكذا يجوز الحكم فى ناديك

قد كَانَ يدعُونِي خيَالِكَ طَارِقًا حتى دَعَانِي بِالنَّسَا دَاعِيكَ
عَيْنَاكَ أَمْ مَعْنَاكَ موعِدُنَا وادَى الكَرْى أَلْقَاكَ أَمْ وادِيكَ
منعوكَ مِنْ سَنَةِ الكَرْى وَسَرُوا فلو عَثَرُوا بِطَيْفِ طَارِقِ ظَنُوكِ
ودَعُوكَ نَشْوَى مَاسْقُوكَ مَدَامَةً لَمَّا تَمَایِلَ عَطْفُكَ أَتَهْوُوكَ
حَسَبُوا التَّكْحَلَ فِي جَنُوبِكَ حَلِيَةً تَاللهُ مَا بِأَكْفَهُمْ كَحُلُوكِ
ولوى مَقْبَلِكَ اللثَامَ وَمَا درُوا انْ قَدْ لَثَمْتَ بِهِ وَقَبْلَ فُوكِ

قد يكون تشبيه العيون بالسيوف معروفا ، وقد يكون تشبيه الرقيق بالخمر
والإشارة الى ان التكحل غير الكحل معروفا أيضاً ، ولكن ما ليس معروفا هو
ذلك الأسلوب ، هي روح الشاعر التي لبست هذه المعاني ، وكأنما قيست عليها
أو كانت من مبتكراتها. ولقد يأتي في أثناء كلامه بعمان وتشبيهات بدیعة مع أسلوبه
المعروف في البدء بالغزل . كقوله :

امسحوا عن ناظري كحل الشَّهَاد وانفضوا عن مضجعي شوك الْقَتَاد
أَوْ خُذُوا مِنِّي مَا أَبْقِيْتُمَا لَا أَحِبُّ الْجِسْمَ مَسْلُوبَ الْفَوَاد
هَلْ تُجِيرُونُ حُبًّا مِنْ هَوَى أَوْ تَفْكُونُ أُسِيرًا مِنْ صَفَاد
أَسْلُوكُ عَنْكُمْ مِنْ هَجْرِكُمْ قَلِمَا يَسْلُو عَنْ الْمَاءِ الصَّوَاد
أَمَّا كَانَتْ خُطُوبٌ قُيِّضَتْ فَعَدْتُنَا عَنْكُمْ إِحْدَى الْعَوَاد
فَعَلَى الْأَيَّامِ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا عَلَى الظُّلُمَاءِ مِنْ لُبْسِ الْحَدَاد
لَا مَزَارٌ مِنْكُمْ يَدْنُو سِوَى أَنْ أَرَى أَعْلَامَ هَضْبِ أُونِجَاد
قَدْ عَقَلْنَا الْعَيْسَ فِي أَوْطَانِهَا وَهِيَ انْضَاءُ ذَبِيلِ وَوَحَاد
وَحَدِيثَ عَنْكُمْ كَثْرَهُ عَنْ نَسِيمِ الرِّيحِ أَوْ بَرْقِ الْغَوَاد
لَمْ يَزِدْنَا الْقُرْبَ إِلَّا هَجْرَهُ فَرَضِينَا بِالتَّنَائِي وَالْبَعَاد

وإذا شاء زمان رابنا بـ رقيب أو حسود أو معاد
 ثم دخل على المدح بهذا الأسلوب والاطناب الذى لا يمل ، مع اختياره جميل
 الصفات وتعدادها ، حتى انه ليخيل الى الانسان انه أفضل مدح ، أو انه ليس وراء
 ذلك من اطراء . فقال :

من امام قائم بالقسط أو منذر منتخب للوحى هاد
 أهل حوض الله يجرى سلسلا بالطهور العذب والصفو البراد
 أسوام ابتغى يوم الندى أم سوام ارتجى يوم المعاد
 هم أباحوا كل ممنوع الحى وأذلوا كل جبار العناد
 وإذا ما ابتدر الناس العلى فلهم عاديها من قبل عاد
 ولهم كل نجاد مرتدى ولهم كل سليل مستجاد

ولقد يرق فى كلامه فيأتى بالمرقص والمطرب ، حتى لاتعرف أهو شاعر أم
 ماح أم عاشق أم مبتكر للمعانى أم موحى اليه بها كقوله :

قد مررنا على مغانيك تلك فرأينا فيها مشابه منك
 عارضتنا المها الخرائد أسرا بآ بأجراها فلم تسأل عنك
 لا يرع للمها بذلك سرب فلقد أشبهتك ان لم تكنك
 فحين مرجع كحنيى وتشك مردد كتشكى
 فائدتسكب الدموع كسكبى ثم لاتسفك الدماء كسفكى
 لأرى كابن جعفر بن على ملكا لابسا جلالة ملك
 تنفادى القلوب منه وجيبا فى مقام على المتوج ضنك
 وطويل النجاد فرج منه جانب السجف عن حياة وهلك

ولقد يصف فيبدع فى الوصف ، وتظهر ميوله المجونية فى شعره ، فيكون

أصدق ما يكون، وأرق أنسان، عذب الالفاظ رشيقاء خفيف الروح مبدعا جذابا :

قُنْ في مأتم على المشاق ولبسن الحداد في الأحداق
وبكين الدماء بالعنم الرط ب المُنْ وبالحود الرقاق
ومنحن الفراق رقة شكوا هن حتى عشقت يوم الفراق
ومع الجيرة الذين غدوادم مع طليق ومهجة في وثاق
حاربهم نوائب الدهر حتى آذنوا بالفراق قبل التلاق
ودنوا للوداع حتى ترى الأجياد اد فوق الأجياد كالأطواق
يوم راهنت في البكاء عيوناً فتقدمت في عنان السباق
أمنع القلب أن يذوب ومن نع جمر الغضى عن الاحراق
رب يوم لنا رقيق حواشى الله سهو حسناً جوال عقد النطاق
قد لبسناه وهو من نفحات الله مسك درع الجيوب درع التراق
والأباريق كالظباء العواطي

مصغيات الى الفناء مطلا ت عليه كثيرة الاطراق
وهي شم الأنوف يشمخن كبراً ثم يعرف بالدم المهرق
قدمتها السقاة كي يوقروها صمماً عن سماع شاد وساق
فهي اما يشكون ثقلاً من الولة ر واما يبكين بالاماق

ويمزج أسلوبه بشيء من أساليب غيره ، كتقليده المتنبي ، حيث يث
الحكم ، أو شيئاً من التهمك ، بينما هو يتكلم في المدح او في الغزل . ولقد يسبق
الى فكره شيء من المبالغة فيجرى به لسانه فكأنه يقول ذلك عن غير قصد . كقوله
في المدح

وما الجود شيئاً كان قبلك سابقاً بل الجود شيء في زمانك حادث
وفي هذه القصيدة يقول

عبثت زماناً بالليالي وصرفها فهاهى بي لوتعلمون عواث
 لئن كان عتق النفس للنفس قاتلاً فأنى على حتى بكفى باحث
 وإن كان عمر المرء مثل سماحه فان أمير الزاب للارض وارث
 اذا نحن جتناه اقتسمنا نواله كما اقتسمت فى الأقربين الموارث
 وإن حراماً أن تؤمل غيره كما حرمت فى العالمين الخباث
 تبسمت الأيأم عنك ضواحكاً كما ابتسمت حو الرياض الدماث
 وسد ثغور الملك بعد انثلامها وقد أظلمت تلك الخطوب الكوارث
 فمازاد فى بحبوحة الملك رائد ولا عاث فى عريسة الليث عاث
 وكثير من قصائده هى من نوع مزج الغزل بالحماسة والمدح. وينتقل من معنى
 الى آخر، ويميل دائماً الى الوصف الغزلى. كقوله

قر لهم قد قلدوه صارما لو أنصفوه قلدوه كوكبا
 صبغوه يوما بالشقيق وبالرحيب سق وبالبنفسج والاقاحى مشربا
 وكأئما طبعوا له من لحظه سيفاً رقيق الشفرتين مشطبا
 قد ماج حتى كاد يسقط نصفه وأذيل حتى كاد أن يتسربا
 خالسته نظرا وكان موردا فأحمر حتى كاد أن يتلها

فاذا مدح وصف وذكر صوراً كثيرة من الحوادث التى مرت فى حياة
 المدوح فبنت مجده ورفعت قدره . وقصائده فى ذلك كثيرة.
 وهو فى رثائه جيد أيضاً ، يأتى بالعظة والعبر . وذلك هو الأسلوب الفلسفى
 المعروف فى المشرق . ومن كلامه فى ذلك قصيدته التى يقول فيها .

وهب الدهر نفيساً فاسترد ربما جاد بخيل فحسد
 كلما أعطى فوفى حاجة بيد شيئاً تلقاه بيد

كاذب جاء جهاما زبرجا بعد ما أومض برق ورعد
أنها شينشة من أخزم قلما ذم بجيل فحمد
خاب من يرجو زمانا دائما تعرف البأساء منه والنكد
فاذا ما كدر العيش نبي واذا ما طيب الزاد نفد
فلقد أذكر من كان سها ولقد نبه من كان رقد
ابدا يعجم مني نعمة وقناة ليس فيها من أود
واستقصاء الجيد من شعره يدعو الى الخروج من مثل هذه الملخصات، فعلى
من يريد الاطلاع على شعره أن يرجع الى ديوانه المطبوع بمصر سنة ١٢٧٤ هـ

ابن الحداد^(١)

كان ابن الحداد من أهل الجند وأصحاب الاطلاع وأهل الذوق في الادب واللغة ، لأن نثره نثرفنى مملوء بالمعاني ، وأسلوبه سهل متين ، هو أسلوب أديب مطلع على أحوال الاجتماع ونفوس الناس ، هادىء في كلامه ، جزل في ألفاظه واضح غير متكلف في معانيه ، يلح المعنى في ذهنه كما يلح اللفظ اللائق به وكأنما يتقابل المعنى واللفظ في خاطره فيلبس أحدهما الآخر ويتمزج هذا بهذا ، أو كأنما قيس كل منهما على سمت صاحبه . فإذا أراد أن يكتب أزدحم أمامه المعاني ، وتراكت عليه الأمثال والحكم والتراكيب العربية التي تمر بذهنه وإذا كرت ، ف يأخذ منها ما سبق الى لسانه ، وما علق بذاكرته . لذلك تجد في رسائله المعنى الطريف واللفظ الطريف ، وكلام غيره وصناعة سواه ، من مناهج الادباء وأساليب الشعراء . وهو كأنه نقاد يختار منها الجياد . لا يخرج عن المعنى

١ هو الاديب أبو عبد الله محمد بن الحداد . عاش في دولة ابن عباد وتوفي سنة ٤٨٠ وكان ملازماً للمعتصم بن صمادح أحد ملوك الطوائف الذي كان معاصراً للمعتد بن عباد أيام دخول يوسف بن تاشفين في الأندلس . وقد عاش ابن الحداد في كنف ابن صمادح وابنه ممن وخصهما بمدحه . وعرف كيف ينزل من نفس المعتصم بن صمادح منزلة الشرف والوقار وكيف يمدحه غير متبدل ولا متغال . وكان لا خلاقه أثر في ذلك لأنه كان كبير النفس مبجلًا محترمًا من جميع الناس .

وذكره الادباء والنقاد ببعض الآراء الفلسفية في شعره وميزوه عن بقية الشعراء والكتاب من أصحاب الأساليب الخيالية . وقد حسيوه من أصحاب الآراء الفلسفية لابتعادهم في كثير من شعره عن المجون الذي كان سمة لآكثر الشعراء هنالك . وكانوا يحسبون الكلام الجدوى الخالي من المزج والهزل فلسفة كما نسبوا اليه الفلسفة في قوله

لزمتم قناعتى وقعدت عنهم فلست أرى الأمير ولا الوزير
وكنت سير أشعارى سفاها فعدت لفلسفيا فى سرا

الذى يريد ، ولا عن الرأى الذى اليه قصد . ويقفو أثر المعانى أكثر من اقتفاء الألفاظ . وقلمه جواب ، ونفسه طويل ، وكلامه فيه كثير من الألفاظ ولكنه غير ظاهر ظهوره فى كلام غيره . وجملة القول ان أسلوبه النثرى من الاساليب الأدبية التى تساعد على تقويم اللسان مما اعتراها من العجمة . وهذه رسالة له

«لما كان الكتاب أعزك الله جلاء الاقضاء ، وصقال الاصداء ، وعقال الادواء ، وسمتني منه بوسام ، ولفحتني منه بسموم ، وأسرت حسوا فى ارتغاء ، وأدبجت ذما فى ثناء ، والحر يأنف من الضيم ، ويشمئز من الذم ، ولا يقتصر على الاجتزاء ، بغير الجزاء ، ولو ترك القطا ليلا لنام ، وفى العتاب حياة بين أقوام ، فاصطبر شرب صبره ، وانتدب لتسوغ مره ، فمن الحُكم العدل ، والقضاء الفصل ، أن ألدعك بما لدعتني ، وأجرعك بما جرعتني ، غير آفك فى حال ، ولا مُباهت بمحال ، والتسويه ليس من خلق الكريم ، والحر على ما أساء يُصير ، وكل كُجْرٍ فى اخلاء يُسر ، والفضل لمن حواه ، لا لمن زخرف دعواه ، وتحقيق البرهان ، غير تنسيق البيان ، والسؤدد فى محاسن الخلال والفعال ، لا فى امكان الزمان ، واقبال السلطان ، وقيمة كل امرئ ما يحسن . أمثال اضربها عليك ، واضحة المناهج ، ومقدمات أنشأتها معك ، صادقة النتائج ، وجمل تشتمل على تفصيل حالنا ، وبند تشير الى ما فيه جرينا ، وقد همني عتابك واجلابك بريح تعصف ، ورعد يقصف ، واستقبلنى خطابك واطنابك ، بويل يخسف ، وسيل ينسف ، بلغ الزبى وزاد ، وغمر الربا والوهاد ، لوأم الجلالى لاقتلع أزهاره وطمس أنواره الخ'»

أما طبقته بين الشعراء ، فهو من الشعراء المفكرين أكثر منه فى صف الخياليين الذين يصفون الأشياء وصفاً أو يذكرونها كما يرونها . وحتى فى كلامه الوجدانى

١ راجع بقية الرسالة فى الجزء الأول من الذخيرة

له أسلوب خاص ، يدل على أن فكره هو الذى يرشده ، ويحرك لسانه ، ويملى عليه بيانه . ومع انه كان من أهل الفكر ورجال العلم المحترمين ، كان له شعر فى الغزل ووصف عواطفه ، ظهرت فيه مواهبه فى هذا النوع .

واشتهر عنه انه أحب فى صباه فتاة نصرانية ذهبت بلبه ، وكان يسميها نويرة قد اتخذ عشقها وسيلة للتكلم فى أوصاف المسيحية والقسس والكنايس والصلوات ، من الأشياء النادرة فى الشعر العربى ، نخرج عن عادة الشعراء فى الاقتصار على أوصاف النفوس وآلامها عند الكلام على العشق . وهذا يدل على شئ من الابتكار ، وسعة الخيال ، وتأثر الشعر وعقول الشعراء بما يرون فى الحياة . وكلام ابن الحداد فى النصرانية وأهلها وان كان قليلا فهو جديد فى الشعر العربى ، ألمح اليه بعض الألمح المتنبي وأبو العلاء وغيرهما ، مع ان كثيرًا من الشعراء كان يعيش مع هؤلاء الناس ويرى أعمالهم الدينية ، ولكن لقصر فى خيالهم وجمود فى عقائدهم ، لم يحوموا حول هذه الموضوعات فى الكلام على من كانوا يعاشرون من الامم التى تدين بغير دين الاسلام ، وما كانوا عليه فى أعمالهم الدينية المملوءة بالالهامات الشعرية والخيالات

وليس ابن الحداد أول من أحب نصرانية من الشعراء حتى كان ذلك سببا من أسباب طرق هذا الموضوع لديه . ولكنه كان يرى مالا يراه غيره . قال فى حبيبته :

فان لى بالروم رومية	تكنس ما بين الكنيسات
أهيم فيها والهوى ضلة	بين صواميع وبيعات
وفى ظباء البدو من بزدرى	بالظبيات الحضريات
أفصح وجدى يوم فصيح لهم	بين الاريطى والدوحات
وقد أثوا منه الى موعد	واجتمعوا فيه لميقات

مواقف بين يدي أسقف
وكل قص مظهر للتقى
وعينه تسرح في عينه
أى امرئ سالم من هوى
وقد تلوا صحف أناجيلهم
يزيد في نفسه يعافيره
والشمس شمس الدجن من بينهم
وناظري مختلس لمحها
ففى الحشا نار نورية
لا تنطفى وقتا وقد رمها
حييا عنى رشا بالحناء وان أبى رجع تحيائي

قلنا ان هذا شيء جديد فى الشعر العربى أو من نوادر أشعار العرب . جاء هؤلاء الشعراء من اختلافهم بغيرهم . وقد رأينا رسالة نثرية لابن شهيد تشبه هذا وهذا الكلام جديد أيضا فى أسلوبه ، لانه تكلم فى حبيته ثم فى القسس ، ووصف الصلاة والغناء ، وكل هذا جديد ، لان شعراء العشق قلما يخرجون عن الكلام من وصف النساء الى شيء آخر . على ان هذه العبارات طريفة . وقال فى هذه الفتاة وهو من نوع هذا الشعر :

فان الحسن ولا كاحيائى واهلاكي
وأولمتى بصلبان ورهبان ونساک
ولم آت الكنائس عن هوى فيهن لولاك
وها أنا منك فى بلوي ولا فرح لبواك
ولا أستطيع سلوانا فقد أوتقت اشراكي

وكم أبكي عليك دما ولا ترثين للباكي
 فهل تدرين ما تمضي على عينيَّ عيناك
 وما يذكى من نار بقلبي نورك الذاكي
 حجبت سنالك عن بصري وفوق الشمس سمالك
 وفي الغصن الرطيب وفي النقا المريج عطفاك
 وعند الروض حدا لك وفي رياه رياك
 نورة ان قلبي فازني أهواك أهواك
 وعيناك الشهيدان باني بعض قتلاك

وقد أفقت في معانيه وفي كلامه في هذه النصرانية، واجتهد في مزج أوصافها
 ومسائل عقائدها في شعره، فأخذ شعره لونا جديدا باهرا غير مألوف في العربية.
 ففيها يقول:

وبين المسيحيات لي سامرية
 مثلثة قد وحد الله حسنهما
 وتحت الخمار الجون حسن كأنما
 وفي معقد الزنار عقد صباقي
 وفي هذا المعنى يقول أيضاً:

وفي شرعة التثليث فرد مُحاسن
 وأذهل نفسي في هوى عيسوية
 فمن لجفوتي بالتماح نورة
 سبتني على عهد من السلم بيننا
 تنزل شرع الحب من طرفه وحيا
 بها ضلت النفس الجنيقية الهديا
 فتاة هي المأوى النفيس أو المحيا
 ولو انها حرب لكانت هي السبيا

واصطبح مع المعتصم يوما ومعه ندماءؤه وأظهر صبية متصرفة في أنواع
اللعب والطرب، وحضر أيضاً لاعب مصري هناك قارتجل ابن الحداد :

كذا فلتلح قمرًا ظاهرا	ونجنى الهوى ناظرا ناضرا
وسيبك سيب ندى مغدق	أقلم لنا هاملا هامرا
وان ليومك ذا رونقا	منيرا لنور الضحى باهرا
صباح اصطباح بأسفاره	لحظنا بحيا العلا سافرا
وأطلعت فيه نجوم الكؤوس	وتما زال كوكبها زاهرا
وأسمعتنا لاحنا فانتا	وأحضرتنا لاعبا ساحرا
يرفرف فوق رؤوس القيا	ن فننظر ما يذهب الناظرا
ويخطفها ذيل سرباله	فتبصر طالعا غائرا
فظاهرها ينثنى باطنا	وباطنها ينثنى ظاهرا
وثناؤه ثاب للأعباه	دقيق ثنى الحجبى حائرا
وفي سورة الراح من سحره	خواطر دلت الخاطرا
اذا ورد اللحظ أثناءها	فما الوهم عن وردها صادرا
ومن بدع نماك أبداعه	فما أنفك عارضها ماطرا
وسعدك يجتذب المغربات	ويجعل غائبها حاضرا

ولقد كان يمزج هذه الخيالات الجميلة بالمدح . كقوله في مدح بنى هود وقد
أكرمه المقندر وأعلا من شأنه فمدحه بقوله :

أسالت غداة البين لؤلؤ أجفاني	وأجرت عقيق الدمع في صحن أجفاني ^١
وألقت حلاها من أسى فكأنتها	أطارت شواذى الورق من قن البان
وأذهلها داعى الهوى عن تنقب	فحيا محياها بتفاح لبنان ^٢

وقد أطبقت فوق الأقاليم بنفسجا
 وليل بهيم سرته ونجومه ازاهر روض أوسواهر أجفان
 كأن الثريا فيه كأس مدامة وقد مالت الجوزاء ميله نشوان
 وما الدهر الا ليلة مبهمة وشمس ضحاها أحمد بن سليمان
 وقصائده كثيرة في الجزء الأول من الذخيرة، وفيها جملة من نثره، وذكره
 صاحب فوات الوفيات في الجزء الثاني. وابن خاقان في مطمح الأنفس. وفي فهرس
 الجزء الثاني من نفع الطيب طبع أوروبا المواضع التي ذكره فيها المقرئ

ابن خفاجة الأندلسي

هو أبو اسحق ابراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة الأندلسي الشاعر الأديب المشهور . ولد ببلدة شقر ، ويطلق عليها العرب جزيرة شقر . وكانت ولادته سنة ٤٥٠ وتوفي بها سنة ٥٣٣ . عاش في عصر المرابطين بعد زوال دولة بني أمية والدولة العمارية ، وبعد انتهاء دولة بني عباد ، أي في عصر كان نضج اللغة والأدب بلغ أوكاد يبلغ منتهاه ، وكان الادباء في هو وبحون ، وكانت الملاهي والاشتغال بالمذات صرفت اليها العقول ، وجذبت اليها الافكار ، فهدبت منها قليلا أو كثيرا . واذا استولى اللهو على النفوس عشقت الجمال ، ومتى عشقت الجمال مالت الى فهمه ، وانغمست في ادراك أسرار الطبيعة وما فيها من روعة وابداع . فاذا كانت النفوس قد تهذبت بالعلوم والفنون المختلفة ، أدركت جمال الكون ادراكا عميقا - كما يقولون - وبحث عن خفاياه بحث الفيلسوف عن الحقائق ، وكان الشاعر فيلسوفا فنيا وشاعرا فيلسوفا ، يظهر الفلسفة في ثوب شعري ، ويظهر الشعر في ثوب فلسفي . أما اذا كان فنيا بطبعه ، ولم يكن له نصيب من العلوم ، فانه يكتفى بالنظر الى الأشياء وفهم جمالها ، على حسب ما بها من التناسق الظاهر ، والمناظر الباهرة ، وجمال الألوان ، وكل ما توحيه الطبيعة الى النفس من الأعجاب . ولقد يؤثر هذا الشاعر في النفس بجمال قوله ، كما يؤثر الفيلسوف بحكمه وصدق ادراكه .

ومثل ابن خفاجة مثل ذلك الشاعر الذي وقف كل مواهبه لادراك الجمال ، وفهم ظواهره الرائعة المبثوثة في أنحاء الكون : فهو من الشعراء الذين

ربهم الطبيعة بجمالها ، وهذب ادراكه جمال الوجود ، فاتجه بجميع قواه العقلية
والخيالية الى معالجة التعبير عن هذا الجمال ، وانغمس انغماسا في ذلك ، حتى
أصبح لا يكاد يدرك غير هذا النوع ، ولا يفهم غير المعاني الجميلة . فقد كان
يخرج الى البرارى ليسمع خرير المياه ، ويتمتع بهذه الاصوات والمشاهدات. وكان
له ولم بهذا ، وبكل ما يقال فيه ، حتى لقد كان يجارى الشعراء ويعارضهم في مثل
هذه المعاني التي شغلت عقول كثير من الادباء والشعراء . وكان الكلام في مناظر
الطبيعة اذ ذلك من بدع البلاغة والأدب . فقد قالوا « ركب بعض الادباء مع
أصحاب له في نهر اشبيلية في عشية سال أصيلها على لجين الماء عقيانا ، وطارت
زواريقها في سماء النهر عقبانا ، وأبدى نسيمها من الامواج والدارات سررا
وأعطانا ، في زورق يجول جولان الطرف ، ويسود أسود الطرف ، فقال بديها :

تأمل حالنا والجو طلق يحياه وقد طفل المساء
وقد حالت بنا عذراء حبل تجاذب مرطها ربح رخاء
بنهر كالسجنجل كوثرى تعبس وجهها فيه السماء

واتفق ان وقف أبو اسحق بن خفاجة على القطعة فاستطرفها واستطابها .
فقال يعارضها :

الا يا حبذا ضحك الحيا بجانتها وقد عبس المساء
وأدهم من جياذ الماء نهر ينازع جلّه ربح رخاء
اذا بدت الكواكب فيه غرقى رأيت الماء تحسده السماء

فكان شغف ابن خفاجة بمثل هذا الكلام عظيما ، وكانت له ميول للمجون .
فاجتمعت هذه الميول النفسية ، الى حبه لجمال الطبيعة وكونت ملكته الشعرية
وخيالاته وتصوراته ، حتى لقد كان يملأ نفسه المجون فيملى عليه من المعاني
ما يرسم شيئا من أخلاقه وميوله في الحياة . كما قال :

وما الانس الا في مُحَاج، زجاجة ولا العيش الا في صرير سرير
وانى وان جثت المشيب لمولع بطرة خل فوق وجه غدير
كذلك كانت ميول ابن خفاجة، وهكذا كانت أخلاقه، فكانت كاخلاق
كل الفنين وميولهم : خفة وطيشا . ولكنها خفة روح تدعو الى حبه وحب
كلامه . وهذا كله في شعره ونثره . وكأنه لم يكن يرى من الحياة الا ما يتفق
مع أهوائه من بهجة وجمال ، حتى انه وصف الأندلس وقال :

يا أهلَ أندلس لله دَرُكُمْ ماء وظل وأنهار وأشجار
ماجنة الخلد الا في دياركم ولوتخيرت هذا كنت اختار
هذا السرور النفسى كان يغمره ولا يفارقه ، فانه كان يحب بلاده ، ، لانها
جميلة تشبه ما يحب في حياته من الجمال ، اذ يقول :

اب للجنة بالأندلس مجتلى عين ورياً نفس
فَسَنّا صبحتها من شنب ودجا ليلتها من لعس
فاذا ما هبت الريح صبا صحت واشوق الى اندلس

هذه أخلاق ابن خفاجة وميوله النفسية في جلته وأثرها ظاهر في حياته
العقلية، وفي رسائله النثرية وقصائده الشعرية .

لذلك كان صاحب مذهب كتابي ، وأسلوب أدبي ، يوازن بأبي تمام في
شعره ومذهبه ، وبابن العميد أو الهمداني في النثر والكتابة . فانه يشبه
أبا تمام من حيث الميل الى تنميق عباراته الشعرية ، والتعمل قليلا أو كثيراً في
ذلك ، والعناية بذكر أنواع البيان والبديع . ولكنه مع هذا غير ظاهر التكلف
كأن ذلك جاء عفواً وكأنه سليقة له . وهو على ما يظهر من شعره من
المتشيعين لطريقة أبي تمام ، المعجيين بها . كما ان غيره من الشعراء كان يقفوا أثر
المتنبي في أسلوبه ويتشبه به في آرائه الفلسفية . ولكننا لم نر أحداً فاق المتنبي في

في أسلوبه الفلسفي ، بل كانوا جميعاً مقلدين أو مغترفين من بحره . حتى انهم لم يلبثوا شأوه ، ولكن ابن خفاجة أخذ عن أبي تمام وجاراه وفاقه في أسلوبه ، لانه غير متكلف كأبي تمام . بل جاءه ذلك من باب الميل النفسى والسجية . حتى لقد يذكّر المعنى ونفس الخيال الذى ذكره أبو تمام ، ولكنه خال من كل كلفة أو تعمل ظاهر . ذلك لان ابن خفاجة كان يشعر من الجمال بما لم يكن يشعر به أبو تمام . ويكفى أن يتكلم الانسان عن شعور ليمتاز في كلامه ويلبس القلوب بمباراته

ويظهر من عبارات ابن خفاجة انه كان متمكناً من صناعته ، عارفاً بها ، سافراً على منوال واحد فيها ، في نظمه ونثره . وليس نثره غير شعر منشور ، ولا شعره غير نثر منظوم . فان رسائله القليلة التى عثرنا عليها ، هى من قبيل النثر السهل المتكلف ، سهل فى ألفاظه وفهم معانيه ، متكلف فى اتباع طرق علوم البيان . وهو مع ذلك رقيق الأسلوب . ولقد غير من نثره عبث الطبيعة وجعلها بعقله ، وامتلا كهها قوة الخيال منه .

كتب رسالة يصف فيها منزلها وكأنما قلعه ريشة مصور ماهر ، تكاد ترى ذلك رأى العين وكأنك تجول فى أنحائه ، فترى كل ركن من أركانه ، وكل ناحية من أنحائه ، وكل زهرة ووردة ، وكل شجرة وغصن وكأنما يلمسك نسيمها العليل ، وتجري أمامك الجداول والانهار . ذلك الى أسلوبه الخاص المسجوع وكأنما هو مرسل . وتجد الجملة الطويلة المسجوعة ، على حين أنك تجد كلمة واحدة شطر سجمة أو سجمة كاملة قال « ... ذهبت فى لمة من الاخوان نستبق الى الراحة ركضا ، ونطوى التفرج أرضا ، فلا ندفع الا الى غدير نيمير قد استدارت منه فى كل قرارة سماء . سحائبها غماء ، وانساب ، فى كل تلمعة حباب ، جلده حباب ، فترددنا بتلك الاباطح تهادى تهادى

أغصانها ، وتضاحك تضاحك أقحوانها ، وللتسليم أثناء ذلك المنظر الوسيم تراسل مشى ، على بساط وشى . فاذا مرّ بفدير نسجه درّعا ، واحكه صنعا . وان عثر بجداول شطب منه نصلا ، وأخلصه صقلا . فلا ترى الا بطاحا ، مملوءة سلاحا ، كأنما انهزمت هنالك كتائب فألقت بما لبسته من درع مصقول ، وسيف مسلول ، فاحتلنا قبة خضراء ممدودة أشطان الاغصان سندسية رواق الاوراق . وما زلنا نلتحف منها ببرد ظل ظليل ، ويشتمل عليه برداء نسيم عليل ، ونجبل النظر في نهر صقيل ، صافى لجين الماء ، كانه مجرة سماء . موثلق جوهر الحباب ، كان من ثغور الاحباب . وقد حضرنّا مُسمع يجري مع النفوس لطافة ، فهو يعلم غرضها وهواها ، ويغنى لها مقترحها ومناها ، فصيح لسان النقر ، يشفى من الور ، كانه كاتب حاسب تمشق يمناه ، وتعتقد يسراه ، يحرك حين يشدو ساكنات ، وتنبعث الطبايع للسكون . »

أما اذا خرج عن هذا النوع الوصفى الخيالى الفنى فتقت يضيق الطريق في وجهه ، وقد يشغل كلامه ويتكلف في عبارته . كما في رسالة يعاتب فيها^١ .

١ قالوا كانت بين أبى اسحاق وبعض اخوانه مقاطعة فاتفق ان ولى ذلك الصديق معنا فخطبته أبواسحق برقة منها . « أطل الله بقاء سيدى النبية أوصافه . الزهبة عن الاستثناء المرفوعة أمارته السكرية بالابتداء . ما انحذت ياء يرمى للجزم . واعتلت واو يفزو لموضع الضم كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها انتقال . وعهد كريم هو الفعل لم يدخله اعتلال والله يجمل هاتيك من الأحوال الثابتة اللازمة . ويعصم هذا بمد من الحروف الجازمة . وأنا أستنهض فلولك الى تجديد عهدك بمطالعة الف الوصل وتمدية فعل الفصل . والى عدولك عن باب الف القطع الى باب الوصل والجمع . حتى تسقط لدرج الكلام بيننا هاء السكت ؛ ويدخل الانتقال حال الصمت . فلا تتخيل أعزك الله ان رسم أخائك عندى قد درس عفء . ولان صدرى دارسية أمسى من ودك خلا . وانما أنا فعل اذا شئى ، ظهر من ضير وده ما بطن . وبدا منه ما كمن . وهنيئا أعزك الله ان فعل وزارتك حاضر لا يلحق زعمه تغيير ، وان فعل

وكان ابن خفاجة كثير النظر والتأمل في المشاهدات ، ولا سيما المناظر الطبيعية ، متأثراً بالمنظورات ، يحرك عقله نظره . للالوان وتناسقها سلطان عظيم عليه ، وكل معلوماته جاءت من طريق النظر الى الاشياء ، فكان يرى ويلاحظ ويعرف كيف يرى وكيف يلاحظ . ولم يكن له الا أن يلبس هذه المنظورات عبارات والفاظا بليغة فصيحة . واذ كان بطبيعته فنيا كان اختياره للألفاظ والجمل حسنا جيداً ، كما يختار المصور الماهر الالوان الجميلة اللازمة له . لذلك ، كان أسلوبه جميلاً ، وعباراته سهلة ، وكلامه سائغاً للنفس ، بعيداً عن كل تعقيد أو تركيب ركيك ، أو غموض في اللفظ أو المعنى . ويكاد يكون ديوان شعره من أوله الى آخره على نسق واحد في المثانة وحسن العبارة ، وكله من نوع واحد من حيث الصور العامة . ولكن تكرار المعاني لا يكاد يجد له القارئ أثراً لبراعة الشاعر واختياره المعاني التي كلما مرت بالنفس أو بالسمع تجدد أثرها بتجديد ألفاظها ، وتنغير آثرها بتغير تراكيها .

ولقد يصف فيخيل اليك انك تنظر في لوحة مصور ، أو كأن كل معنى في كلامه « كأن حى » يتحرك أمامك . قال يصف طيفا ألم به في الليل الطويل ،

سيفك ماض ما به للعوامل تأثير ، وأنت بمجدك جماع أبواب الظرف . تأخذ نفسك العلية بمطالعة باب الصرف ، ودرس حرف المطف . وتدخل لام التبرئة على ما حدث من عتبك . وتوجب بعد النقي ما سلف من عتبك ، وتدع الف الالفة أن تكون بعد من حروف اللين . وترفع بالاضافة بيننا وجود التنوين ، وتيسوم ساكن الود أن يتحرك . ومعتل الاخاء أن يصح . وكثاني هذا حرف صلة فلا تمخذه حتى تعود الحال الاولى صفة ، وتصير هذه النكرة معرفة ، فأنت أعزك الله مصدر فعل السرور والنبيل ، ومنك اشتقاق اسم السوود والنفل . وانك وان تأخر المصر بك كالفاعل وقع مؤخرا . وعدوك وان تكبر كالكسيت لم يقع الا مصغرا ، واللايام علل تبسط وتقبض ، وعوامل ترفع وتنخفض ، فلدخل عروصك قبض ، ولا عاقب رفضك خفض . ولا زلت سربطاً بالفضل شرطك وجزاؤك . جارياً على الرفع سرك السكريم وسناؤك ، حتى تخفض الفعل ، وتبنى على الكسر قبل ، ان شاء الله » راجع نفع الطيب ج ١ ص ٣٥٢

وأخذ خياله يتصور ما يمكن أن يكون في هذا الموقف من وصف ملاقاته لحبيبه ،
والتمتع به في حضرته . والليل يحيط بهما وهو على وشك الانصراف ، وأخذ
يشبه محبوبه بأنواع الرياحين ، وهو تشبيه سهل الإدراك صعب التركيب . وليس
هذا الكلام في طاقة كل شاعر ، ولا امتلاك البيان بمثل هذا في طوع كل قى
تكلم في الليل ثم في الطيف ووصفه بأرق ما يصف به حبيب حبيبه ، وأحسن
ما ينال عاشق من عشيقه ، وقد دام ذلك الى طلوع الفجر ، وعيون الليل تتجسس
أخبارهم ، وضوء الصباح يرقبهم :

ورداء ليل بات فيه معانق	طيف ألم لطيفة الوعاء
تجمعت بين رُضابه وشرابه	وشربت من ريق ومن صهبا
ولتست في ظلماء ليلة وفرة	شفقا هناك لوجنة حمراء
والليل مُشَبَّطُ الذوائب كِبَرَةً	خَرَفَ يدب على عصا الجوزاء
ثم التلى والسكر يسحب فرعه	ويجر من طرب فضول رداء
تندى بفيه اقحوانة أجرع	قد غازلتها الشمس غب سماء
وتيس في أنوابه ريحانة	كرعت على ظلاً بجداول ماء
نفاحة الانفاس الا انها	بحذر النوى خفاقة الأفياء
فلويت معطفها اعتناقاً حسبها	فيه بقطر الدمع من أنواء
والفجر ينظر من وراء غمامة	عن مقلة كحلت بها زرقاء
فرغبت عن نور الصباح لنورة	أغرى بها بينفسج الظلماء

ولقد يصف الليل والسير فيه وظلمته الحالكة المنبعثة من كل ركن من
أركان الفضاء . وما قد توحيه الى النفس من الخوف والرهبة . وما يلاقيه السارى
من حيوان كاسر . وكأما يظن القارئ نفسه في جوف الغلاة ومخاطر الليل .
كل ذلك بتشبيهات جميلة مختارة . كما قال :

ومفازة لا نجم في ظلماتها
تتلهب الشعري بها . وكأنها
ترمي به الفيضان فيها والربى
قد لفنى فيها الظلام وطاف بى
طراق سادات الديار مساور
يسرى وقد نضج الندى وجه الصبا
فمشوت فى ظلماء لم تقدح بها
ورفلت فى خلع على من الدجى
والليل يقصر خطوه ولربما
قد شاب من طرف الحجرة مفرق
وكما قال:

وليل كما تمد الغراب جناحه
به من وميض البرق والليل فحمة
سريت به أحياه لآحياة السرى
يقلب منى العزم انسان مقلة
بمخرق لقلب البرق خفقة روعة
سحيق ولا غير الرياح ركائب
كأنى وأحشاء البلاد تجننى
أجوب جيوب البید والصبح صارم
وفى مصطلى الآفاق جمر كواكب

ووصف ناراً هبت عليها ريح فأضرمتها وكأنما يتغازلان . أو كأن النار

والريح في موقف طرب يتمايلان من نشوته . أو كأن الريح عاشق متميم يلتم خد
اللهب الخجل . أو كأن في موقد النار ماء عليه من نجوم حجب . فقال

لاعب تلك الريح ذاك اللهب	فعاد عين الجد ذاك اللهب
وبات في مسرى الصبا يتبعه	فهولها مضطرم مضطرب
ساهرته أحسبه منتشيا	يهز عطفيه هناك الطرب
لو جاءه منتقد للمادى	ألهب متقد أم ذهب
تلثم منه الريح خدا خجلا	حيث الشرار أعين ترتقب
في موقد قد رقرق الصبح به	ماء عليه من نجوم حجب
منقسم بين رماد أزرق	وبين جمر خلفه يلتهب
كأنما خرت سماء فوقه	وانكدت ليلا عليه شهب

ورصف ساقيا جميلا ، فوصف الخمر أيضاً ومجلسه ، وكأنما السرور يسيل
بين ألفاظه ، والنعم والسعادة يتمثلان في كلامه . فقال :

وأغيد في صدر الكلام لحسنه	حلى وفي صدر القصيد نسيب
من الهيف أما ردفه فنعم	خصيب وأما خصره فجديب
يرف بروض الحسن من نوروجه	وقامته نواره وقضيب
جلاها وقد غنى الحمام عشية	عجوزا عليها للجباب مشيب
وجاء بها حمراء أما زجاجها	فنور وأما موجهها فكثيب
تجافت بها عنا الحوادث برهة	وقد ساعدتنا قهوة وحبيب
وغازلنا جفن هناك كنرجس	ومبتسم للاقحوان شنيب
فالله ذيل للتصابى سحبه	وعيش باطراف الشباب رطيب

وكل شيء يراه كان يوقظ خياله ، وينبه من أدراكه ، ويدفعه الى ابتكار
المعاني الجميلة . فقد رأى رجلا أسود أحذب يسقى خمرأ فقال في ذلك :

رب ابن ليل سقانا والشمس تطلع غره
 فظل يسود لونا والكأس تسطح حمره
 كأنه كيس فخم قد أوقدت فيه جمره
 والمدمام مدير يشب جمره خمره
 تضاحكت عن حباب يقبل الماء ثغره
 فظلت آخذ ياقو تة واصرف دره
 حتى تثنيت غصنا واصفرت الشمس نقره
 وارتد للشمس طرف به من السقم فتره
 يجول للغم كحل فيه وللقطر عبره

ولقد يفكر في شعره فيأتى بأفكار جميلة ، وملاحظات جميلة ، ويخرج من
 معنى الى آخر . وقد تكون المعاني معروفة وجديدة معا ، لأنه يبدع ويتفكر في
 التعبير . كقوله :

وليل اذا ماقلت قد باد فانفضى تكشف عن وعد من الظن كاذب
 سحبت الدياجى فيه سود ذوائب لاعتنى الآمال بيض ترائب
 فرقت جيب الليل عن شخص أطلس تطلع وضاح المضاحك قاطب
 رأيت به قطعا من الفجر أغبشا تأمل عن نجم توقد ثاقب
 وأرعن طراح الذؤابة باذخ يطاول أعنان السماء بغارب
 يسد مهب الريح عن كل وجهة ويزحم ليلا شبه بالنساكب
 وقود على ظهر الفلاة كأنه طوال الليالى مفكر فى العواقب
 يلوث عليه الغيم سود عمام لها من وميض البرق حمز ذوائب
 أصخت اليه وهو أخرس صامت فخذنى ليل السرى بالمعائب
 وقال الا كم كنت ملجأ قاتل وموطن أوّاه تبتل تائب

وكم مربى من مدلج وماوب
ولاظم من نكب الرياح معاطنى
فما كان الا ان طوتهم يد الردى
وكما فى قوله فى المشبب .

أرقت على الصبا الطلوع نجم
كفانى رزء نفس ان تبدى
ولولا أن يشق على الغوانى
فلم أعدم هناك به شفيما
غريبة شيب فود ان تراخت
شنت بمجتلاها النور حتى
وعفت كراهة للشئ شيئا
واية شية الا نذير

أسيه ساحة مشيا
وأعظم منه رزاء أن يغيبا
للاقيت الفتاة به خضيا
الى أمل ولم أبرح حيبا
حياتى آل اسوده غريبا
شنت بمجتلى النور القضييا
يكون له شيبها أو نيبا
وهل طرب وقد مثلت خطيبا

ويمدح فلا ينسى جمال الكون ، وفى كل مدحه يميل الى أن يكون
جميلا فى كلامه وأوصافه ، ولعله لا يقصد الى ذلك ، وإنما هذه هى طبيعته ونوع
ادراكه . قال

لقد ضحك الصباح بمجتلاه
وظاهرنى بمنى تربي حسام
أشيم به سنا برق يمان
الى جذلان وضاح الحيا
الى يقظان وقاد الموالى
يساور منه طوراً ليث غاب
إذا استمطرت منه غمام رحى

وراء الليل عن ثغر شيب
أنست به ونعم أخو الغريب
يخفرنى الى المرعى الخصب
سلم القلب والصدر الرحيب
مريش السعى بالرأى المصيب
ويمسح تارة عطفي أديب
أو استنصرت فى يوم عصيب

ولقد يجمع كثيراً من الصور والألوان في أبيات قليلة وهو يبدع التصوير
ويسيل كلامه رقة . كقوله :

وصتيل افرند الشباب بطرفه سقم وللعضب الحسام ذباب
يمشى الهوينا نخوة وربما أطرته طورا نشوة وشباب
شقى المحاسن للوضاء ربطة أبدا عليه وللحياء نقاب
ويعطفه للشبية منهل قدشف عنه من القميص سراب
عبر الخليج سباحة فكأنا أهوى فشق به السماء شهاب
تطفو لغرته هناك حباة ويموج من ردف ألف عباب

وكل شعراين خفاجة من الوجدانيات المملوءة بالصور والخيالات والوصاف
الدقيقة ، وأكثره خال من الأفكار العامة النفسية والفلسفية والاجتماعية ، فقرأته
أشبه بالنظر الى الصور الجميلة للتمتع برؤيتها والتسلى بهجتها .

ابن سهل

هو ابراهيم بن سهل الاسرائيلي^١ الأشبيلي الشاعر المشهور من أهل القرن السابع الهجري. مات سنة ٦٤٩ هـ بعد أن عاش أربعين عاماً. قالوا انه مات غريقاً مع أحد الولاة. وقد تعلم الأدب واشتغل به على أكابر العلماء، ونبغ في الشعر حتى قالوا عنه انه شاعر أشبيلية وشاحها. وظهر نبوغه في الشعر وهو شاب، وشهد له بذلك كبار الشعراء^٢. وعلى الرغم من أن العصر الذي عاش فيه ابن سهل كان من أواخر عصور العرب في الأندلس، فإن الشعر كان لا يزال على حاله من الرقي وحب الشعراء وتمجيدهم. بل كانت هذه الايام الأخيرة من أيام عز اللغة ونموها، فقد كثرت الافتنان في أنواع الشعر من موشحات وغيرها. بل كانت لا تزال البلاد عامرة بالعلماء من كل نوع. ذلك لأن سقوط دولة العرب لم يسبقه انحطاط في مدينتهم، أو تقهقر في حضارتهم، بل سقطت الدولة وهي في عزها وقوة نشاط عقول أبنائها. لان ذلك لم يكن من ضعف فيها أو شيخوخة أدركتها، ولكن

١ عن أصعاب التراجم بمقيدته ورووا أنه أسلم في آخر أيامه، وبحثوا في صحة اسلامه ورماء بعضهم بدم الاخلاص، وقالوا انه كان يتظاهر بالاسلام، حتى قالوا ان تمكن اليهودية من نفسه كان له أثر في شعره وقالوا في ذلك « سئل بعض المغاربة عن السبب في رقة نظم ابن سهل فقال لأنه اجتمع فيه ذلان ذل العشق وذل اليهودية » وذلك لاعجابهم بنظمه وقالوا فيه لما بلغهم حرقه . عاد الدر الى وطنه . ورووا عنه في صحة اسلامه قوله .
تسلية عن موسى بحب محمد هديت ولولا الله ما كنت أهتدي
وما عن قلى قد كان ذاك وانما شريعة موسى عطلت بمحمد
٢ راجع حديثهم مع الهيثمي في ذوات الوفيات ج ١ ص ٣٠

عوامل الحقْد دبت في نفوس أهلها فكاد بعضهم لبعض ، حتى خرجت الدولة من يدهم وهم في عز جاههم . وربما كان سقوط الدولة لم يسبقه أى عامل من عوامل التأخر العقلى . لذلك كان عصر بنى هود الذين كان من شعرائهم ابن سهل وعصر بنى الأحمر ، وحتى عصر برابرة أفريقية خاصة بالعلماء والا دبء والشعراء ، وكان كلما تقدم الزمن بالدولة ظهرت فيه ثمار العلوم والعقول ، لأنها كانت دائماً نتيجة الجهود السابقة . وارق شعر الاندلس ما جاء بعد القرن الرابع أى بعد زوال دولة بنى أمية ، التى كان عصرها أزهى عصور الحضارة هناك . لذلك يمكن القول بان اللغة العربية في جملة سيرها لم يدركها انحطاط محسوس في أثناء القرون الثمانية التى تخطتها في الأندلس ، سوى ما حصل من المبالغة في طريقة السجع النثرية . ويمكن أن نقول ان ابن سهل وهو من شعراء القرن السابع ، يشبه غيره من شعراء القرن الثاى والثالث ، وان سير اللغة والأدب في الأيام الأخيرة مثله في الأيام الاولى ، بدليل كثرة الشعراء والكتاب المجيدين الذين ظهوروا في تلك الأيام ، ولاننا لا نجد شيئاً من تقهقر اللغة في آخر الدولة .

ولو اننا أردنا أن نتكلم على ابن سهل من حيث تربيته العقلية ، لوجدناه كغيره من الشعراء الذين تهذبت نفوسهم وعقولهم بجهود العقول التى أثمرت قبلهم ، والاطلاع على شعر الشعراء وكتابة الأدباء . وربما نزح أبأؤه الى الأندلس منذ زمن بعيد ، ولكنه على كل حال غير عربى الأصل ، نبغ في بلاغة العرب وشعرهم وتعلم العربية وبرع فيها . وليس شعر ابن سهل الا نتيجة تربية عقلية عربية واسعة واشتغال كبير بلغة العرب ، مما يدل على اندماج غير العرب فيهم والعناية بحفظ لغتهم كما هو معروف في التاريخ من اشتغال المقهور بلغة القاهر أو تقليد المحكوم الحاكم في لغته وعلومه ومدنيته

أما شعره فيكاد يكون كله وجدانيا صرفا ولا نكاد نجد له في غير الغزل

الا القليل . فهو من الشعراء الذين كانوا يستسلمون الى الاهواء فتقودهم، والى
القلوب والخيالات فترشدكم الى الكلام وطرقه. لذلك كان شعره جيلا، ومعانيه
رائعة شائقة سائغة للنفس ، مع رشاقة في اللفظ ومتانة في الاسلوب، ودقة في
التعبير . ذلك لأنه أمعن في هذا الكلام الغزلي حتى أتقنه وبرع في عباراته
وكشف مخبآتة . وكأنه لم يترك شيئا يجول برأس العاشق أو تتحدث بها نفسه
الا ذكره أو وجده في نفسه فتكلم عليه في شعره . وقد خط له بهذا طريقا سلكه
ولم يخرج عنه الى طريق آخر . وكأن آراءه في العشق والغزل هي كل ما يعرف
وكل ما لديه من طرق التفكير وأساليبها ، لأنه لم يخرج مطلقا عن هذه الدائرة
حتى أتى على آخرها مرات وابتدأها من أولها مرات . ومثله في ذلك مثل من
عرف حادثة واحدة من الحوادث فكتبها أولا من أولها الى آخرها، ثم رتبها ترتيبا
آخر وكتبها بحيث جعل الاول آخرها والاخر أولا ، ثم كتبها مرة ثالثة بحيث
ابتدأها من الوسط وهكذا . فعدم خروجه عن دائرة الغزل ربما يدل على قصور
خياله، لان الشاعر الكبير الخيال يرى الف شيء، ويفكر فيما حوله من الموجودات
ويعمل على تصويرها وابتزازها بشكل جميل . والانسان يرى غير حبيبه ويشعر
بغير الحب ، اذ ليس ذلك كل ما في الحياة اللهم الا أن يكون شاعرا متيا مجنونا
بمحبيته، غارقا في بحار عشقه لا يرى ولا يعقل غير ذلك . وليست هذه حال ابن
سهل لان جنون الحب غير ظاهر في شعره، فانه على الرغم من اقتصاره على تغزله
بمحبيته موسى تجده في كلامه ساكنا عاقلا ، مستعملا للكلام أحيانا . والظاهر
ان موسى حبيبه رمز على عشقه ان كان عاشقا عشقا صحيحا، أو ضرب من ضروب
الفكاهة والظرف، لانه كان يهوديا فأراد أن يذكر اسم موسى في شعره ويرمزه
عن عشقه، أو لعله اتخذ موسى هذا داعيا من دواعي الشعر فأخذ يتغنى باسمه
أما هذا الاكثار من الغزل والضرب على نغمة واحدة وعدم الخروج عن

هذه الدائرة، فلا يدل الا على قصور باع الشاعر وضيق الخيال لديه كما قلنا، وانه ليس شاعراً واسع التصور والخيال

لهذا يكفي لمعرفة شعر ابن سهل أن تقرأ له قصيدة واحدة، فان كل قصائده تكاد تكون كلها متساوية في المعنى والجودة والأسلوب. وربما ظهرت قيمته في شعره على أثر قراءة قصيدة أو قصيدتين أو ثلاث، وأعجب الانسان بأسلوبه وبيانه، فاذا أكثر من قراءة شعره انطفأ لهيب هذا الاعجاب شيئاً فشيئاً، ثم أحس القارئ انه شاعر ككل الشعراء. وسبب ذلك تكرار المعنى الواحد بأسلوب واحد

ولكنه مع هذا كله شاعر مجيد في نوعه، يتغزل فيذكر في غزله كثير من معاني العشق المختلفة، فيصف حبيبته بالجمال والكمال، ويصف ألمه ويشكو ويلتذ منه، ويبين كامن عواطفه وما هو في نفسه، ويعن في ذلك حتى يأتي بشيء من المعاني المبتكرة والخيالات التي له. كقوله:

وإني لثوب السقم أجدر لابس	وموسى لثوب الحسن أملح مرتدى
تأمل لظى شوقي وموسى يشبها	تجد خير نار عندها خير موقد
دعوه يذب نفسى ويهجر ويجهد	تروا كيف يعتز الجمال ويعتمد
إذا مارنا شزرا فمن لحظ أحور	وان يلو اغراضاً فصفحة أعيد
وعسذب بالى نعم الله باله	وسهدنى لاذاق بلوى التشهد
تطلع واللاحى يلوم فراغى	وكدت وقد أعذرت يسقط في يدى
وناديت لا اذ قال تهوى وانما	رمانى فكانت لا افتتاح التشهد
أيا طيب سكر الحب لولا جنونه	محال لذة النشوان سكر المعربد
شكوت مجازاً للطبيب وانما	طبيبى سقام من لواظ مبعدى

فقال على التأنيس : طيبك حاضر فقلت نعم لوأنه بعض عودي
وقال شكاً سوء المزاج وانما به سوء بخت من هوى غير مسعد
بكيت فقال الحسن هزأاً أتشتري بماء جفون ماء نثر منضد

وقد يث شجوه وهواه بعبارات وجدانية صرفة ، ويصف حبيبه بصفات
جميلة ، ويشبهه بالزهر ، ويقارن بين لحظه في السقم وجسمه في السقم ، ويتذلل في
السؤال ويتمنى الموت ، لعل حبيبه يزور قبره . وكأنما يريد أن يتسلى بهذا الكلام
أو يفخر بهذه الصناعة ، أو يثبت لنفسه شيئاً من البراعة في قول الشعر ، لانه يشبه
في شعره رجلاً متصنعاً لا عاشقاً مخلصاً . حيث يقول :

حكي لحظه في السقم جسمي واغتدى لنا ثلثاً في ذاك ميثاق عهده
وأركبني طرف الهوى غنج طرفه وأشرقني بالعذب اشراق خده
وأغرى فؤادي بالاسى روض آسه وأوردني ماء الردى غص ورده
يعارض قلبي بالخطوق وشاحه ويحكي امتداداً زفرتي ليل صده
وما المسك خال من هوى خاله وان غدا الند منه مستهما بنده
وقد يصور يأسه بأشد ما يكون ، ولكن بارق اسلوب وأسهل عبارة ، وكأنه
كلام فطري لا خيال شعري . كما في قوله :

تدنيك زور الاماني منى وتنأى طلابا
كأنني حين أبغى رضاك أبغى الشبابا
وأشهى منك ذنباً أبغى عليه العتابا
حتى اذا كان ذنب فتحت للعذر بابا
ظمئت منك لوعد فكان وردى السرابا
لاخاب سؤلك أما سؤلى لديك نفايا

ولقد يرق في أسلوبه حتى يخيل اليك أن الكلام نثر لا شعر ، وأنه ليس فيه

أدنى كلفة ، وكأنما يعترف الكلام اغترافا . وهو مع ذلك يجيء بالتشبيه الجميل والمعنى الرقيق . كقوله :

سل في الظلام أخاك البدر عن سهرى	تدرى النجوم كما تدرى الورى خبرى
أييت أهتف بالشكوى وأشرب من	دمعى وأنشق ريا ذكرك العطر
حتى أخيل أنى شارب ثمل	بين الرياض وبين الكاس والوتر
من لى به اختلفت فيه الملاحه اذ	أومت الى غيره إيماء مختصر
معطل فالحلى منه محلاة	ينغى الدراري عن التقليد بالدر
بجده لفؤادى نسبة عجب	كلاهما أبدا يدمى من النظر
وخاله نقطة من غنج مقلته	أنى بها الحسن من آياته الكبر
جاءت من العين نحو الخلد زائرة	وراقها الورد فلستغنت عن الصدر
بعض المحاسن يهوى بعضها طربا	تأملوا كيف هام الفنج بالخور

وربما وصف حبيبه بأوصاف الرياض والبساتين ، فتخاله زهرة يانعة غضة ، أو غصنا يتحرك ، أو زهرة تتألق . كقوله :

من لى بأن يدنو بعيد مزاره	ظهى طلوع الفجر من أزراره
كالغصن فى حركاته وقوامه	كالظهى فى لحظاته ونفاره
فى الروض منه محاسن ومشابه	فى آسه وبهاره وعراره
فعراره من لحظه وبهاره	من خده والآس نبت عذاره
وعلقته وسنان يلعب بالنهى	كتلاعب الساقى بكأس عقاره

ثم يتكلم عن ذله واعراض حبيبه عنه ، وهو يتمنى قربه منه ويصف ما يصيبه من الآلام وما له من الشغف به ، ويعجب من أمره فى ذلك اذ يقول :

يا حسنه لو كان يرحم صبه	وجماله لو كان من زواره
الف التجنى والبعاد شريعة	فالنجم أقرب من دنو مزاره

أومى الىّ بلحظه فتناثرت خياله في الخلد من أشفاره
لما أراق دم المشوق تعمداً اسود نقط الخلال من أوزاره
وإذا أقول عسى وليت وربما فقال لا للصب من أخباره
فالخلد يفرق في معين دموعه والقلب يصلى في جحيم أواره
عجباً لضد كيف يآلف ضده هذا بادمعه وذاك بناره

وقد يذكر اجتماع النقيضين بينه وبين حبيبه ، ويجول خياله في ذلك جولاناً
يدعو الى الاعجاب كقوله :

ضللت بالبدر على نوره والناس يستهدون بالبدر
أبطل موسى السحر فيما مضى وجاء موسى اليوم بالسحر
مستحسن الاوصاف ممنوعها فلا ترُمه بسوى الفكر
كلما في السحب وكالدري الاصداد والشادن في القفر
لو أنه عنّ لحرورية القته بين السحر والنحر
ولو دعا ميتاً بالفاظه اذاً للباه من القبر
درّ ثناياه والفاظه فلقبوه الكوكب الدرّى
وعوذوه العين بل عوذوا من عينه الناس هوى يسرى
كأنما الخلال على خده سواد قلبي في لظى الجمر
ومن أحاديثه الغرامية قوله :

أشمس في غلالة أرجوان وبدر طالع أم غصن بان
ونفر ما أرى أم نظم در ولحظ ما حوى أم صارمان
وخد فيه تفاح وورد عليه من العقارب حلاصان
ويعذلنى العواذل فيه جهلا عزيز ما يقول العاذلان
فقالوا عبد موسى قلت كلا فقالوا كيف ذا قلت اشتداني

فقالوا هل عليك بذا ظهير
فقالوا هل رضىت تكون عبدا
فقلت نعم أنا عبد ذليل
بنفسى من يفدىنى بنفس
سألتك حاجة أن تقضها لى
فقلت أشم من خديك وردا
فقلت أخاف صدغك أن يرانى
فقال أعاشق ويخاف رميا
كذاك الصب يعذر كل صب
فكان تحكما لا وزر فيه
أديرا الراح ويحكما سلافا
فقلت نعم على وشاهدان
لقد عرضت نفسك للهوان
لن أهوى نفلونى وشانى
جعلت فداء لما ان فدانى
فقال نعم قضيت وحاجتان
فقال وما تضم الوجنتان
وما أنا من لحاظك فى أمان
جيت وما عهدتك بالجبان
تحكم ما تشاء وفى ضماى
أكتبه على الكاتبان
فان دارت على فعاطيانى

وله كلام جميل فى الوصف يدل على انه كان يحب الجمال ويفهمه ، وانه كان
للارياض وما بها أثر فى نفسه ، وان الالوان كانت تحرك اعجابه ، وان مياه الأنهار
وضوء الشمس والطيور والجو وما فيه هذبت من خياله . كقوله :

الارض قد لبست رداء أخضرا
هاجت نخلت الزهر كافورا بها
وكان سوسنها يصفح وردها
والنهر ما بين الرياض تخاله
وجرت بصفحتها الربا فحسبتها
وكانه اذ لاح ناصع فضة
والطير قد قامت به خطباؤه
والطل ينثر فى رباها جوهرا
وحسبت فيها التبر مسكا أذفرا
نورا يقبل منه وردا أحمر
سيفا تعلق فى نجاد أخضرا
كفا ينمق فى الصحيفة أسطرا
جعلته كف الشمس تبرا أصفرا
لم تتخذ الا الاراكة منبرا

وقال أيضا يصف :

أنظر الى لون الأصيل كأنه لا شك لون مودع لفراق
والشمس تنظر نحوه مصفرة قد خشت خدام من الاشفاق
لاقت بحمرتها الخليج فالفا خجل الصبا ومدامع العشاق
سقطت أوان غروبها محرة كالكأس خرت من أنامل ماضي

وقال في الوصف أيضاً :

شفق وشته خضرة في حمرة فكأنه خد الحبيب معرضا
والشمس تنظر نحوه مصفرة قد شمرت ذيل الوداع لتنهد
كالصباحين رأى عذار حبيبه لما بدا فسلا وولى معرضا

وله في وصف الخمر كلام رقيق يشبه كلامه في الوصف . كقوله :

بهل الكأس تزهو بين صبغ واشراق أذوب فيها الورد أم وجنة الساق
كؤوس تحيها النفوس كأنها حديث تلاق في مسامع عشاق
إذا قتلوها بالمزاج ليشربوا عاشوا مناهم بين موت . واخلاق
تور كأن الماء يلعب صرفها فصوت المغنى مثل هينمة الراق
وله موشحات سند كرها في بابها

هذه صورة ابن سهل ، وهي صورة شاعر وصاف يجيد الوصف ، وغازل يجيد الغزل ، وووجداني لا يخرج عن دائرة وجدانه ، ومصور بارع لما يرى ويسمع قليل الآراء ، قاصر الخيال ، لكنه مبدع في الأسلوب ، متقن في الكلام ، لا يشعر الانسان بادنى ملل في قراءة كلامه وهو في كل ذلك خفيف الروح مطرب معجب . وكفى بذلك دليلا على جمال قوله ونصيبه في الافتنان .

الفتح بن خاقان^(١)

إذا تكلمنا عن الفتح بن خاقان فإنما نتكلم عن كتبه التي ذكر فيها كثيراً من علماء الأندلس وأدبائهم ، وجمع فيها جملة صالحة من منظومهم ومنشورهم ، وشيئاً يسيراً من أخبارهم . وهي «قلائد العقيان» و«مطمح الأنس» . وقد دل ابن خاقان في كتبه على سعة اطلاعه ، وكثرة أدبه ، ومعرفته التامة برجال الأدب في الأندلس ، مما لم يكن متيسراً لغيره . حتى أن أكبر كتب الأدب في الأندلس كثيراً ما تنقل عنه . فقد نقل عنه المقرئ في نفع الطيب وذكره في أكثر من ستين موضعاً . ومع أنه كان معاصراً لابن بسام صاحب الذخيرة فقد نقل عنه هذا في كتابه . فكتبه من أمهات كتب الأدب في الأندلس .

أما طريقته في الجمع والتأليف ، فهي خالية من كل صبغة تاريخية علمية ، من

١ هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان القيسي الأشبيلي صاحب قلائد العقيان . نشأ في الأندلس ودخل إلى بلاد المغرب واتصل بملوكها وكتب لبني تاشفين وألف كتابه «قلائد العقيان» لأبي اسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين وصدره باسمه . ثم حدث أن وشى به من وشى ونالت منه الاعداء ، فأشار أمير المسلمين أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين بقتله فذبح بمدينة مراکش بالفندق سنة خمس وثلاثين وخمسمائة . وقد كان مشهوراً بالخلاعة والمجون ، حتى أخذوا عليه ذلك وعرف بما لا يليق به . ولعل هذا من الأسباب التي جعلت ملوك البرابرة يحقدون عليه حتى قتلوه . وكان جواباً للآفاق ينتقل من مكان إلى آخر ، ولم يعرف عنه شيء كثير في كتب التراجم . ولم نجد له ذكراً إلا في ابن خلكان ذكره في نحو نصف صفحة . ولم يذكره المقرئ في نفع الطيب بغير الاقتباس من كلامه في المطمح وغيره . على أن الفتح بن خاقان لا يمتنع ذكره بما له من الفضل ، وما أفاض به على الأدباء بكتبه قلائد العقيان ومطمح الأنس . ولا شك في أن هذه الكتب من أنفع ما كتب عن الأندلس

حيث التحقيق والتدقيق في الرواية والجمع. بل هي طريقة الرواية والحفظ لاغير .
لان ما رواه كان معروفا ومشتتا فجمعه هو في كتابيه ، كما أشار الى ذلك في خطبة
كتابه مطمح الأنفس^١

نقل أخبار العلماء والادباء كما كان معروفا عنهم . وقد ينقل الخبر
بدون أى تصرف فيه ، سوى وضعه في قالب معروف له . وأما معنى بتحسين
العبارة وتسجيعها ، وجمع الألفاظ ورصفها ، مما لا يقدر عليه كل انسان . فيترجم
المكاتب أو الأديب ، وهو في أكثر ما يقول مادح لا غير ، وكأنما هو ناقل
للفضائل لا يرى غيرها . ولقد يذكر لك الرجل فلا تعرف في أى سنة كان
يميش ، ولا في أى عصر كان معروفا . وربما ذكر معه أسماء لبعض الادباء أو
العلماء ، وربما لم يشر الى تاريخ ما للعالم أو الأديب على ماله من الشهرة. ولعله كان
يعتمد على شهرته ويكتفى بهاعن ذكر تاريخه كما في كلامه على ابن حزم الظاهري^٢
وفي هذه الترجمة من التقصير شيء كثير . فانه لم يذكر ابن حزم الا بذكر
كتبه بدون أى اشارة الى محتوياتها . ولم يذكر شيئا عن تاريخ حياته ، حتى
يمكن أن يعرف معرفة تامة ، أو معرفة صحيحة . وليس لهذه الترجمة شيء من
القيمة العلمية ، لانها لا تفيد شيئا عن ابن حزم . وهذا يدل على ان ابن خاقان
لم يكن يعنى بما يكتبه عناية رجل محقق ، ولا عناية رجل يشعر بالواجب عليه ،
ذلك الواجب على كل مؤلف أو باحث من حيث الاطلاع والتنقيب عما يريد

١ قال : انه كان بالاندلس أعلام فتنوا بسحر الكلام ، ولقوامه كل تحية وسلام ، فثعشعوا البدائع
وروقوها ، وقلدوها بمحاسنهم وطوقوها ، ثم هورا في مهاوى المنايا ، وانطوا بأیدی الرزايا ،
وبقيت ماآثرهم غير مثبتة في ديوان ، ولا جملة في تصنيف أحد من الأعيان ، تجلتي فيه
العيون وتجتني منه زهر الفنون ، الى أن أراد الله اظهار اعجازها... خللت من الوزير ابى
الماص ونديني الى أن أجمعها في كتاب ... فاجيت رغبة الخ

٢ أنظر المطمح صفحه ٥٥

أن يكتب. والظاهر انه كان يرمى الى الجمع فقط ، بل لم يكن يميل مطلقاً الى النقد ولا الى أن يكون له رأى خاص

ومها قيل من ان الناقل يحب أن يكون أميناً ، وليس عليه تبعه شيء في النقل ، فان النقل يحتاج الى تمحيص وفكر ثابت ، لتمييز الصحيح من غيره . والفكر النقدي يظهر أثره في كل شيء . ولكن لم يظهر لصاحب قلائد العقيان أى أثر سوى الاسلوب . ليس لنا أن نلومه على أسلوب السجع الذى أكثره متكلف ، لان هذه كانت حالة الكتابة هناك ، وهكذا كانوا يكتبون . ولكن الذى تأخذه على صاحب قلائد العقيان هو هذا الأسلوب الاجوف ، وهذه المبارات المنتفخة الفارغة من كل معنى ، وان احتوى على معنى من المعانى اختفى ذلك تحت ستار الألفاظ الطنانة ، وذابت جِدَّة اللفظ بتذوق المعنى ، واشتغل القارئ بصورة الألفاظ عن العناية بما فيها من المعانى . فلقد يشير فى كلامه الى بعض الناس ، بما يدل على شيء من أخلاقهم ، ويفيد القارئ والباحث ، ولكن عنايته بالألفاظ ، وتناسق السجع ، قد يكون حاجزاً منيعاً بين القارئ ومعانى المؤلف ، كما فى ترجمة سعيد بن منذر البلوطى ، وهى من التراجم الوافية فى المطمح ومن نماذج كتاباته^١

١ قال فيه أية حركة فى سكون ، وبركه لم تكن معدة ولا تكون . وآية سفاهة فى تحلم ، وجهامة ورع فى طي تبسم واذا جد تجرد واذا هزل نزل ، وفى كلتا الحالتين لم ينزل للورع عن مرقب ، ولا اكتسباً مما ولا احتقب . ولى قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن وناهيك من عدل أظهر . ومن فضل أشتهر ، ومن جور قبض ، ومن حق رفع ، ومن باطل خفض . وكان مهيباً طيباً صارماً غير جبان ولا عاجز . واستمر فى القضاء الى ان مات الناصر لدين الله ثم ولى ابنه الحكم فأقره وفى خلافته تولى بعد أن استعفى مراراً فما أعنى فلم يحفظ عليه مدة ولايته قضية جور . ولا عدت عليه فى حكومته ذلة . وكان غزير العلم كثير الأدب متكلماً بالحق متيناً بالصدق . له كتب مؤلفة فى السنة والقرآن والورع والرد على أهل الأهواء والبدع . وكان بليغاً وشاعراً محسناً ولد سنة ثلاث وعشرين ومائتين عند ولاية المنذر بن محمد وتوفى يوم الخميس لليلتين بقيتا من ذى القعدة سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة . (مطمح صفحة ٣٧)

على ان ابن خاقان أجاد في أساليب السجع اجادة قد تنقل الكلام المنور الى مرتبة الشعر المتعمل ، فيستولى بأسلوبه هذا على القراء لبراعته فيه ، ولأثره الشخصي في هذه الصناعة ، وقدرته على الاسترسال في ذلك ، مع ما فيها من كثرة المترادفات .

على أن هذه الصناعة اللفظية كان لها أثر عظيم في نفسه من حيث ادراك الجمال في القول ، والبحث عن مواقفه . فكان يرتفع أحيانا بعباراته الى أن تدب في النفس وتملأها إعجابا ، وتذكر القارئ بأثر جمال الالوان والرياح والزهود ، كما في خطبة قلائد المقيان

ولقد يتكلف في غير حاجة سوى تمكن ملكة التكلف من نفسه فيهبوش على القارئ ، كما في ترجمة ابن عيشون . فان ترجمته لهذا الرجل لا يعرف منها شيء غير رحلته الى المشرق ، ولكن أين ومتى ؟ وكأنما كان يكتب لمن يعرف الحوادث مثله ، فقد قال فيه : « رجل حل المشيدات والبلاقع ، وحكي النسرين الطائر والواقع ، واستدر خلى البؤس والنعيم ، وقعد مقعد البائس والزعيم ، قاوثة في سباط ، وأخرى بين درائك وانماط ، ويوماً في ناموس ، وآخر في مجلس مأنوس . رحل الى المشرق فلم يحمد رحلته ، ولم يعلق بأمل نخلته ، فارتد على عقبه ، ورد من حباله الفوت الى منتظره ومرقبه ، ومع هذا فله تحقق في الأدب ، وتدفق طبع اذا مدح أو نسب ^١ »

هذا هو أسلوب الفتوح في التأليف والكتابة ، وهو على ما فيه من الآثار

١ وقال أخبرني أنه دخل مصر وهو سار في ظلم البوس - عار من كل لبوس - قد خلا من النقد كيسه ، وتحلى عنه الا تقديره وتنكيسه ، فذل بأحد شوارعها لا يفترش الا تكده ، ولا يتوسد الا عضده ، وبات بلبلة ابن عبدل تهب عليه صرصر لا ينفج منها عنبر . ولا صندل لما كان من السحر ، دخل عليه ابن الطوفان وأشفق لحاله ، وفرط بحاله وأعلمه أن الأفضل استدعاه ، ولوارتاد وجوده بقطعة يثنيها له لا خصب مرعاه . فصنف له في حينه الخ (قلائد المقيان ص ٢٨٨)

النافعة لأدب الأندلس ، ومن صور اللغة العربية الدالة على أطورها في النثر ،
وعلى تمكن أساليب السجع من الكتاب في تلك الأيام ، وعلى ما فيه من الجمال
وبلاغة العبارة وعلى شيء من النظام العقلي لديهم ، لا يدل على شيء من
قوة الفكر لدى الكتاب الأدباء ، بل على أن اللغة في عزمجدها كانت غنية
بالفاظها لا بما فيها ، وأن العناية بالأساليب سرت من المشرق الى المغرب ،
فلكت من الكتاب كل شيء . وقد دخل هذا الأسلوب في الكتب العلمية
والتاريخية ، كما هو معروف ، ودل كتاب العرب على قدرتهم في استعمال الأساليب
المختلفة والألفاظ المختارة مما ليس عند أمة أخرى
على أن فضل الفتح بن خاقان لا ينبغي ولا ينكر بما جمعه في كتبه مما ليس
عند غيره

لسان الدين بن الخطيب

هو من أكبر وجوه العلم والأدب في آخر عصور العرب في الأندلس ، بل من أشهر من عرف هناك . وهو أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد المعروف بابن الخطيب الغرناطي الأندلسي . تنقلت أسرته في كثير من بلاد الأندلس واستقر أبوه في غرناطة . وهناك ولد لسان الدين وعرف واشتهر في بلاد المغرب بابن الخطيب الساماني . نشأ من بيت علم وفضل ، وتربى على حب العلم ، وورث من أبيه كثيراً من ذلك . وكان معجبا به وبعلمه وأدبه وأخلاقه !

ولد لسان الدين بمدينة غرناطة سنة ٧١٣ هـ . واتصل أبوه بملوك بني الأحمر وكان له شأن عظيم حين كانت غرناطة حافلة بالعلم وأهله من كل فن . فشب لسان الدين بين هؤلاء العلماء ، وانقطع إلى أفاضلهم وأخذ عنهم العلوم والآداب ، وكان من بين مشايخه الفلاسفة والأدباء والأطباء . تعلم الطب على أشهر علماء الأندلس وفلاسفتها في هذا العصر ، وبرع فيه وألف فيه كتابا سماه « الأصول لحفظ الصحة في الفضول » عده هو نفسه من أحدث طراز في ذلك الفن فقال « العجب

١ فقد قال عنه كان رحمه الله تعالى زمر عزم ، ورجل أخاء وأزم تروق أنوار خلاله الباهرة ، وتضيء مجالس الملوك من صورته الباطنة والظاهرة ، ذكاء يتوقد ، وطلاقة يحسد بورها الفرقد ، وكانت له في الأدب فريضة ، وفي النادرة العذبة منادم عريضة ، تكلمت يوما بين يديه في مسائل من الطب وأنشدته أبياتاً من شعري ، فتهلل وابتهج ، وما برح أن ارتجل :
الطب والشعر والكتابة سياتنا في بني النجاسة
هن ثلاث مبلغات مراتبا بعضها الحجة

حتى مع تأليف هذا الكتاب الذى لم يؤلف مثله فى الطب وعمل ذلك لا أقدر على مداواة داء الأرق الذى بى « ومها يكن من المبالغة فى كلامه فانه يؤخذ منه انه كان من علماء هذا الفن . وقد ألف كتباً أخرى فى ذلك . فكانت معلوماته متوافرة فى الفلسفة والطب ، وامتزج بالأدباء والفقهاء وأخذ عنهم علوم الدين من تفسير وحديث وفقه ، وتعلم العلوم العربية جميعها فكان عالماً وأديباً

هذه الترية العلمية الأدبية الممزوجة بميله للعلوم والفنون وهبته نشاطاً عقلياً فكان من المؤلفين المشهورين ، كثير الدرس والقراءة . ورسائله الأدبية ومقطوعاته الشعرية كثيرة جداً . حتى قالوا انه كان يؤلف كل هذه الكتب لأنه كان يأرق كثيراً

وقد اغترف من كل بحر قطرة ، وكتب فى كثير من الفنون المختلفة بين علمية وأدبية ، واطلع على أكثر ما كتب فى العلوم والفنون ، ولا سيما كتب التاريخ ويحسبه بعض العلماء من المؤرخين الكبار . فكان عقله خزانة علوم وآداب . وكان عالماً وفقهاً وشاعراً وكاتباً ، ولكنه لم يختص بفن ولم يتفوق فى شيء تفوقه فى الأدب ، حتى كان من أئمة . ورسائله كثيرة فى الجزء الثالث والرابع من نفع الطيب^١

لذلك كانت الصبغة الأدبية عليه أظهر ، والكتابة والشعر الصق به من غيرها ، فأجدر به أن يسمى أديباً لا عالماً . ولذلك أيضاً كتب فى كل نوع من أنواع الكتابة رسائل أدبية وسياسية وغيرها ، وهو فى كل ذلك واسع الخيال سديد الرأى ، حاد اللسان ، قادر على الاسترسال فيما يقول ، كثير الاطلاع على اللغة . فساعده هذا كله على الاطالة فيما يكتب ويفكر ، وكان يحب الاطناب بطبيعته

١ اكتفينا بالإشارة الى رسائل لسان الدين والى شعره . لأن ذلك كثير يدعو الى الحيرة فى الاختيار فملى القارئ أن يرجع الى الجزء الثالث والرابع من نفع الطيب

فاندفع وراء ذلك ، وهو مثلوج الصدر ، يعرض عليه خياله وفكره المعاني والألفاظ ، فلا يكاد يقف قلمه الا بعد أن يملأ من الفكر الصغير صفحات كبيرة . وكان قدر الكتابة عنده في الاكثار لا في الاجادة ، أو ان الاجادة كانت لا تفارق الاطالة لديه . وهذا كان أسلوب الكتاب في تلك الأيام . وكان يختار بجانب الاطالة السجع ، فكانت كتاباته لا تخلو من ملين : ملل الاطالة وملل السجع . وربما كان أعظم عيب في أسلوب ابن الخطيب تلك الاطالة المملة ، والسجع المشكك ، غير ان ملل الاطالة أسوأ من تكلف السجع . لذلك كثيرا ما يخفى عيب السجع لاختيار الكاتب الألفاظ . وهذه الطريقة دليل على انحطاط أسلوب النثر ، لان طريقة السجع ليست طبيعية ، ولسان الدين كان من أكبر رجال هذه الصناعة ، وربما انفرد بالمبالغة فيها . ويكفي هذا الأسلوب مقنناً أنه لا يقدر على قراءته كل انسان ، وانه لا يعيش الا في بطون الكتب ، ولا يصح أن يكون نموذجاً من نماذج اللغة الا للاستدلال على سيرها في أزمنة التاريخ .

ولكن ذلك لا يدفعنا الى جحود ما في هذه الرسائل من المعاني والأفكار الصحيحة ، أو من الشعور بان الكاتب يميل الى موضوعات كثيرة اجتماعية لم يطرقها كثير من الكتاب ، ككلامه في وصف المجالس والمحافل والمدن بالأوصاف الحقيقية ، والأسلوب القصصي الذي يسوقه بالمقامات

أما شعره فكثير أيضاً ، وأكثره يدل على انه شعر رجل عالم من عشاق الشعر لا من رجاله الفنيين . وله قصائد طويلة تدل على سعة خياله ، أفضلها في ذلك موشحته الشهيرة التي أبدع فيها . وهي من أرق الشعر وأجمله . وقد طرق في شعره كثيراً من الموضوعات المختلفة والأساليب المتعددة ، فتجد الشعر الغزلي الرقيق ، والأسلوب الدقيق ، وتجد شعر الفقهاء ، وكلام الاتقياء ، وأسلوب

١ راجع هذه الموشحة والكلام عليها في باب الموشحات

العلماء ، وجفاف اللفظ والمعنى . على ان له كثيرا من القصائد الجميلة والمقطوعات الرقيقة .

أما حياته السياسية فقد اتصل بأحد ملوك بني الأحمر السلطان أبي الحجاج يوسف فأخذه في حاشيته ، وفي مقدمة كتّابه . ثم جعله كاتبه الخاص وسلم اليه الوزارة وأمر الدولة وجعله سفيراً بينه وبين الملوك الآخرين . فكان اشتغاله بالسياسة من الأشياء التي فتحت عليه باب الكتابة في كثير من الموضوعات الاجتماعية والسياسية ، على حسب ما كان يعلمه وما كان معروف في ذلك الوقت . ولما مات أبو الحجاج خلفه ابنه محمد بن أبي الحجاج ، فأقره على مكانه وأرسله الى ملوك افريقية ليستنجد بهم على أعدائه . وكانت الدولة في ذلك الوقت في اضطراب والناس بين مظلوم وظالم ، وخارج على السلطان ومتملق له ، وكل ذي نعمة محسود . فحسد لسان الدين . كثير من معاصريه وسعوا في الايقاع به . وكان قد خرج على محمد بن أبي الحجاج أخوه وتغلب عليه ، فهرب ومعه ابن الخطيب ثم حوصر ، وقبض على لسان الدين ، واستباح السلطان كل أموالها . ثم شفع لها سلطان المغرب . وأتى بهما الى فاس وأكرمهما . فجال لسان الدين في تلك البلاد ، وانتقل الى أماكن كثيرة واستقر هناك . ولما رجع الملك الى محمد بن أبي الحجاج عاد الى الأندلس وكان استكتب أبو محمد هذا في غيبة لسان الدين ابن زمرك ، أحد مشهورى الكتاب والعلماء ، ومن أكبر وأشهر تلاميذ لسان الدين . فتولى ابن زمرك ديوان الكتابة والتف حوله جماعة من الفقهاء والعلماء الذين كانوا يحقدون على لسان الدين ، لانه ظهر عليهم وملك الدولة منهم . فأرادوا أن يتخلصوا منه ويأخذوا الأمر بيدهم . فأخذوا في بث الدسائس وإيغار السلطان عليه ، ولكن عند ما رجع لسان الدين الى الأندلس ارتفع شأنه ، وعرفه الناس في غيبته أكثر من معرفتهم له في حضرته . فحقد عليه تلميذه ابن زمرك ثانية ، وأخذ عليه الفقهاء أشياء ينكرونها

وكانت العقول في ذلك الوقت ميالة الى الانحطاط ، لان البرابرة بشوا أفكارهم
 السخيفة التي كانوا ينشرونها بجهلهم ، ونشروا كراهة العلوم الطبيعية والفلسفية . فأشاع
 ابن زمرك عن لسان الدين انه كافر مارق ، وانه جاء في كتبه بكثير من المسائل
 التي لا يبيحها الدين . فراجت هذه الوشائات عند السلطان وأثارت غضبه
 ولما علم لسان الدين بذلك ، وعرف انه لا بد أن يُنال منه ، عزم على الهرب الى
 افريقية بدعوى انه ذاهب في أمور تتعلق بالملكمة . ولكن عند ما ذهب الى
 افريقية اتفق ملك المغرب على تسلمه لابن الأحمر ، فسجن في فاس وأقنى الفقهاء
 بقتله ، ودسوا عليه أحد القواد نخنقه في سجنه ودفن في فاس ثم أخرجت جثته
 وأحرقت بالنار سنة ٧٧٦ هـ وهكذا انتهت حياة لسان الدين بن الخطيب بعد أن
 ملأ الجو علماً وفضلاً وذاعت شهرته في المشرق والمغرب حتى كان أشبه بالجاحظ
 في تأليفه من حيث اطلاعه الواسع وفضله الجم

الموشحات^(١)

بقى الشعر تابعاً لطريقة العرب في أغراضه وأوزانه ، إلى أن حدث في العقول مадعاها إلى الابتكار في العلوم والفنون . وكان الشعر من أقرب الأشياء إلى الألسنة ، وأكثرها انتشاراً في المجالس ، وأدعى إلى الانتقال من غيره ، لكثرة قائله وسامعيه والمتأثرين به ، واشتاله على كل مرافق الحياة . فتطلعت نفوس الفنين من شعراء وأدباء إلى الانتقال به من صبغته البدوية إلى شكل حضري أشبه بالبدابة في الجمال ، وإن يزوجوا به في مجتمعاتهم حتى يجاروا به القدماء في إلهاماتهم الجميلة وفطرتهم النقية ، وسداجتهم الفنية . فلم يفلحوا كثيراً في الخروج به عن أغراضه التي تكلم فيها القدماء ، مما هو ألصق بالصبغة الوجدانية منه بالصبغة الاجتماعية . ولكنهم زادوا في وجدانياته مما استدعته الحضارة ، من التوسع في الحمريات والعواطف من عشق وغيره ، ووصف المناظر الجميلة والحدائق النضرة ، وكل ما استلزمته حالتهم من آثار المدنية والعمران . ذلك من جهة أغراضه .

١ راجع في الكلام على الموشحات مقدمة ابن خلدون والجزء الرابع من نفع الطيب طبع بولاق ص ٦٠٦ وما بعدها ودار الطراز لابن سناء الملك

Journal Asiatique. 1848. volume 2 page 248-251 et 3e. Serie volume 8 page. 155

والباب الثاني والسبعين من كتاب « المستطرف » تأليف شهاب الدين أحمد الأبهسي . والجزء الأول من « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » تأليف المولى محمد الحمصي من ص ١٠٨ إلى ١١٠ وجاء في كشف الظنون طبع بولاق ج ١ ص ٣٦٧ « الدر المكنون في سبع فنون » لمحمد بن أحمد بن الياس الحنفى . رتب على سبعة أبواب في فن الأشعار البديعة وفن الموشحات والموالي وفن الكاز وفن القوافي وفن الأزجال . والخاتمة فيما قيل في الحلق . أوله الحمد لله البديع فرغ في رجب سنة ٩١٢ ولم نثر على هذا الكتاب

أما من جهة أوزانه وصناعته ، فقد كانت الحال فيه أسهل . فابتكروا من الاوزان في الشعر والصناعة ما لم يبتكروه في المعاني والأغراض . وتوسعوا في ذلك حتى لقد يخيّل الى المطلع على الشعر العربي القديم والحديث أن هذا انقلاب عظيم ، وطور من الأطوار الحديثة التي تخطاها الشعر . ولكن ذلك أظهر ما يكون في الأوزان والقوافي ، والقوانين التي وضعوها في رقة الاسلوب ، وبعض الخيالات التي لم تكن معروفة . حتى أخذ الشعر العربي صبغة حديثة بما أدخل فيه من هذه الأنواع المختلفة الأوزان والتقاطيع ، الجارية على غير ما كان معروفاً فيه ، وخرجوا عن التقييد بنظام القوافي المعروف . قال ابن خلدون في « فصل أشعار العرب وأهل الامصار لهذا العهد » : ولم فن آخر كثير التداول في نظمهم ، يحيثون به معصباً على أربعة أجزاء ، يخالف آخرها الثلاثة في رويه ، ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت الى آخر القصيدة ، تشبيهاً بالمربع والخمس الذي أحدثه المتأخرون من المولدين الخ .

وقسم بعض المتأخرين الأنواع التي حدثت في الشعر ، الى الشعر القريض والموشح والدوبيت والزجل والمواليات والكان وكان والقوما وغيرها وقالوا في ذلك :

« أول من نظم » الموشح « المغاربة ، وهدبه القاضي الاجل هبة الله بن سناء الملك . وتداوله الناس الى الآن . وسى موشحاً لان خرجائه وأغصائه كالوشاح له . وسبب تقدمه على ما بعده لاعرا به كالشعر . لكن يخالفه بكثرة أوزانه ، وثارة يوافق أوزان الشعر وثارة يخالفه . « والدوبيت » أول من اخترعه الفرس ونظموه بلغتهم ومعناه بيتان ، ويقال له الرباعي لأربعة مصاريعه . وقد اشتهر بأعجام داله وهو تصحيف . وهو ثلاثة أقسام يكون بأربع قواف كالموالية ، وأعرج بثلاث قواف ، ومردوفا بأربع أيضاً ، وكله على وزن واحد . وتقدم على ما بعده لاعرا به أيضاً . وأول من اخترع « الزجل » رجل اسمه راشد وقيل

أبو بكر قزمان^١ وهو في اللغة الصوت ، وسمى زجلا لانه يلتذ به ويفهم مقاطع أوزانه ولزوم قوافيه حتى يفتنى به ويصوت . وهو خمسة أقسام ماتضمن الغزل والزهر والخمر وحكاية الحال ، يختص بالزجل ، وما تضمن الهزل والخلاعة ويقال له « بليق » وما تضمن الهجو والنكت ويقال له « حَاق » وما بعض ألفاظه معربة وبعضها ملحونة فاسمه « مزِيلج » وما تضمن الحكم والمواعظ فاسمه « المكفّر » بكسر الفاء المشددة . والأول أصعب هذه الخمسة . وقال مخترعه - قزمان : « لقد جردته من الاعراب كما يجرد السيف من القراب » . وسبب تقدمه على مابعدة كثرة أوزانه وصعوبة نظمه وقربه من الموشح في أغصانه وخرجاته . وأول من اخترع « المواليا » أهل واسط وهو من بحر البسيط، اقتطعوا منه بيتين وقفوا شطر كل بيت بقافية، ونظموا فيه الغزل والمديح وسائر الصنائع على قاعدة القريض . وكان سهل التناول تعلمه عبيدهم والعلمان وصاروا يفتنون به في رؤوس النخل وعمل سقى المياه، ويقولون في آخر كل صوت يامواليا ، إشارة الى ساداتهم ، فسمى بهذا الاسم . ولم يزل على هذا الاسلوب حتى استعمله البغداديون لطفوه حتى عرف بهم دون مخترعه ، ثم شاع . وسبب تقدمه على كل مابعدة لأنه من بحر القريض بحيث ينظم معربا على قاعدته . وأما « الكان وكان » فله نظم واحد وقافية واحدة ، ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الثاني ، ولا تكون قافيته الا مردوفة . وأول من اخترعه البغداديون ، وسبب تسميته بهذا الاسم انهم لم ينظموا فيه سوى الحكايات والخرافات . فكأن قائله يحكي ما كان ، الى أن ظهر لهم مثل الامام ابن الجوزي ، والواعظ شمس الدين الكوفي وغيرهما من فضلاء بغداد فنظموا فيه المواعظ والحكم . وسبب تقدمه على مابعدة لأنه ينظم بعض ألفاظه

١ الصواب انه ابن قزمان وهو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن قزمان تولى سنة ٥٥٥ هـ له ديوان مخطوط في عاصمة روسيا يشتمل على أزجاله منه نسخة فتترافية بدار الكتب المصرية وراجع في الكلام عليه

معربة . وأما « القوما » فله وزن ، الأول مركب من أربعة أفعال ، ثلاثة متوازية في الوزن والقافية ، والرابع أطول منها وزناً ، وهو مهمل بغير قافية ، والثاني من ثلاثة أفعال مختلفة الوزن متفقة القافية ، يكون القفل الأول منها أقصر من الثاني ، والثاني أقصر من الثالث . وأول من اخترعه البغداديون أيضاً في الدولة العباسية برسم السجور في رمضان . وسمى بهذا الاسم من قول المغنيين بعضهم لبعض « قوما لنسحر قوما » فغلب عليه هذا الاسم . ثم شاع ونظموا فيه الزهري والحزبي والعتاب وسائر الأنواع . وأول من اخترعه أبو نقطة للخليفة الناصر ، وكان يعجبه ويطلب له . وجعل لأبي نقطة عليه وظيفة في كل سنة . ولما توفي أبو نقطة كان له ولد صغير ماهر في نظم القوما ، فأراد أن يعرف الخليفة بموت والده ليحججه على مفروضه ، فتعذر عليه ذلك إلى رمضان . ثم جمع أتباع والده ووقف أول ليلة منه تحت الطيارة وغنى التوما بصوت رقيق ، فأصغى الخليفة وطرب له . فلما أراد أن ينصرف قال له :

ياسيد السادات لك بالكرم عادات
أنا ابن أبي نقطة تعيش أبي قد مات

فأعجب الخليفة من هذا الاختصار ، فأحضره وخلع عليه وجعل له ضعف ما كان لأبيه والقوما والسكان وكان لا يعرفها سوى أهل العراق وربما تكلف غيرهم نظمها . وكل بيت من القوما قائم بنفسه وأما تأخيرها فلمدم أعرابه^١ .
واشتهر من هذه الأنواع في الأندلس ما هو معروف « بالموشحات »^٢ وأصل

١ راجع خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر ج ١ ص ١٠٨

٢ قالوا في مخترع هذه الموشحات انه مقدم بن ماضي الفريري ؟ من شعراء الأمير عبد الله ابن محمد المرواني وأخذ عنه عبد الله احمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد . هكذا في مقدمة ابن خلدون . وجاء في الذخيرة في الكلام على الأديب أبي بكر عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢٢ هـ ... سلك إلى الشعر مسلماً سهلاً . فقالت له غرابته مرحباً وأهلاً ، وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقها ، ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البرود ، ولا منظومة المقود ، فأقام عبادة هذا منادها . وقوم ميلها وسنادها ، فكأنها لم تسبح بالأندلس إلا منه ، ولا

الكلمة من الوشاح، وهو عقد من لؤلؤ وجوهر منظومين مخالف بينهما مطوف أحدهما على الآخر، تتوشح المرأة به، والشبه بين الموشحات والوشاح ظاهر في اختلاف الوزن والقافية في الأبيات وجمعها في كلام واحد كما سنرى .

وقد دعاهم الى ذلك حب الابتكار والميل الى الجمال والرفاهية حتى في أوزان الشعر وطرقه . فمزجوا بين الأوزان المختلفة والقوافي المتعددة في قصيدة واحدة . وربما ألفوا بين وزن مخترع ووزن معروف . وربما اخترعوا أوزانا مختلفة ونظموا عليها قصيدة واحدة . وقد يلحنون كلامهم هذا ويفنون به ، لما فيه من خفة الوزن وروعة اللفظ . وقد ذكر ذلك ابن خلدون في مقدمته فقال :^١

«وأما أهل الاندلس فلما كثرت الشعر في قطرهم، وتهذبت مناحيه وفنونه، وبلغ التشبيق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح، ينظمونه أسماطاً أسماطاً، وأغصاناً أغصاناً . يكثر منها ومن أعاريضها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً، ويلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد الى آخر القطعة . وأكثر ما ينتهي عندهم الى سبعة أبيات . ويشتمل كل بيت على أغصان، عددها بحسب الأغراض والمذاهب . وينسبون فيها ويمدجون كما يفعل في القصائد . ويتجاوزون في ذلك الى الغاية، واستظرفه الناس وجملة الخاصة

أخذت الاغصان وأول من صنع أوزان هذه الموشحات باقتناها بلقي محمد بن حمود العمري الضريرو وكان يضعها على أشطار الأشعار، غير أن أكثرها على الأعاريض المهمة غير المستمثلة يأخذ اللفظ العامي والمعجمي فيسيه المركز . ويضع عليها الموشحة دون تغيير فيها ولا أغصان وقيل ان ابن عبد ربه صاحب العقد أول من سبق الى هذا النوع من الموشحات

ثم نشأ يوسف بن هرون الرمادي فكان أول من أكثر فيها من التضمين في المراكز يضمن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة ، فاستمر على ذلك شعراء عصره كسكرم ابن سعيد وابن أبي الحسن . ثم نشأ عبادة فأحدث التصغير وذلك انه اعتمد على مواضع الوقف في الاغصان فيضمها كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في المركز

١ اخترنا نقل عبارة ابن خلدون في الموشحات لانها من أجمع ما قيل فيها وقد أخذنا هذا عن نفع الطبيب عند كلامه على الموشحات

والكافة لسهولة تناوله ، وقرب طريقه . وكان المخترع لها بجيزة الأندلس مقدم
ابن معافر الفريرى القبرى 'من شعراء الأ مير عبد الله بن محمد المروانى ، وأخذ عنه ذلك
ابن عبد ربه صاحب العقد ، ولم يذكر لها مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما
فكان أول من برع فى هذا الشأن بعدما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صاهد
صاحب المرية . وقد ذكر الأ علم البطليوسى أنه سمع أبا بكر بن زهر يقول كل
الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله :

بدرتم شمس ضحى عُصن نقا مسك شم
ما أنم ما أوضحا ما أورقا ما أنم
لا جرم من لحا قد عشقا قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا فى زمان ملوك
الطوائف . وجاء مصليا خلفه منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون
صاحب طليطلة . قالوا وقد أحسن فى ابتدائه فى الموشحة التى طارت له حيث يقول
العود قد ترنم بأبدع تلحين وشقت المذائب رياض البساتين
وفى انتهائه حيث يقول :

تخطر ولا تسلم عساك المامون مروع الكتائب يحيى بن ذى النون
ثم جاءت الحلبة التى كانت فى مدة الملمشين فظهرت لهم البدائع ، وفرسان
حلبتهم الاعمى التطيلي ثم يحيى بن بقرى وللتطيلي من الموشحات المذهبة قوله
كيف السبيل الى صبرى وفى المعالم أشجان
والركب وسط الفلا بالخرّد النواعم قد بانوا

١ قد اختلفوا الى هذا الاسم فى مقدمة ابن خلدون الفريرى وفى الذخيرة محمد بن محمود أو محمود الممرى
وفى فوات الوفيات ترجمة عبادة ابن ماء السماء (ج ١ ص ٢٥٤) محمد بن محمود أو ابن جود المقبرى الضرير
وهو ناقل عن الذخيرة وفى تفج الطيب فى الكلام على الموشحات نقلا عن ابن خلدون مقدم
ابن معافر القبرى وفى مقدمة ابن خلدون طبع باريس صفحة ٣٩٠ جزء ثالث مقدم بن
معافرا ومعافى والتبيري بدل الفريرى أو التبيري وهو خلط بدل على تحريف هذا الاسم

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن
جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس باشبيلية ، وكان كل واحد منهم قد صنع
موشحة وتأنق فيها، فتقدم الأعمى التطيلي للانشاد، فلما افتتح موشحته المشهورة
بقوله :

صاحك عن جمان سافر عن بدر
صاق عنه الزمان وحواه صدرى

خرق ابن بقی موشحته وتبعه الباقون . وذكر الأعلام البطليوسى أنه سمع
ابن زهر يقول ما حسدت قط وشاحا على قول الا ابن بقی حين وقع له
أما ترى أحمـد في مجده العالى لا يلحق
أطلعـه المغرب فارنا مثله يامشرق

وكان في عصرهما من الوشاحين المطبوعين أبو بكر الأبيض ، وكان في
عصرهما أيضا الحكيم أبو بكر بن باجه صاحب السلاحين المعروفة . ومن الحكايات
المشهورة أنه حضر مجلس مخدمه ابن تيفلويت صاحب سرقسطة فألقى عليه
بعض موشحته : جرر الذيل أيما جر . فطرب الممدوح لذلك وختما بقوله

عقد الله راية النصر لأمير العلا أبي بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح واطرباه ، وشق ثيابه ، وقال
ما أحسن ما بدأت وما ختمت . وحلف الأيمان المغلظة أن لا يمشی ابن باجة
لداره الأعلى الذهب . تخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بان جعل ذهباً في نعله
ومشی عليه . ثم قال ابن خلدون بعد كلام . واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة
الموحدين محمد بن أبي الفضل بن شرف . الى أن قال وابن هردوس الذى له :

يأليـلة الوصل والسعود بالله عودى

وان مؤهل الذى له

ما العيد في حلة وطاق وشم طيب وأما العيد في التلاق مع الحبيب
وأبو اسحق الدويني . قال ابن سعيد سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول
انه دخل على ابن زهر وقد أسن وعليه زى البادية ، اذ كان يسكن بمحصن سبته فلم
يمرفه ، فجلس حيث انتهى به المجلس ، وجرت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة
وقع فيها .

كحل الدجى يجرى من مقلة الفجر على الصباح
ومعصم النهر في حلل خضر من البطاح

فتحرك ابن زهر وقال أنت تقول هذا ؟ قال اختر . قال ومن تكون ؟ فأخبره .
فقال ارتفع فوالله ما عرفتك . قال ابن سعيد وسابق الحلبة التي أدركت هو أبو بكر
ابن زهر ، وقد شرقت موشحاته وغربت . قال وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك
يقول لابن زهر لو قيل لك ما أبدع ما وقع لك في التوشيح ؟ فقال كنت أقول :

ماللمو له من سكره لا يفيق ياله سكران
هل تستماد أيا منا بالخليج وليالينا
اذ يستفاد من النسيم الاريح مسك دارينا
واذ يسكاد حسن المكان الهيج أن يميننا
نهر أظله دوح عليه أنيق مؤثق فينان
والماء يجرى وعائم وغريق من جنى الريحان

واشتهر بعده ابن حيون . الى أن قال : وبعد هؤلاء ابن حزمون بمرسيه . ذكر
ابن الرامس أن يحيى الخزرجي دخل عليه في مجلسه فأأنشده موشحة لنفسه ، فقال
له ابن حزمون ما الموشح بموشح حتى يكون عاريا من التكلف . فقال علي مثل
ماذا ؟ فقال علي مثل قولي :

ياها جرى هل الى الوصال منك سبيل

أو هل يرى عن هواك سال قلب العليل

وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطه، قال ابن سميذ كان والدى يمجيب بقوله

ان سيل الصباح فى الشرق عاد بجرأ فى أجمع الافق

فتداعت نواذب الورق أنراها خافت من الفرق

فبكت سحره على الورق

واشتهر بأشبهلية لذلك العهد أبو الحسن بن الفضل. قال ابن سميذ عن والده

سمعت سهل بن مالك يقول له يا ابن الفضل لك على الوشاحين الفضل بقولك

أوا حسرتى لزمان مضى عشية بان الهوى وانقضى

وأفردت بالرغم لا بالرضا وبت على جمرات الغضى

أعاقق بالفكر تلك الطلول وأثم بالوهم تلك الرسوم

قال وسمعت أبا بكر بن الصابونى ينشد الاستاذ أبا الحسن الدباج موشحاته

غير مامرة ، فما سمعته يقول لله درك الافر فى قوله .

قسما بالهوى لذى حجر ما لليل المشوق من فجر

خذ الصبح ليس يطرد ما لليلى فيما أظن غد

صح يا ليل انك الابد

أو نقصت قوادم النسر فنجوم السماء لا تسرى

ومن موشحات ابن الصابونى قوله

ما حال صب ذى ضنى واكتتاب أرضه يا وليلتاه الطيب

عامله محبوبه باجتساب ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب

جنى جفوني النوم لكننى لم أبكه الا لفقد الخيال
وذو الوصال اليوم قد غرنى منه كما شاء وشاء الوصال
فلست باللائم من صدنى بصورة الحق ولا بالمحال
واشتهر ببر العدو ابن خلف الجزأرى صاحب الموشحة المشهورة
يد الاصباح قدحت زناد الأنوار من مجامر الزهر
وابن خزر البجائى وله من موشحه

نفر الزمان موافق حباك منه باتسام
ومن محاسن الموشحات موشحة ابن سهل شاعر اشبيلية وسبته من بعدها قوله :
هل درى ظبي الحمى أن قد حى قلب صب حله عن مكنس
فهو فى حر وخفق مثل ما لعبت ربح الصبا بالقبس»
هذه نماذج الموشحات مما ذكره ابن خلدون . ونعود فنقول : ان سبب
اختراع الموشحات فى الأندلس ما تولد فى النفوس من رقة وميل الى الخلاعة
والدعابة فى الكلام ، وفى نوع التعابير وشعور الناس من أدباء وشعراء بضرورة
الخروج من الاوزان القديمة المعروفة ، لضيق تلك الأوزان عن احتمال عبث
الشعراء بالشعر على حسب أهوائهم

والعقول اذا مالت الى التغيير مالت الى الابتكار وحب الجديد . لذلك سئم
الناس طريقة الشعر القديمة المعروفة ، وحاولوا ابتكار شئ جديد ، فاخترعوا تلك
الاوزان لتساعدهم على ما يريدون من الكلام فى بحوثة اللهو والطرب والرقص
وانشاد الشعر بطريقة خفيفة على النفس . فوجدوا ذلك أدعى الى تحريك النفوس
فابتدؤا أولا بالاوزان العربية الخفيفة المعروفة ، كالرمل والهرج والمقطوعات وغير
ذلك ، وغيروا فيها القافية . وولدوا من ذلك الموشحات وأباحوا لأنفسهم التغيير
فى الوزن والقافية . فاخترعوا من الأوزان مالا قاعدة له . ثم توسعوا فى هذه الاوزان

وتفننوا فيها ، وأودعوا هذا النوع الجديد من الشعر ميوهم وأهواءهم . واشتغل بذلك الظرفاء والادباء فشمل هذا الشعر كل أنواع اللهو والتسلى . ثم عشى في نفوس جميع الناس حتى أصبح نوعاً من أنواع الشعر العام . فنظم على أسلوبه الحكماء والفقهاء عبارات الوعظ والحكم ، ومنهم التقى المشهور والصوفى المعروف محيي الدين بن العربي

ثم نخطى هذا النوع من بلاد الأندلس الى بلاد البربر وغيرها من بلاد المشرق وكثير من البلاد الاسلامية ، فنبت شعراء كثيرون في هذا النوع . وانبعث هذا الكلام من نفوس العامة ، وأمن الآراء والافكار التي كانت تدور في رؤوس كثير من الناس ، فنظمتها كبار الشعراء . وما زالت العامة تجذب الخاصة اليها ، وتدفعها الى التعبير عن أفكارها المنتشرة الدائرة في نفوسها وعلى ألسنتها ، سواء أكانت من طريق الكلام أم من طريق الأغاني ، حتى قربت الموشحات من لغة العامة وصارت من كلامهم وأنشيدهم . وكلما قربت من العامة بعدت عن اللغة العربية الفصحى وعن الشعر العربي . لذلك كان ظهور نفوس العامة وحالتهم العقلية في الموشحات أكثر وضوحاً منه في الشعر العربي الفصيح

فلا غرو أن نجد في الموشحات خلطاً بين الشعر العربي الصحيح والكلام العامي الملحون ، لأن أصلها مأخوذ من الشعر العربي ، لذلك لا تخلو من أثره في الصناعة والأخيلة والأسلوب وقواعد العروض . كما تتخلل ذلك عبارات عامية ، وأحياناً يتمشى الشاعر على غير قواعد اللغة . فنجد أبياتاً غير عربية وعبارات غير معربة . فليست الموشحات عربية صرفة ولا عامية بحتة ، بل يمكن أن يقال إنها شعر عربي ، ولكن في غير الأسلوب الشعري العربي الصميم وصناعته المعروفة .

وقد كان للموشحات أن تحدث في الشعر نوعاً جديداً لو لم يقصر الشعراء

ابتكاراتهم على الديباجة والوزن والقافية . ولكنهم لم يخرجوا عن الموضوعات والمعاني المعروفة قبلهم عند شعراء العرب . فلم يتكلموا في الموضوعات العامة الاجتماعية ولم يخرجوا فيها عن التعبير عما يجول بالنفوس من مسائل العشق والغرام وما يشبهها كما قلنا . لأنهم أرادوا أن يتغنوا بذلك . ثم أوغلوا في التعبيرات الشخصية وبعض هذه التعبيرات لا يمكن أن تؤدي المعنى المقصود إلا بلهجة خاصة ، فاضطروا الى استعمال بعض العبارات العامة . ثم توسعوا في ذلك حتى تعددت هذه اللهجات وكثير منها لهجات عامية لا يتذوقها كل من يعرف العربية الفصحى . ومن هذا تطرقوا الى الزجل ذلك الشعر العامي المعروف .

فالوشحات علامة من علامات الانتقال في الشعر العربي، لأنها حادث جديد في الأدب ، ولكنها علامة من علامات انحلال وحدة اللغة العربية وضياها أيضاً ، اذ لو كان لها أن تنتشر انتشاراً عاماً في جميع البلدان لادت الى انتشار اللغة العامية في كل قطر ، فتصبح كل أمة ذات شعر خاص ولهجة خاصة ، يصعب فهمها على غيرها من الأمم . الأخرى . على أن لذلك ميزة وهي أن العامة تفهم من لغتها الخاصة أكثر مما تفهم من اللغة الفصحى . ولكن هذا يدعو كما قلنا الى انحلال الوحدة اللغوية

وقد ذكر ابن سناء الملك في كتاب له سماه « دار الطراز في صناعة الموشحات وأنواعها » . كلاماً عن الموشحات وأنواعها وهو أجمع كتاب في ذلك فرأينا أن ننقل منه جزءاً عظيماً قال .

١ وجاء في كشف الظنون . در الطراز « لا دار الطراز » لابن القاسم هبة الله بن حمفر المصري المتوفى سنة ٦٨٠ (راجع كشف الظنون ج ١ ص ٣٦٠ طبع بولاق)

« ... الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص . وهو يألف في الأكثر من ستة أفعال وخمسة أبيات، ويقال له التام. وفي الأقل من خمسة أفعال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع . فالتام ما ابتدئ فيه بالأفعال ، والأقرع ما ابتدئ فيه بالأبيات. فنال التام موشح الأعمى وهو

ضاحك عن جمان سافر عن بدر ضاق عنه الزمان وحواء صدرى

فهذا الموشح ابتدئ ببغلة. ومثال الأقرع

سطة الحبيب أحلى من جنا النحل

وعلى الكئيب أن يخضع للذل

أنا في حروب مع الحدق النجل

ليس لى يدان يا حور فتان من رأى جفونه فقد أفسدت دينه

فهذا الموشح ابتدئ ببيت . والأفعال هي أجزاء مؤلفة ، يلزم أن يكون كل قفل منها متفقاً مع بقيتها في وزنها وقوافيها وعدد أجزاءها . والأبيات هي أجزاء مؤلفة مفردة أو مركبة، يلزم في كل بيت منها أن يكون متفقاً مع بقية أبيات الموشح في أوزانها وعدد أجزاءها ، لا في قوافيها . بل يحسن أن تكون قوافي كل بيت منها مخالفة لقوافي البيت الآخر . والقفل كما تقدم يتردد في الموشح ست مرات في التام وخمس مرات في الأقرع . وأقل ما يتركب القفل من جزئين فصاعداً إلى ثمانية أجزاء وعشرة أجزاء . ولم أجد للمغاربة منه ما أنق بنسبه، فلماذا لم أذكر مثلاً منه. والبيت لا بد أن يتردد في التام وفي الأقرع خمس مرات . وأقل ما يكون البيت ثلاثة أجزاء . وقد يكون في النادر من جزئين . وقد يكون من ثلاثة أجزاء ونصف . وهذا لا يكون إلا فيما أجزاءه مركبة . وأكثر ما يكون خمسة أجزاء . والجزء من القفل لا يكون إلا مفرداً ، والجزء من البيت قد يكون مفرداً وقد يكون مركباً

والمركب لا يتركب الا من فقرتين أو ثلاث فقر، وقد يتركب في الأقل من أربع فقر. وسنكتب هاهنا مثالا لكل مذكرونا ليتلخص ويتشخص وينتقل ماتدركه بالقول سماعاً الى أن تراه بالخط عياناً. فأمثلة الاقوال:

القفل المركب من جزئين

شمس قارنت بدرا راح وسديم

المركب من ثلاثة اجزاء

حلت يد الأمطار أزرة النوار فيأخذاني

المركب من أربعة اجزاء

أدر لنا أكواب ينسى بها الوجد واستحضر الجلاس كما اقتضى الود

المركب من خمسة أجزاء

يامن أجود ويبخل على شعى وافتقارى أهواك وعندى زيادة منها شاره

المركب من ستة أجزاء

ميتات الدمن أحيين كربي وهل يتمكن عزالقلي مت ياعزاه شاه

المركب من سبعة أجزاء

الموشح المعروف بالعروس، وهو ملحون، واللحن لا يجوز استعماله في شيء من

ألفاظ الموشح الا في الخرجة خاصة. ولهذا لم نورد مثالا

المركب من ثمانية أجزاء

على عيون العين نعى الدرارى من شغف بالحب
واستعذب العذاب والتذ حاليه من أسف وكرب

وقد ينسدر في بعض الموشحات الشاذة التي لا يعول عليها أن تكون أقفالها
مختلفة أعداد الاجزاء كالموشح الذي أوله : بابي علق بالنفس عليق
وهذا الموشح لعبادة ، فان قفله الأول جزءان ، وبقية أقفاله ثلاثة. وسبأني في
هذا الموشح منسوقا في جملة ما نذكر من الموشحات التي ذكرت الأمثلة منها.
فأني أذكر في آخر هذه الاوراق كل موشح ذكرت المثال منه ، ليكون أنس
المتعلم بها أكثر ، وعلمه بها في نفسه أرسخ .

أمثلة الأبيات

أمثلة ما أجزأوه مفردة : ماهو منها على ثلاثة أجزاء
أرى لك مهند أحاط به الأئمة فجرد ماجرد
فيا ساحر الجفن حسامك قطاع
ماهو منها على أربعة أجزاء

قد باح دمي بما أكتنه وحن قلبي لمن يظلمه
رشا تمرن في لافه كم بالمني أبدا أئنه
يفتر عن لؤلؤ متسق من للأقح بنسيمه العبق
أمثلة الأبيات التي اجزأوها مركبة
ماتركب من فقرتين وثلاثة أجزاء.

أقم عذرى فقد آن أن أعكف
على خمر يطوف بها أوطف
كما تدرى هضم الحشى مخطف
أذا ماماد في مخضرة الأبراد رأيت الآس بأوراقه قد ماس

ماتركب من فقرتين وثلاثة أجزاء ونصف
 من أودع الاجفان صوارم الهند
 وأثبت الريحان في صفحة الخد
 قضى على الهيمان بالدمع والسهد
 أنى وللكمان للهايم المغرم بدمع نم اذ يسجم بما يكتم
 من السر في عاطل جال عزيز ساط على بالدعج
 ماتركب من فقرتين وأربعة أجزاء

ماحوى محاسن الدهر الاغزال
 معروف الجدين من فهر عم وخال
 نسبته للنابل الغمر وللنزال
 فأنا أهواه للفخر وللجمال
 وجهه وجه طليق للضيوف مشرق ويد تسطو على الاسد فتفقد
 ماتركب من فقرتين وخمسة أجزاء

هن الظباء الشمس قنيصهن الضيفم
 ما ان لها من كنس الا القلوب الهيم
 القرب منها عرس والبعد عنها مآثم
 تلك الشفاة اللعس يحيا بهن المغرم
 لها لحاظ نعس ترنوا الى من تسقم
 بأعين الغزلان وتبتسم عن جوهر الاسماط
 قضى لها الغيران ان تكتم في مضمر الانبساط

وقد يندر في بعض الموشحات ما يكون بيته جزأين مركبين من فقرتين وهو
 شاذ جداً وهو

باكر الى الخمر واستنشق الزهرا
 فالعمر في خسر مالم يكن سكرا
 فقلما أسلو عن مرشف الاكواس
 وساحر الطرف مساعد الجلاس
 فسقي.....ني بنت الرياحين

ماتركب من ثلاث فقر وثلاثة أجزاء

من به الى يرنو بمقلتي ساحر الى العباد
 ينأى به الحسن فينثني نافر صعب القياد
 وتارة يدنو كما أحسنى الطائر ماء النباد
 فجيده أغيد والحد بالخال منق تكتمه الحجب فلي الى الكلة تشوق
 ماتركب من أربع فقر وثلاث أجزاء

بأبي ظبي حمى تكفه أسد أغيل
 مذهبي رشف لى قرقه سلسيل
 يسبى قلبي بما يعطفه اذ يميل
 ذو اعتدال يعزى الى ذى نعمة ثابت
 فى ظلال تحت حلى قطر الندى بات

والخرجة عبارة عن القفل الأخير من الموشح. والشرط فيها أن تكون
 حجاجية من قبل السخف ، فزمانية من قبل اللحن ، حارة محرقة حادة منضجة ،
 من ألفاظ العامة ولغات الخاصة ، فان كانت معربة الألفاظ منسوجة على منوال
 ما تقدم من الأبيات والأقوال ، خرج الموشح من أن يكون موشحاً ، اللهم إلا أن
 كان موشح مدح وذكر المدح في الخرجة فانه يحسن أن تكون الخرجة معربة
 كقول ابن بتي

أنا يحيى سليل الكرام واحد الدنيا ومعنى الانام
 وقد تكون الخرجة معربة وان لم يكن فيها اسم المدوح، ولكن بشرط أن
 تكون الفاظها غزلة جداً، هزازة سحابة خلافة بينها وبين الصباية قرابة. وهذا
 معجز معوز، وما يوجد منه في الموشحات سوى موشحين أو ثلاثة، كقول ابن بقي:
 ليل طويل ولا ممين يا قلب بعض الناس أما تلين
 فمن قدر أن يقول هكذا فليعرب والا فليغرب. والمشروع بل المفروض في
 الخرجة أن يجعل الخروج إليها وثبا واستطراداً، وقولاً مستعاراً على بعض السنة
 الناطق والصامت، أو على الأغراض المختلفة. وأكثر ما يجعل على أسنة الصبيان
 والنسوان والسكري والسكران. ولا بد في البيت الذي قبل الخرجة من قال أو
 قلت أو قالت أو غنى أو غنيت أو غنت فما جعل على لسان الحمام قول عبادة
 ان الحمام في أيكما تشدو

قل هل عليم أو هل عهد أو كان كالمعتصم والمعتضد ملكان
 ومما جعل على لسان الغرام قول ابن بقي
 أنا وأنتا أسوة هذا الهجر
 بالصبر بتنا عند انصداع الفجر
 ومنذ رحلتنا غنى الجوى في صدرى
 سافر حبيبي سحر وماودعتوا يا وحش قلبي في الليل إذا افكرتوا
 ومما استعير على لسان الهيجاء قول عبادة

فالهيجا تغنى والسيف قد طرب
 ما أملح العساكر وترتيب الصفوف والابطال تصيح الواثق يا جدد

والموشحات تنقسم قسمين: الاول ما جاء على أوزان أشعار العرب والثاني

ملا وزن له فيها ولا الماس . له بها والذي على أوزان الاشعار ينقسم قسمين
أحدهما مالا تتخلل أفعاله وأبياته كلمة تخرج تلك الفقرة التي جاءت فيها تلك
الكلمة عن الوزن الشعري . وما كان من الموشحات على هذا النسخ فهو
المرذول المخدول، وهو بالخمسات أشبه منه بالموشحات، ولا يفعله الا الضعفاء من
الشعراء . ومن أراد أن يتشبه بما لا يعرف، ويتشبع بما لا يملك، اللهم الا ان
كانت قوافي قفله مختلفة فانه يخرج باختلاف القوافي الاقوال، فيقال من الخمسات
كقول بعضهم

ياشقيق الروح من جسدي أهوى بي منك أم لم
فهذا من المديد وكقول الآخر

أيها الساقى اليك المشتكى قد دعوتك وان لم تسمع
فهذا من الرمل وفي شجيان الوشاحين والطعابين في صدور الاوزان من
يأخذ بيت شعر مشهوراً ويجعله خرقة، ويبنى موشحه عليه، كما فعل ابن بقي في
بيت ابن المعتز وهو

علموني كيف أسلو والا فاحجبوا عن مقلتي الملاحا
فان ابن بقي جعله خرقة لموشحه ، وسيأتي ذكره . وفي الوشاحين من أهل
السطارة والدعارة من يأخذ بيتاً من أبيات المحدثين ويجعله بألفاظه في بيت من
أبيات موشحه، كما فعل ابن بقي في بيت كشاجم قال:

يقولون تب والكأس في كف أغيد وصوت المثاني والمثالث على
فقلت لهم ان كنت أضمرت توبة وأبصرت هذا كله لبدالى
فقال ابن بقي

قالوا ولم يقولوا صوابا
أفريت في المجون الشبابا
فقلت لو نويت متابا

والكأس في يمين غزالي والصوت في الثالث عال لبدالى
والقسم الآخر ماتخلت أبياته كلمة أو حركة ملتزمة كسرة كانت أو
ضمة أو فتحة عن أن يكون شعراً صرفاً وقريضاً محضاً، فنال الكلمة قول ابن بريق
صبرت والصبر شيمة العاني ولم أقل للمطيل هجراني معذبى كفاني
فهذا من المنسرح وأخرجه منه «معذبى كفاني» ومثال الحركة هو أن يجعل
على قافية في وزن ويتكلف شاعرها أن يعيد تلك الحركة بعينها وبقافيتها. كقوله
ياوبج صب الى البرق له نظر وفى البكاء مع الورق له وطر
فهذا من البسيط والتزام إعادة القافية في وسط وزن على الحركة المحفوضة
هو الذى أشرنا اليه .

والقسم الثانى من الموشحات هو مالا مدخل لشيء منه فى شيء من أوزان
العرب وهذا القسم منها هو الكثير والجسم الغفير، والقدر الذى لا ينحصر والشارد
الذى لا ينضب

والموشحات تنقسم من جهة أخرى الى قسمين قسم أفعاله وزن أبياته حتى
كأن آخر الايات من آخر الأفعال كقول الاعمى

أحلى من الامن يرتاح من قربى ويفرق في وجهه سنة يشجى بها العذول ويشرق
الله ما أقرب على محبه وأبعدا
خلو اللبى أشب آسا الضنا فيه وأسعدا
أحب به أحب ويا تجنيه طال المدا

أما ترى حزنى نارا على قلبى تحرق حسبى بها جنة يامام ياما يا ظل يارونق
وقسم أفعاله مخالفة لأوزان الايات مخالفة تبين لكل سامع ويظهر طمعها
لكل ذائق كقول بعضهم

الحب يجنيك لذة العدل واليوم فيه أحلى من القبل
لكل شيء من الهوى سبب جد الهوى بي وأصله اللعب

وإن لو كان . جد يغنى كان الاحسان من الحسن
والموشحات تنقسم من جهة أخرى الى قسمين : قسم لا يبياته وزن يشركه
السمع ويعرفه النوق ، كما تعرف أوزان الأشعار ولا يحتاج فيها الى وزنها
بميزان العروض وهو أكثرها. وقسم مطرب الوزن مهلهل النسخ مفكك النظم
لا يحس النوق صحته من سقمه ولا دخوله من خروجه كالوشح الذى أوله

أنت اقترأحى لا قرب الله الواحى
من شاء أن يقول فأنى لست أسمع خضعت فى هواك وما كنت لاخضع
حسبى على رضاك شفيع لى مشفع
نشوان صاحى بين ارتياح وارتياح

والموشحات تنقسم من جهة أخرى الى قسمين قسم يستقل التلحين به ولا
يفتقر الى ما يعينه عليه وهو أكثرها، وقسم لا يحتل التلحين ولا يمشى الا بأن
ميتوكاً على لفظة لا معنى لها تكون دعامة للتلحين وعكازاً للمغنى كقول ابن بلى :
من طالب نار قتلى ظبيات الحدوج فتانات الحجيح
فان التلحين لا يستقيم الا بأن يقول لا لا بين الخبرين الجيمين من
هذا القفل

ومما سنه القوم فى أكثر موشحات المدح أن يحتم الموشح بالغزل ويخرج
من المدح اليه ، كما خرج اليه منه ، وهذا هو الأكثر من عملهم والظاهر من
مذهبهم ومنه قول الأعشى

حلوا المجانى ماضره لو أجنانى كما عنانى وجدى به وعثانى
فانه ابتداء بالغزل ثم خرج الى المدح ثم ختم بالغزل ؛ والموشحات يعمل فيها
ما يعمل فى أنواع الشعر من الغزل والمدح والرثاء والهجو والمجون والزهد. وما كان
منها فى الزهد يقال له المكفر والرسم فى المكفر خاصة أن لا يعمل الا على وزن

موشح معروف قوافي أقاله، ويختم بخرجة ذلك الموشح ليدل على أنه مكفر
ومستقبل ربه عن شاعره ومستغفره

الموشح التام^١

الموشحات المغربية على طريق الأمثلة

ضاحك عن جمان	سافر عن بدر	ضاق عنه الزمان	وحواه صدرى
آه مما أجعد	شغنى ما أجعد		
قام بي وقعد	باطش متشد		
كلما قلت قد	قال لي أين قد		
وانثنى خط بان	ذا مهر نضر	عابثية يدان	للصبا والقطر
ليس لي منك بد	خدفؤادى عن يد		
لم تدع لي جلد	غير انى أجهد		
مكرع من شهد	واشتياق يشهد		
ما لبنت الدنان	ولذاك الثغر	أين يحيا الزمان	من يحيا الحر
بي هوى مضمر	ليت جهدى وقفه		
كلما يظهر	ففؤادى افقه		
ذلك المنظر	لا يداوى عشقه		
باني كيف كان	فلكي درى	راق حتى استبان	عذره وعذرى
هل اليك سبيل	أو الى أن أياسا		
ذبت الا قليل	عبرة أو نفسا		
ماعسى أن أقول	ساء ظنى بعسى		

١ هذه الموشحة للاعشى التظليل راجع ص ١٦٨ و ص ٢٢٧

واقضى كل شأن وأنا
خالما من عنان جزعى وصبرى
ما على من يلوم
لو تناهى عنى
هل سوى حبريم
دينه التجنى
أنا فيه أهيم
وهو بى يفنى

الموشح الأقرع

سطة الحبيب
أحلى من جنا النحل
وعلى الكئيب
أن يخضع للذل
أنا فى حروب
مع الحدق النجل
يس لى يدان يا حور فتان
من رأى جفونه فقد أفسدت دينه
ينبغى التجنى
لمثلك فى الأنس
لو قبلت منى
تهت على الشمس
غاية التمنى
هلم الى الانس
ألت مهرجاني وخذك بستانى
خطط الوزير
بخطط ايشار
فانتهى السرور
الى غير مقدار
ردت الأمور
الى أسد ضار
ثابت الجنان صفوح عن الجان
قد حى عرينه بالزرق المسنونة
خل كل مئذ
الى الحق منقاداً
من رأى بعين
فى ذا الخلق من سادا
كأبى الحسين
وبنديه من جادا
كل ذى امتنان لا بل كل هتان
رام أن يكونه جوداً فأتى دونه

أظهر المقام في الغربة حرمانا
فأنا ألام اسرار واعلانا
قلت والكلام يصرح أحيانا
فزت بالأمانى ماجاد باحسان صاحب المدينة أعلى الله تمكينه
المركب قفله من جزئين

شمس قارفت بدرأ راح ونديم
أدر كؤوس الخمر عنبرية النثر ان الروض ذو بشر
وقد درّج النهر هبوب النسيم
وسلت على الافق يد الغرب والشرق سيوفا من البرق
وقد أضحك الزهرا بكاء الغيوم
الا أن لى مولى تحكم فاستولى أما انه لولا
دمع يفضح السرا لكنت كتوم
أنى لى كتمان ود معى طوفان شبت فيه نيران
فن أبصرا الجرا فى الح يعوم
اذا لامنى فيه من رأى تبحيه شدوت أغنيه
لعل له عنдра وأنت تلوم

المركب قفله من ثلاثة أجزاء

حلت يد الامطار ازرة النوار فيأخذانى
اشرب طاب الصبوح فى ذا اليوم
فى روضة تفوح لدى الغيم
قد أشرقت تلوح لدى القوم

ووجه ذا النهار مغطا بنجار من الدجن
 هذا الهوى يجور فما صنعى
 قد ضاق يامنصور به ذرعى
 اذ ليس لى نصير سوى دمعى
 فياضف انتصارى اذا دمعى انصارى على حزنى
 ظلمت اذ بعدت عن الصب
 فعد كما قد كنت الى قربى
 غدرت ونفرت فيا حبي
 أفديك من عذار يدين بالنفار ولا يدنى
 محبوبى هب رضا كا وخذ عمرى
 وعلى لما كا من الثغر
 بما حوت عينا كا من السحر
 برد غليل نارى وشم ظبا الاشفار لا تقتلنى
 لما أطال حزنى ولم برحم
 وزاد فى التجنى وما سلم
 شدوته أغنى غنا مغرم
 حبيبى أنت جارى دارك بجنب دارى وتهجرنى

الموشح المختلف الاقفال

بأبى علق بالنفس عليق
 هويت هلالا فى الحسن فريدا أعار الغزالا الحاظا وجيدا
 وتاه جمالا لم يسغ مزيدا بدر يتلالا فى حسن اعتدال

زانه رشق والقدر شيق
 بدر يتغلب بالسحر المبين عذار معقرب على ياسمين
 سوسان مكتب بورد مصون لالاح يسحب ذيول الجمال
 عنلى خلق بالعشق خليق
 جفاني يعيش لوقي عليه لو بالنفس ريش لطرت اليه
 للحسن جيوش على مقلتيه والالحظ المريش بالسحر الحلال
 فله مشق والقلب مشوق
 تعدم هجرى مذ دنت بوده وبددت صبرى على طول صده
 ما الحسن يجرى بصفحة خده ثنايه تزي بنظم اللآلى
 فمه حق باللثم حقيق
 لما أن سريل ثوب الحسن زيا أردت أقبل لماه الشها
 فقال تمثل بالشعر أيا ومال تدل بأجلى مقال
 أنا قول قوقو ليس بالله تدوقو

الموشع الذى بيته ثلاثة أجزاء مفردة

أفردت بالحسن أم خلقت ابداع
 أرى لك مهند أحاط به الأمد فجرد ماجرد
 فياسحر الجفن حسامك قطاع
 ايا فتنة القلب خف الله فى صب قتيل من الحب
 تمنيه بالمزن وبرقك خداع
 ما تركب بيته من فقرتين وثلاثة أجزاء
 كذا يفتاد سنا الكوكب الوقاد الى الجلاس مشمعة الاكواس
 أقم عذرى فقد آن أن أعكف

على خمر يطوف بها أوطف
 كما تدرى هضم الحشا مخطف
 اذا ما ماد في مخضرة الأبراد رأيت الآس بأوارقة قد ماس
 من الأنس وان زاد في النور
 على الشمس وبدر الديجور
 له نفسى وما نفس مهجور
 غزال صاد ضراغة الآساد بلحظ جاس خلال ديار الناس
 جلا الاجلاك بنور الهدى مرآه
 فما الافلاك تدير سوى عليها
 كذا الاملاك عبيد عبيد الله
 فمن أراد قياسك بالاجحاد فجهلا قاس سنا الشمس بالنبراس
 لك الفضل وانك من آله
 رأى الكل بكم نيل ماله
 فما يخلو من ينشد في حاله
 منى عباد بكم نحن في أعياد وفي اعراس لاعدمتم للناس
 ما تركب بينته من ثلاثة أجزاء ونصف
 من أودع الاجفان صوارم الهند
 وابنت الزبحان في صفحة الخلد
 قضى على الهيمان بالدمع والسهد
 أنى وللكتمان للهايم المغرم مدمع نم اذ يسجم بما يكتم
 من السر فى عاطل حال غزير ساط على بالدعج
 يا بأبى أحور كالبدرفى التم

يفتر عين جوهر مستعذب اللم
 وخده الازهر يدمى من الوهم
 فكيف أن أعذر وقد سرى أرقم على عند فلا يلثم وقد حكم
 من السحر لقتل أبطال مع الأبطال جيش من الزنج
 أجز للنور كصاحب الطور
 ككدر ديجور في قد خيزور
 كفصن بلور في دعص كافور
 بنفس مهجور أفدى وان يتم ففى مخم ثنايا فم قد نظم
 من الدر راحى وسلسالى على أسماط عطريه الفلج
 الحسن موقوف عليك يا احمد
 والأمر مصروف اليك يا اغيد
 عبدك مشغوف فيك ومستعبد
 امك تعنيف أو منك أن ترجم وان نحرم ضنا مغرم اذا يسقم
 فوأسرى فى بحر أوجالى بعيد الشاطى أمسك بالموج
 وغاده تبدو كالبدر فى السعد
 أملهما النهى فى غصن رند
 أوراقها البرد أينع بالورد
 باتت وهى تشدوا حبيى أهجم وقم واعزم وقبل فم وجى وانضم
 الى صدرى وقم بخلخالى

الموشح الذى يتركب بيته من جزئين مركبين فى فقرتين

باكرالى الخمر واستنشق الزهرا فالعمر فى خسر مالم يكن سكر
 فقل ما أسلو عن مرشف الاكواس وساحر الطرف مساعد الجلاس

فسقيني بنت الزراجين

فها تها صرفا يا ذا الرشا الاحور
 رشاهو النبيل والعدل بين الناس
 راح حكمت وصفا من خدك الاقر
 والمسك في العرف من نفعه الانفاس
 فداريني
 عن مسك دارين
 كم لامن في نذل من العذل
 وانما العذل فما به من باس
 لما رأى فيه ميلا الى وصلي
 رضا به يشفي ويكثر الايناس
 فهنوني
 لست بمغبون
 للطرف في الفتك اثار معنى
 يهابه الكل خوط القنا المياس
 والمز في الملك عز سليبي
 يثنى على الحقف مثل قضب الآس
 من اللين
 لله ما اهوى
 باحت بها الشكوى
 أنت المنى تحلو
 وادخل معي الفى
 يا كنونى
 كما تسلينى
 المركب قفله من ستة أجزاء

الراح في الزجاجة أعاياها خد النديم
 واستوهبت نسيه فهجنت نشر العبير
 حمة الورد
 مع شذا الند
 ما همت بالحيا
 الا وقد سقتنى
 مليحة الحيا
 مليحة الثنى
 والحسن قد تها
 فيها بلا تان
 أذكى بها سراجها
 رأيت في الليل البهم
 شعلة الزند
 لوأنها عليلة
 تاهت على البدر المنير
 وهو فى السعد

ان التى الام فيها على غرامى
 لقدها قوام كالفصن فى القوام
 لثغرها نظام كالمقد فى النظام
 لريقها بحاجه كالمسك فى طيب الشميم كجنا الشهد
 وعينها السقية وسنانه من الفتور لا من الشهد
 تزيد فى بلائى والنفس تشبهها
 ولا أرى درائى الابريق فيها
 قالت لاصدقائى وقد ضنيت فيها
 احى الهوى مزاجه دعوه من طب الحكيم فالدوا عندي
 محبوبتى حكيمة تطفى برمان الصدور حرقه الوجد
 كم فى الانام مثلى شفاؤها دواها
 وكم تريد قتلى ولم أرد سواها
 وقال لأئم لى لججت فى هواها
 طابت لى اللجاجة وقلت للأشجان دوى ما أنا وحدى
 ذو مهجة مقيمة فى القرب من ظبي غرير وهو فى البعد
 قلبى لها يتوق وقلبها يقول
 هيهات لا طريق هيهات لا وصول
 فقلت والمشوق يقنعه القليل
 « »

(انتهى ما جمعناه من كتاب دار الطراز لابن سناء الملك)

جملة من الموشحات (١)

موشحة لسان الدين بن الخطيب

جارك الغيث اذا الغيث همى يازمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلما في الكرى أو خلسة المختلس
اذ يقود الدهر أشتات المنى ينقل الخطو على ما يرسم
زمرًا بين فرادى وثنا مثل ما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنى فثغور الزهر منه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما كيف يروى مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبا معلما يزدهى منه بأبهى ملبس
في ليال كتمت سر الهوى بالدجى لولا شمس الغور
مال نجم الكاس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
وطر مافيه من عيب سوى أنه مر ككلمح البصر
حين لذ الانس شيئا أو كما هجم الصبح هجوم الحرس
غارت الشهب بنا أو ربما أثرت فينا عيون الترجس
أى شيء لأمري قد خلصا فيكون الروض قد كفن فيه

- (١) راجع طائفة من الموشحات فيها يأتي
فوات الوفيات للصالح الكتبي جزء أول ص ٣٢، ٦٣ — ٦٧، ٩٨، ٢٣٧، ٢٥٥
و جزء ثانى ص ١٣٩، ١٦١، ٢٤٣، ٢٦٧، ٣١١، ٣٢٠، ٣٥٤، ٣٧٨ — ٣٧١
وفى نفح الطيب طبع أوروبا جزء أول ص ٣٠١ و جزء ثانى ص ٣٠٤، ٣٢٤، ٤١٧ +
٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٨٠، والجزء الرابع طبع بولاق في الكلام على الموشحات
والمغازى المائتات في الأجزاء والموشحات طبع بيروت

تنهب الازهار منه الفرصا
 فاذا الماء تناجى والحصا
 تبصر الورد غيورا برما
 وترى الآس ليبياً فها
 يا أهيل الحى من وادى الفضى
 ضاق عن وجدى بكم رحب الفضى
 فأعيدوا عهد أنس قد مضى
 واتقوا الله واحيوا مفرما
 حبس القلب عليكم كرما
 وبقلبي منكم مقترب
 قرأطلع منه المغرب
 قد تساوى محسن أو مذنب
 ساحر المقلة معسول اللى
 سدد السهم وسمى ورمى
 ان يكن جار وخاب الامل
 فهو للنفس حبيب أول
 أمره معتمل ممتثل
 حكم الحظبها فاحتسب
 منصف المظلوم ممن ظلما
 ماقلبي كلما هبت صبا
 كان فى اللوح له مكتبا
 جلب الهم والوصبا
 لاعج فى أضلئ قد أضرم
 لم يدع فى مهجتي الا زما

أمنت من مكروه ما تنقيه
 وخلا كل خليل بأخيه
 يكتسى من غيظه ما يكتسى
 يسرق السمع بأذنى فرس
 وبقلبي سكن أستم به
 لا أبالى شرقه من غربه
 تعتقوا عانيكم من كربه
 يتلاشى نفساً فى نفس
 أقترضون عفاء الحبس
 بأحاديث المنى وهو بعيد
 شقوة المفرى به وهو سعيد
 فى هواه بين وعد ووعد
 جال فى النفس مجال النفس
 ففؤادى نهبة المفترس
 وفؤاد الصب بالشوق يذوب
 ليس فى الحب المحبوب ذنوب
 فى ضلوع قد براها وقلوب
 لم يراقب فى ضعاف النفس
 ومجازى البر منها والمسى
 عاده عيد من الشوق جديد
 قوله ان عذابى لشديد
 فهو للاشجان فى جهد جهيد
 فى نار فى هشيم اليبس
 كبقاء الصبح بعد الغلس

سلمى يانفس في حكم القضا
 دعك من ذكر زمان قد مضى
 واصر في القول الى المولى الرضا
 الكريم المنتهى والمنتى
 ينزل النصر عليه مثل ما
 مصطفى الله سعى المصطفى
 من اذا ما عقد المهد وفا
 من بنى قيس بن سعد وكفى
 حيث بيت النصر محي الحى
 والهوى ظل ظليل خيا
 ها كما ياسبط أنصار العلا
 عادة ألبسها الحسن ملا
 عارضت لفظا ومعنى وحلى
 هل درى ظلى الحى ان قد حى
 فهو فى حر وخفق مثل ما
 واعمرى الوقت برجى ومتاب
 بين عتبى قد تقضت وعتاب
 ملهم التوفيق فى أم الكتاب
 أسد السرج وبدر المجلس
 ينزل الوحي بروح القدس
 الغنى بالله عن كل أحد
 واذا ما قبح الخطب عقد
 حيث بيت النصر مرفوع العبد
 وجنى الفضل زكى المغرس
 والندى هب الى المغترس
 والذى ان عثر الدهر أقال
 تبهر العين جلاء وصقال
 قول من أنطقه الحب قتال
 قلب صب حله عن مكنس
 لعبت ريح الصبا بالقبس

موشحة ابن سهل التي عارضها لسان الدين

هل درى ظلى الحى ان قد نخمى
 فهو فى حر وخفق مثل ما
 يابدورا أطلعت يوم النوى
 ما قلبى فى الهوى ذنب سوى
 أجتنى اللذات مكالوم الجوى
 كلما أشكوه وجدا بسما
 اذ يقيم القطر فيها مأتما
 قلب صب حله عن مكنس
 لعبت ريح الصبا بالقبس
 غررا تسلك فى نهج الغرر
 منكم الحسن ومن عيني النظر
 والتناذى من حبيبي بالفكر
 كالربا بالعارض المنبجس
 وهى من بهجتها فى عرس

غالب لي غالب بالتسؤده
 مارأينا مثل ثغر فضده
 أخذت عيناه منه العريده
 فاحم الجمة معسول اللمي
 وجهه يتلو الضحى مبتسما
 أيها السائل عن ذلي لديه
 أخذت شمس الضحى من وجنتيه
 ذهبت أدمع أجفاني عليه
 يطلع البدر عليه كلما
 ليت شعري أى شيء حرما
 كلما أشكو اليه حرق
 تركت ألحظه من رمق
 وأنا أشكره فيما بقى
 فهو عندي عادل ان ظلما
 ليس لي في الحب حكم بعدما
 منه للنار باحشائي اضطرام
 وهي في خدييه برد وسلام
 أتقى منه على حكم الغرام
 قلت لما ان تبدى معلما
 أيها الآخر قلبى مغنا
 بأبى أفديه من جاف رقيق
 أقحوا أنا عصرت منه رحيق
 وفؤادى سكره ما ان يفريق
 أ كحل اللحظ شهي العس
 وهو من اعراضه في عبس
 لي يجنى الذنب وهو المذنب
 مشرقا للصب فيه مغرب
 وله خد بلحظي مذهب
 لاحظته مقلتي في الخلس
 ذلك الورد على المغترس
 غادرتني مقلتهاه دفعا
 أثر النمل على صم الصفا
 لست ألحاه على ما أتلغا
 وعدولى نطقه كالخرس
 حل من نفسى محل النفس
 يلنظي في كل حين ما يشا
 وهي ضر وحريق في الحشا
 أسد الغاب واهواه رشا
 وهو من ألحظه في حرس
 اجعل الوصل مقام الخمس

وقد عارض هذا الموشح أيضاً بعض متأخري المغاربة فقال :

يا عريب الحى من حى الحى
 لم يحل عنكم ودادى بعد ما
 أنتم عيى وأنتم عرسى
 حلتم لا وحياة الانفس

من عذيري في الذي أحبته
بدرتم أرسلت مقلنته
ان تبدي أو تثني خلته
تطلع الشمس عشاء عند ما
وترى الليل أضأ منهزما
يا حياة النفس صل بعد النوى
قد براه السقم حتى ذا الهوى
آه من ذكر حبيب بالوى
كنت أرجو الطيف يأتي حلما
هل يعود الطيف صبا مغرما
همت في اطلال ليلى وأنا
ما مرادى رامة والمنحنى
انما سؤلى وقصدي والمنى
أحمد المختار طه من سما
خاتم الرسل الكريم المنشى

مالك قلبي شديد البرحا
سهم لحظ لفؤادى جرحا
غصن بان فوقه شمس ضحا
تنجلي منه بأبهى ملبس
وترى الصبح أضأ في الغلس
والهأ مضنى شديد الشف
ككاد أن يفضى به للتلف
وزمان بالمنى لم يسمف
عائدا يأنف من ذافا يأس
سأهرا أجفانه لم تنفس
ليس في الاطلال ليلى من أرب
لا ولا ليلى وسعدى مطلبى
سيد العجم وتاج العرب
الشريف ابن الشريف الكيس
ظاهر الاصل زكي النفس

موشحة لبعض شعراء الأئمة يعرض بها موشحة لسان الدين

جادك الغيث اذا الغيث همى
عطر الارواء لما نسما
وأنت شمس الضحى تنسخ ما
طاف بالكاس من الزهر فتى
فتن الالباب لما التفتا
وأنا ما بين حتى ومتى
وكؤوس الراح بين الندما

يا زمان الوصل بالاندلس
شمال للصبح عند الغلس
يقرأ الليل لنا من عبس
مولع بالصد عنى مذ فتى
واحتسى منه بعض الشفة
صده تيه الهوى عن الفتى
أرجت بالعرف أفق المجلس

خمرة صفراء في البللور ما
 بادر اللذة واجمع شملها
 ذى عيون ناعسات كم لها
 وافر الاردا ف عانى حملها
 كلما أنزع كاسا قال ما
 فابذل الجهد وكن مقتنما
 فرص الايام كن منتهزا
 ورحاب الانس لج منتجزا
 واجن من زهر الهوى محترزا
 لا تخف لوماً ويمم حيثما
 ما مضى انس ووافى مثل ما
 الرياض اذهب ترى بلبلها
 مخاود الورد قد كللها
 وقبود البان قد قام لها
 والربا ما حلت تحاكي خدما
 جيبها زرر بالزهر كما
 وجلال الروض لنا أشجاره
 وترى في جبيدها نواره
 خلع الليل به أطماره
 وبقياد زهت فيه أما
 كمنار في محيا علمها
 حبنا الصبوة أيام الصبا
 فاذا أيقظها دهر صبا
 جرد الشيب لنا بيض الشبا

أشبه الخان بروض النرجس
 بمدام وغسلام مطرب
 من فنون السحر ما يلعب في
 ناحل الخضر وذامن عجب
 أنت بالشارى حياة الانفس
 لنفيس النفس طيب الانفس
 مبهناها قبل حذف الخبر
 قبل أن تمضى كلمح البصر
 من جنائيات هجوم السكر
 لاحت اللذات كالخنافس
 كان ذا الدهر لنا بالحرس
 لاشتياق الورد مثل الشكل
 دمع طل لاشتياق البلبل
 مانع الوصل بحمد الاسل
 وعليين ثياب السندس
 زر بالفضة ثوب الاطلس
 مائسات في قباء أخضر
 يتلالا كمقود الجوهر
 ففدا كالصبح باهى المنظر
 في شفاء الغيد حس اللبس
 فبدأ للغير لا الملتبس
 وعيون الشيب في سهو الوسن
 لصروف حد شفرها وسن
 واقتفى شرخ شباب وفطن

وغدا الانسان شيخاً هرماً
 فأت اذ مات فيقضى ندماً
 لا تدع عمرك يمضى هدراً
 وارق بالجهد من السؤل الذراً
 انما الايام أمثال السرى
 ووحوش الانس تسعى مغنا
 ترك الوهم وخاض الظلماً
 ليس يحظى بالنى الا الذى
 كان للراحة كالمتنبذ
 مثل ما قد بات ذا طرف قذى
 فى طلاب العلم حتى علما
 أحمد الناصب فينا علماً
 حل فى مصر وان كان الملا
 ورياض الفضل لما أن علا
 ازدورت أغصانها حتى خلا
 نفرت اذ حل فيها كالسما
 حوله الطلاب كالشهب سما
 أيها الطالب للعلم ائتد
 ان ترم نيل المرجى فاجتهد
 علم من يعمل اكسيد فزد
 والزم الاعتاب وانزل بالحى
 باعتقاد فاز من قد لسا
 مذ خبرت الناس طرا نظرا
 واعتراه لاعج من وجس
 واغتنام الوقت شغل الكيس
 أنت اذ ذاك جبان غافل
 واجتهد والضرع ضخم حافل
 والجريء الشهم ليث باسل
 باردا للاسد المقترس
 وله العزم أضاً كالقنبرس
 كابد الاهوال حتى ظفرا
 من وراء الظهر أنى ظهرا
 يقطع الليل جميعاً سهرا
 انه يملا بروح القدس
 للتقى فاز به من يأتسى
 قد عفت لما اعتراها فى خلل
 نقع جهل جف منهن البلل
 قاعها من عذب ما يشفى العلل
 وهو بدر بكال مكنى
 قدرها من نوره المقتبس
 ليس الا بابيه ينفعك
 فى اتباع للذى يرفعك
 منه واترك حاسدا يدفعك
 خالع الربة من قول المسى
 نعله والكبر شان الملبس
 لمناط الامر فى هذا الزمان

لم أجد الا مقالا صدرا
غير ما يمليه فانظر لترى
يبدع النطق لما نظما
وأنى يخضع جمع العالما
انما المجد الرفيع المتطى
يدع المرفوع كما لمهبط
ناظراً في أمره بالاحوط
كل من أم حماء قد حمى
فاذا جرد منه انفصا
حبذا المغرب قطراً بالسنا
قطره الشامخ قد اهدى لنا
كل من فاتته أسباب المنى
قل لمن يرجو سوى المذكور ما
لاولا الناس سواء انما
لذ بشهم فازمن أمـله
أثقل السؤدد اذ حمـله
وحماه الامن من أمـله
بحره الوافر العلم طما
نال منعه الناس حتى عمما

عن دعا وأخلفت عند العيان
دور الالفاظ في سبط البيان
بهت المنطق مثل الاخرس
نحو ذا المفرد في الملتبس
أرؤس الآساد قسرا مثل ذا -
ثم للنازل يعلـى منفذا
خافض الطرف على حر القذى
بحسام العزم هش الملمس
جامد الصخر بذاك الميس
فضله يبهر بدر الافق
سيدا قد فاق شمس المشرق
بعـلاه للثريا يرتقى
ينبت الزهر بأرض اليبس
رأى من سواهم فى هوس
بنوال فاق سح الهامل
وقر فضل مستبين شامل
بلغ القصد بفشرى الآمل
كامل الامداد لم يحتبس
مشرقا والغرب للاندلس

موشحة ابن سناء الملك

كللى ياسحب تيجان الربا بالحللى واجعللى سوارك منعطف الجدول

دور

ياسما فيك وفى الارض نجوم وما كلما اغربت نجما اشرفت انجما
وهى ما تهطل الا بالطللى والدمى

قفلة

فاهطللى على قطوف الكرم كي تمتلى وانقللى للذن طعم الشهد والفوفل

دور

تتقد كالكوكب الدررى للمرصد يعتقد بها المجوسى بما يعتقد
فانقد ياساقى الراح بها واعتقد

قفله

وامللى حتى ترانى عنك فى معزل قلل فالراح كالعشق ان يزد يقتل

دور

من ظلم فى دولة الحسن اذا ماحكم فالسلام يجول فى باطنه والندم
والقلم يكتب ماسطر فوق القم

قفله

من ولى فى دولة الحسن ولم يعدل يمزل الالحاظ الرشا الا كحل

دور

الا أريم عن شرب صهباء وعن عشق ريم فالنعيم عيش جديد ومدام قديم
لاأهيم الا بهذين فقم يانديم

قفله

وانهل من اكؤس صورن من صندل أنفل من نكهة العنبر والمندل

دور

هل يعود عيش قطعناه بوادي زرود والجنود في حضرتي تضرب جنكاو عود
والحسود في معزل عنا غدا لا يسود

قفله

عدلى لاتمذلوئي فاهوى لذى مانلخلى في الحب مثل العاشق المبتلى

دور

اسفرت ليتنا بالانس مذ اقرت بشرت بملتقى المحبوب واستبشرت
شمرت فقلت للظماء مذ قصرت

قفله

طولى ياليلة الوصل ولا تنجلي واسبلى سترك فالمحبوب في منزل

دور المديح

يانسيم بلغ سلام المستهام السقيم لكريم طه امام المرسلين العظيم
عن أليم وجدى به حدث وشوقى القديم

موشحة لابن زهرى

في كؤس الثغر من ذاك اللبس	راحة الارواح
وتفشى الروض مسكي النفس	عاطر الارواح
وكسا الادواح وشيا مذهبا	يهر الشمس
عسجد قد حل من فوق الربا	يهيج النفس
فأخذ للهوفيه مركبا	تلحق الانسا
منبر الغصن عليه قد جلس	ساجع الادواح
حل السندس خضرا قد لبس	عطفه المرتاح
قم ترى هذا الاصيل شاجبا	حسنه قد راق
ولا ذيال الغصون ساجبا	في حلى الاوراق
ونديم قال لى مخاطبا	قول ذى اشفاق

عادت الشمس بغرب تختلس
 ان أرانا الجو وجها قد عبس
 ووجوه الشرب تغنى عن شمس
 بلحاظ أسكرتنا عن كؤوس
 مظاهرات من خفايا في النفوس
 مازمان الانس الا مختلس
 وعيون الشهب تدكي عن حرس
 ما ترى تغرر الوميض باسم
 وثناء الروض هب ناسما
 بث من أزهاره دراهمنا
 ركب المولى مع الظهر الفرس
 بجنود الله دأبا يحترس
 وجب الشكر علينا والهنا
 فزمان السعد وضاح السنى
 أثمرت فيه العوالى بالمنى
 يجتنى الاسلام منها ما اغترس
 في ضمير النقع منها قد هجس
 يا اماما بالحسام المنقضى
 ثفرك الوضاح مها أمضا
 وديون السعد منه تقتضى
 لك وجه من صباح مقتبس
 وجيل الصفح منه ملتبس
 هاكها تمزج لطفنا بالنسيم
 قد أمت بالبر والصنع الجسيم

هات شمس الراح
 أوقد المصباح
 كلما تجلى
 خمرها أحلى
 سورا تتلى
 فاغتنم يا صاح
 تخضم النصاح
 يظهر البشرى
 عاطرا نشرا
 قائلا بشرى
 وسقى وارتاح
 ان غدا أوراخ
 بعضنا بعضا
 وجهه الارضى
 نمر اغضبا
 سيفه السفاح
 شهب تلتاح
 نصر الحقنا
 أخجل البرقا
 توسع الحقنا
 بشره وضاح
 منعم صفاح
 كلما هبا
 تشكر الربا

أخجلت من قال في الصبح الوسيم مغرماً صبا
غرد الطير فنبهه من نعس يامسدير الراح
وتعمرى الفجر عن ثوب الغلس وانجلي الاصبح
وله أيضاً

نواسم البستان تنثر سلك الزهر
والطل في الاغصان ينظمه بالجوهر
وراحة الاصبح أضاء منها المشرق تنشرها الارواح
فلا تزال تخفق والزهر زهر فاح لها عيون ترمق
فايقظ الندمان يبصرن مالم يبصر
جواهر الشبان قد عرضت للمشترى
قدحت لى زندا يأبها البارق أذكرتنى عهدا
اذ الشباب رائق فالشوق لا يهدا ولا الفؤاد انخافق
وكيف بالسلوان والقلب رهن الفكر
وسحب الهجران تحجب وجه القمر
لولا شمس الكاس يديرها بين الدور وأعرج اليناس
منا على ربع الصدور لكن لها وسواس يغرى بربات الخدور
كم واله هيمان بصبح وجه مسفر
ضياؤه قدبان من تحت ليل مقمر
يامطلع الانوار كم فيك من رأى جميل ونزهة الابصار
ماضرو لتشفى الغليل باروضة الازهار وعرفها يبرى الغليل
قضيبك الفتان يسقى بدمع همر
فلا عيج الاشجان فيض الدموع يجرى
هل فى الهوى ناصر أو هل يجار الهائم لو كان لى زائر
طيف الخيال الحائم مابتت بالساھر ودمع عيني ساجم

والحب ذو عدوان يجهد في ظلم البرى
 وصارم الاجفان مؤيد بالخور
 رحماك في صب أذكرته عهد الصبا بواعث الحب
 قادت اليه الوصبا لم تهف بالقلب ربح الصبا الا هبا
 بليلة الأردن قد ضمخت بالنبر
 يشير غصن البان منها بفضل المثرر
 طيها حمد نغر الملوك المجتبى من يرجع الطود
 من حله اذا احتبى قد جرد السعد منه حساماً مذهباً
 فالباس والاحسان والفوثن للمستنصر
 تحمله الركبان تحية للنبر
 عصابة الكتاب حق لها الفوز العظيم تختال في اثواب
 حق لها الفخر الجسيم فحسبها الاطناب في الحمد والشكر العميم
 خليفة الرحمن لا زلت سامى المظهر
 يا مورد الظمان ورأس مال المعسر
 خذها على دعوى تزرى على الروص الوسيم جاءت كما تهوى
 أرق من لدن النسيم قد طارحت شكوى من قال في الليل البهيم
 ليل الهوى يقظان والحب ترب السهر
 والصبر لى خوان والنوم من عيني برى

موشحة لآبى حسن المرينى

فى نفمة العود والسلافة والروض والنهر والنديم
 أطال من لآمنى خلافة فظل فى نصحه ملهم

(دور)

دعنى على منهج التصابى ما قام لى العذر بالشباب

ولا تطل في المنى عتابي فلست أصغى الى عتاب
لا ترج ردى الى جواب والكاس تفتقر عن حباب
والغصن يبدى لنا انعطافه اذا هفأ فوقه النسيم
والروض أهدي لنا قطافه واختال في برده الرقيم

(دور)

يا حبذا عهدى القديم ومن به همت مسعدي
ريم عن الوصل لا يريم مولع بالتودد
ما تم الا به النسيم طوعا على رغم حسدي
معتدل القد ذو نجافه استقنى طرفه السقيم
ورام طرفي به انتصافه نغد في خده الكليم

(دور)

غصن الصبا عاطر المقبل أحلى من الامن والامل
ظامى الحشا مفعم المخلخل حلو اللحن سحر المقل
لكل من رامه توصل لم يخش ردا بما فعل
أشكو فيبدي لى اعترافه ان حاد عن نهجه القويم
لأعدم الدهر فيه رافه فحق لى فيه أن أهيم

(دور)

لله عصر لنا تقضى بالسد والمنبر البهيج
أرى اد كارى اليه فرضا وشوقه دائما بهيج
فكم خلطنا عليه غمضا وللصبا مسرح أريج
ورد أطلال المنى ارتشافه حتى انقضى شربه الكريم
لله ما أسرع انحرافه وهكذا الدهر لا يديم

(دور)

يا من يحث المطى غربا عرج على حضرة الملوك

وانثر بها ان سفحت غربا من مد مع عاطل سلوك
واسمع الى من أقام صبا واحك صداه لافض فوك
بلغ سلامي قصر الرصافه وذ كره عهدى القديم
وحى عنى دار الخلافه وقف بها وقفة الغريم

موشحة لابن الوكيل

غدا منادينا	محكما فينا	يقضى علينا الاسى	لولا تنا سينا
	بحر الهوى يفرق	من فيه جهده عام	
	وناره تحرق	من هم او قد هام	
	وربما تعلق	فتى عليه نام	
قد غير الاجسام	وصير الايام	سوداً وكانت بكم	بيضا لينا
	يا صاحب النجوى	قف واستمع منى	
	اياك أن تهوى	ان الهوى يضنى	
	لا تقرب البلى	اسمع وقل عنى	
بحاره مره	خضنا على غره	حينا فقام بها	للنقى نائنا
	من هام بالغيد	لاقى بهم هما	
	بذلت مجهودى	لأحور ألى	
	يهم بالجلود	ورد ما هما	
وعند ما قد جاد	بالوصل أو قد كاد	أضى التناى	بديلا من تدائنا
	بحق ما يدنى	وينكم الا	
	أقرتم عيىنى	فتجمعوا الشلا	
	فالمعين بالين	بقدمكم أبلى	
جدد لنا ما كان	بالاهل والاخوان	وموردا للهوصاف	من تصافينا
	يلجىرة بانث	عن مغرم صب	

لعمده خانت من غير ماذنب
 ما هكذا كانت عوائد العرب
 لا تحسبوا البعدا يغير العهدا اذ طالما غير النأي المحيذ
 يانا زلا بالبان بالشفع والوتر
 والنمل والفرقان والليل اذا يسر
 وسورة الرحمن والنحل والحجر
 هل حل في الاديان أن يقتل الظمان من كان صرف الهوى والوديسا
 يا سائل القطر عرج على الوادى
 من ساكنى بدر وقف بهم نادى
 عسى صبا تسرى لمضرم صادى
 ان شئت تحيينا بلغ تحيينا من لوعلى البعد حيا كان يحينا
 وافت لنا أيام كأنها أعوام
 وكان لى أعوام كأنها أيام
 تمر كالأحلام بالوصل لى لودام
 والكاس مترعه حثت مشعشه فينا الشمول وغنانا مغنينا

موشحة للشيخ محي الدين

سرائر الاعيان لاحت على الاكوان للناظرين
 والعاشق الغيران من ذاك في حران ييدى الانين

دور

يقول والوجد أضناه والبعد قد حسيه
 لما دنا البعد لم أدر من بعد من غسيه
 وهيم البعد والواحد الفرد قد خسيه
 في البوح والكتمان والسر والاعلان في العالمين
 أما هو الديان يا عابد الاوثان أنت الضنين

(دور)

كل الهوى صعب	على الذى يشكو	ذل الحجاب
يا من له قلب	لو أنه يذكو	عند الشباب
قد قرب الرب	لكنه أفك	فانو المتاب
وناد يارحمن	يارب يامنن	انى حزين
أضائى الهجران	ولا حبيب دان	ولا معين

دور

فنسيت بالله	عما تراه العين	من كونه
فى موقف الجاه	وصحت أين الاين	فى بينه
فقال يا ساهى	عاينت قط عين	بعينه
أما ترى عيلان	وقيس أو من كان	فى الغابرين
قالوا بالهوى سلطان	ان حل بالانسان	أفناه دين

دور

كم مرة قللا	أنا الذى أهوى	من هو أنا
فلا أرى حالا	ولا أرى شكوى	الا الفسا
لست كن مالا	عن الذى يهوى	بعد الجنا
ودان بالسوان	هذا هو البهتان	للعارفين
سلوهم ما كان	عن حضرة الرحمن	والآفكين

دور

دخلت فى بستان	الانس والقرب	كمكنسة
فقام لى الريحان	يختال بالمجب	فى سندسه
أنا هو الانسان	مطيب الصب	فى مجلسه
ياجنان ياجنان	اجن من البستان	الياسمين
وحلل الريحان	بحرمة الرحمن	للعاشقين

موشحة لأحد الشعراء

فتق المسك بكافور الصباح ووشت بالروض اعراف الرياح
 فاسقيتها قبل نور الفلق وغناء الورق بين الورق كاحرار الشمس عند الشفق
 نسج المزج عليها حين لاح فلك اللهـــــــــــــو وشمس الاصطباح
 وغزال سامني بالملق وبرأ جسمي واذا كي حرقى اهيف مندسل سيف الخدق
 قصرت عنه أنايب الرماح وثنى الذعر مشاهير الصفاح
 صار بالذل فؤادى كلفا وجفون ساحرات وطفلا كلما قلت جوى الحب انطفأ
 أمراض القلب بأجفان صحاح وسبي العقل ببجد ومزاح
 يوسف الحسن عذب المبتسم قرى الوجه ليلي اللهم عنترى الباس علوى الهمم
 غصنى القمد مهضوم الوشاح مادري الوصل صابى السباح
 قد بالقمد فؤادى هيفا وسبا عقلى لما انعطفا ليته بالوصل أحياء دنفا
 مستطار العقل مقصوص الجناح ما عليه فى هواه من جناح
 ياعلى أنت نور المقل جد بوصل منك لى يأملى كم أغنيك اذا مالحت لى
 طرقت والليل ممدود الجناح مرحباً بالشمس من غير صباح

موشحة لابن التلمساني

قر يجلو دجى الفلس بهر الابصار مذ ظهرا
 آمن من شينة الكلف
 ذبت من حبيه بالكلف
 لم يزل يسعى الى تلقى
 بركاب الدل والصلف
 آه لولا أعين الحرس نلت منه الوصل مقتدرا

يا أميرا جار مندوليا
كيف لا تترى لمن بلياً
فبشفر منك قد جلياً
قد حلا طعماً وقد حلياً
وبما أوتيت من كيس جد فماً أبقيت مصطبراً
بدرتم في الجمال سنى
ولهذا القبهوه سنى
قد سباني لذة الوسن
بمحيا باهر حسن
هو خشني وهو مفترسى فاروعن أعجوبتي خبراً
لك خد يا أبا الفرج
زين بالتوريد والضرع
وحديث عاطر الارج
كم سبي قلباً بلا حرج
لورآك الفصين لم يمس أوراك البدر لاستترا
يامديبا مهجتي كمدا
فقت في الحسن البدر ومدى
يا كحيلاً كحله اعتمدا
عجبا أن تبرى الرمد
وبسقم الناظرين كسى جفئك السحار وانكسرا
موشحة عارض بها أبو حيان موشحة ابن التماساني
عاذلى في الاهيف الآنس لورآه الآن قد عذرا

رشاً قد زانه الحور
 غصن من فوقه قمر
 قمر من سحبه الشعر
 ثغر من فيه أم درر
 جال بين الدر واللعس خرة من ذاقها سكرأ
 رجة بالردف أم كسل
 ريقة بالثغر أم عسل
 وردة بالخد أم خجل
 كحل بالمسين أم كحل
 يالها من أعين نعلس جلبت لناظري سهرأ
 مذ نأى عن مقلتي سنى
 ما أذيقا لذة الوسن
 طال ما ألقاه من شجن
 عجباً ضدان فى بدن
 بفؤادى جذوة القبس وبميينى الماء منفجراً
 قد أتانى الله بالفـرج
 اذ دنا منى أبو الفرج
 فر قد حمل فى المهج
 كيف لا يخشى من الوهج
 غيره لو صابه نفسى ظنه من حره شرأ
 نصب العينين لى شرأ
 فأنثنى والقلب قد ملكا
 قمر أضحى له فلكا
 قال لى يوما وقد ضحكا
 أتجى من أرض أندلس نحو مصر تعشق القمرأ

موشحة لابن اللبابة الأندلسي

في نرجس الأحداق وسوسن الأحياد نبت الهوى مغروس بين القنا المياد
 وفي نقا الكافور والمندل الرطب
 والهودج المرزور بالوشى والعصب
 قضب من البلور حمين بالقضب
 نادى بها المهجور من شدة الحب
 أذابت الاشواق روحى على أجساد أعارها الطاوس من ريشه إبراد
 كواعب أتراب تشابهت قدًا
 عضت على العناب بالبرد الاندا
 أوصت بنى الاوصاب وأغرقت الوجدا
 وأكثر الاحباب أعدى من الاعداء
 تفتر عن أعلاق لآلى أفراد فيه اللي محروس بألسن الانعام
 من جوهر الذكرى عطل نحدور الحور
 وقلد الدرا سلاله المنصور
 جاوز به البحرا واخرق حجاب النور
 وقل له شعرا بفضلك المشهور
 جمعت فى الآفاق مناقب الاضداد فأنت ليث الخيس وأنت بدر الناد
 خرجت محتالا أبغى سنا البرق
 أقطع أميالا غربا الى شرق
 مؤملا حالا يكون من وفق
 فقال من قالا وفاه بالصدق
 دمع قطعك الآفاق يأبها المرتاد واقصد الى باديس خير بنى حماد
 يامن رجال الطلا وأمل التعريس

ان شئت أن تحلى بطائل التأسيس
لا تعتمد الا على علا باديس
من فوقه أعلا قدراً من البرجيس
مواطن الارزاق أولئك الامجاد فاحطط رحال العيس وانفض بقاء الزاد

موشحة لأبي حيان الغرناطي

ان كان ليل داج وخاننا الاصباح
سلافة تبسو فنورها الوهاج يفنى عن المصباح
مزاجها شهد كالشوكب الازهر
ياحبذا الورد وعرفها عنبر
قلبي بها قد هاج منها وان أسكر
فما يراني صاح عن ذلك المنهاج وعن هوى ياصباح
وبي رشا أهيف قد لج في بعدى
بدر فلا يخسف منه سنا الخلد
بلحظه المرفف يسطو على الاسد
كسوة الحجاج في الناس والسفاح
علل بالمسك فما ترى من ناج من لحظه السفاح
نعم المسك قلب رشا أحور
رياه كالمسك ذى مبسم أعطر
غصن على رجراج وريقه سكر
طاعت له الارواح فخبذا الاراج ان هبت الارواح
مهلا أبا القاسم على أبي حيان
ما ان له عاصم من لحظك الفتان
وهجرك الدائم قد طال بالهيمان
فدمعه أمواج ولكنه ماعاج ولا أطاع اللاح
يارب ذى بهتان يمدل في الراح
وفي هوى الغزلان دافعت بالراح

وقلت لاسلوان عن ذاك يالاح
سبع الوجوه والتاج هي منية الافراح فاختر لي يازجاج قعال وزوج أقداح

موشحة صفى الدين الحلبي

شق جيب الليل عن نحر الصباح أيها الساقون
وبدا للطل في جيد الاقاح لؤلؤ مكنون
ودعانا للزيد الاصطبـاح طائل ميمون
فاخضب المبزل من نحر الدنان بدم الزرجون
تلقى دمها حور الجنـسان في صحاف جون
فاسقنيها قهوة تكسو الكؤوس بسنا الانوار
وتميت العقل اذ تجي النفوس راحة الاسرار
بنت كرم عتقت عند المجوس في بيوت النار
غرست كرمها بين القيان يد افلاطون
وبماء الصرح قد كان يطان دنها المخزون
أخبرتنا عن بنى العصر القديم خبرا مأثور
وروت يوم مناجاة الكلم كيف دك الطور
ولماذا اتخذت أهل الرقيم كهفها المذكور
وندا يونس عند الامتحان بالتقام النون
وبنا نوح غداة الطوفان فلكه المشحون
منجلا شمس الضحى بدر التمام في الليالى السود
وغدا يصـبغ أذيال الظلام بدم العنقود
قلت يا بشر اكم هذا غلام وفتاة رود
مزجا الكلس وقاما بستيان في حمى جبيرون
فبذلنا في القناني والقيان ماحوى قارون
نال فعل الخمر من ذات الخمار عند شرب الراح

فغدت تستر من فرط الخمار
 خلقتها اذ لم تدع بالاختمار
 قمرا تم لسبع وثمان
 قد رته الشمس في حال القران
 افعم الزاهر بالنفخ الممدار
 فغدا وهو لاموات الخمار
 أو كما عاش الوري بعد البوار
 ملك هذب أخلاق الزمان
 وأعاد الناس في ظل الامان
 ملك انجد طلاب الندى
 متلف ان جال آجال العدى
 من نبي ارتق اعلام الهدى
 مهد الارضين بالعدل فكان
 ذيبها والشاة ترعى في مكان
 باذل الاموال من قبل السؤال
 مارجاه آمل الا ونال
 فاذا ما أمه راجى النوال
 يهب الولدان والخور الحسان
 وسواه ان دعاه ذو لسان
 يامليكا لبني الدهر ملك
 ملك أنت عظيم أم ملك
 بالذى تختاره دار الفلك
 مذرأى بأسك سلطان الاوان
 حاول النصر كموسى فاستعان
 وجهها الوضاح
 غير صلت لاح
 في الليالى الجون
 فهو كالمرجون
 نابه المحصور
 مثل نفخ الصور
 بندى المنصور
 عدله المسنون
 عضبه المسنون
 غاية الانجساد
 واللهى ان جاد
 سادة انجاد
 أمنها مضمون
 غدره مأمون
 بأكف الجبود
 غاية المقصود
 جاد بالموجود
 بكرها والعون
 يمنع الماعون
 فشرى الاحرار
 ساطع الانوار
 وجري المقدار
 وهو كالحزون
 بك يهارون

وقد شاع فن التوشيح حتى أصبح من بذع الشعر والبلاغة . وانتشر في جميع المجالس على ألسنة الخاصة والعامة ، ثم أمعن الشعراء في هذا النوع حتى تسربت فيه اللغة العامية ، ودبت في جسمه ديباً ، وغلبته على عريته الفصحى وحتى خفيت معالم اللغة أو كادت ، وغلب ذلك على الشعر ، وسموا هذا النوع الجديد «زجلاً». ونسج العامة على منواله واشتهر بقوله كثير من الشعراء . ذكر جملة منهم ابن خلدون في مقدمته .

وقد اكتفينا بالإشارة إلى هذا الشعر العامي وإن كان جديراً بالعناية ، لاحتوائه على صور النفوس العامة وبعض الآراء الاجتماعية . وأرجأنا تفصيل الكلام فيه لفرصة أخرى

المصادر الأدبية والتاريخية للأندلس

- فتح الطيب المقرئ (طبع مصر وليدن)
المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي (طبع ليدن)
البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى (طبع ليدن)
الاحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (طبع مصر)
أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم
(طبع بحريط)
الجزء الثاني والعشرين من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويزي وفيه
أخبار ملوك الأندلس من العلويين والامويين ومن ملك بعد بني أمية الى
حين انقراض الدولة العبادية (طبع غرناطة)
الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون (طبع مصر)
مقدمة ابن خلدون
تاريخ مسلمي اسبانيا لدوزي (طبع باريز .)
Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, Paris.
تاريخ العرب والمغاربة في اسبانيا والبرتغال لكوند (طبع باريز)
J. Cond. Histoire de la domination des Arabes et des Maures
en Espagne et en Portugal.
تاريخ العرب العام نسيديو (طبع باريز)
Seddillot. Histoire générale des Arabes, Paris.
تاريخ العرب لهوار (طبع باريز)
C. Huart. Histoire des Arabes, Paris.
Recherche sur l'histoire et la littérature arabe en Espagne.
2 Volumes Par Dozy.
Histoire des Arabes et des Maures d'Espagne. Par Louis
Viardot. 2 Vols. Paris 1851.
Encyclopédie de l'Islam.
ديوان ابن قزمان (نسخة مأخوذة بالفتوغرافية بدار الكتب المصرية عن
نسخة في مكتبة بطرسبورغ)

بحث في حياة ابن زيدون لاوغست كور (طبع الجزائر)

Auguste Cour. Ibn Zaidoun. Alger.

طبقات الامم لصاعد الاندلسي (طبع بيروت ومصر)

قلائد العقيان للفتح بن خاقان (طبع مصر)

مطمح الانفس للفتح بن خاقان (طبع الاستانة)

الذخيرة في شعراء الجزيرة لابن بسام (مخطوط) منه جزآن في دار الكتب

المصرية والجزء الثالث في مكتبة برلين والرابع مفقود

ديوان ابن حمديس الصقلي (طبع رومة)

الحلة السيرة لابن الابار (طبع ليدن)

المكتبة العربية الاندلسية وهي الصلة لابن بشكوال في جزئين وبغية

الملتبس للضبي والمعجم لابن الابار والتكملة لكتاب الصلة لابن الابار وتكملة

التكملة لابن الابار (طبع بحريط) وتاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي وفهرست

مارواه عن شيوخه من الدواوين في ضروب العلم وانواع المعارف أبو بكر بن خليفة

الاموي الاشبيلي نشرها المستشرقان الاسبانيان كوديرا ورييرا (طبع بحريط)

F. Codera et J. Ribera Bibliotheca Arabico Hispana.

المكتبة العربية الصقلية لميشيل آماري (طبع ليسيك)

M. Amari Bibliotheca Arabo-Sicula (Leipzig).

قصيدة ابن عبدون وشرحها لابن بدرون (طبع ليدن)

ترجمة بن عباد (طبع ليدن)

دار الطراز في الموشحات لابن سناء الملك (من مخطوطات دار السكتب

المصرية)

تاريخ الادب العربي تأليف نيكلسون

A Literary History of the Arabs By Nicholson.

الفهرس

- ٥ تمهيد - فيه الكلام على الأدب وصلته بالاجتماع والكلام على بلاغة العرب في الأندلس والغرض من هذا الكتاب.
- ١١ العرب في الأندلس - دخول العرب بلاد الأندلس واختلاطهم بسكان هذه البلاد - الخلاف بين القبائل العربية هناك - طارق بن زياد وخطبته - الدول الإسلامية وعصورها - عصور الأدب والبلاغة.
- ١٩ الحياة العقلية - تكوين الحياة العقلية والاهتمام بالعلوم - العناية بالكتب وجمعها - العناية بنشر التعليم وإنشاء المدارس - التأليف والمؤلفون - انتشار اللغة العربية واشتغال غير العرب بها.
- ٢٧ الفنون في الأندلس - عناية العرب بالفنون - النقش والتصوير والعمارة - أخذ أهل أوروبا العلوم والفنون عن العرب في الأندلس وكلام مؤرخيهم في ذلك - الترف وأبهة الملك.
- ٣٣ الغناء ومجالس الأدب - العناية بالغناء والكلام على زرياب المغني - مجالس اللهو والرقص وأغاني العشاق وأثر النساء في ذلك - مجالس الأدب والاقبال عليها وإنشاد الشعر فيها.
- ٤١ النشر في الأندلس - أحوال النشر في الأندلس وأنواعه ونماذج من أساليبه المختلفة.
- ٤٧ الشعر في الأندلس - التشابه بينه وبين الشعر في المشرق - ابتكار شعراء أهل الأندلس في الوصف وغيره وأمثلة ذلك.

- ٥٧ أبو عامر بن شهيد - ترجمته وشعره ونثره وما يمتاز به من الأساليب القصصية - قطعة من رسالته المسماة بالتوابع والزوابع - آراؤه في النقد الأدبي.
- ٧٥ الوزير ابن زيدون - حياته وصلته بابن جهور ثم موته.
- ٧٩ شعر ابن زيدون وأساليبه.
- ٨٩ الغزل في شعر ابن زيدون وصلته بولادة بنت المستكفي.
- ٩٧ نثر ابن زيدون والكلام على رساليته الجدية والهزلية.
- ١٠٧ أحمد بن عبد ربه.
- ١١١ ابن دراج القسطلبي.
- ١١٩ المعتمد بن عباد.
- ١٢٩ الوزير ابن عمار.
- ١٣٩ عبد الجليل بن وهبون.
- ١٤٧ ابن حمديس الصقلي.
- ١٦٧ ابن برد الأصغر وأسلوبه القصصي في نثره ورسالته في الأزاهر.
- ١٧٩ الأعمى التطيلي.
- ١٨٩ محمد بن هاني وأسلوبه الشعري والكلام على جمال الشعر.
- ١٩٥ ابن الحداد وأسلوبه الشعري في وصف الأديرة والقساوسة وعبادة النصارى.
- ٢١٣ ابن خفاجة الأندلسي والجمال وأثره في الشعر.
- ٢٢٥ ابن سهل الاسرائيلي.
- ٢٣٥ الفتح بن خاقان.
- ٢٤١ ترجمة لسان الدين بن الخطيب.

- ٢٤٧ الموشحات وكيف نشأت - الأنواع التي حدثت في الشعر - كلام
ابن خلدون في الموشحات - الميل إلى الخروج من طريقة الشعر
القديم - كلام ابن سناء الملك عن الموشحات في كتابه "دار
الطراز" - جملة من الموشحات لأشهر الشعراء.
- ٣٠٣ المصادر الأدبية والتاريخية للأندلس
- ٣٠٥ الفهرس

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف للطباعة والنشر
بسوسة - الجمهورية التونسية

دراسات أدبية صدرت عن دار المعارف للطباعة والنشر

- أوهم العقاد في العبقرية محمد البدوي
- الأرض والصدى محمد البدوي
- التجربة الوجودية في "اليوم الأخير" ابراهيم الحسايري
- التيارات الأدبية في تونس المعاصرة البشير بن سلامة
- الثورة في شعر محمود درويش ياسين أحمد فاعور
- جبران بين المصلوب والمجنون جلال المخ
- الشابي وتاج الشوك جلال المخ
- دراسات في الأدب والنقد أبو القاسم كرو
- السخرية في أدب إميل حبيبي ياسين أحمد فاعور
- الشعر العبري والصهيوني المعاصر محمد صالح العياري
- الفن الروائي عند غادة السمان عبد العزيز شبيل
- في الأدب التونسي المعاصر أبو زيان السعدي
- لغة وأسلوب طه حسين في كتاب الأيام د. عطية عامر
- أزمة الذات في مقامات الهمداني المنصف شعرانة
- قراءات في الشعر التونسي عبد العزيز شبيل
- طائر الفنيق دراسة تحليلية
- لرواية الليلة الطويلة محمد البدوي
- أبو العلاء المعري من التمرد إلى العدمية عبيد البريكي
- شاعر وثورة حسن فتح الباب

ISBN : 9973-16-565-9



تم سحب ثلاثة الاف نسخة من هذا الكتاب، الطبعة الأولى 1998

الثلث : 5,000 د.ت